# الإيمان

## أثره في حياة الإنسان

الدكتور حسن الترابي



# الإيمان

## أثره في حياة الإنسان

دار القلم
الكويت

الطبعة الثانية

١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م

دار القلم — الكويت — شارع السور — عمارة السور

ص . ب ٢٠١٤٦ — هاتف ٤٢٥١٦٠ — برقياً توزيعكو

## مقدمات

هذا بحث في العقيدة الدينية من حيث هي قوة ذات أثر جليل في الحياة الدنيا . ومهما يتخذ الإنسان من عقيدة تنطبع حياته بأثر منها ، ولو كانت من بنات الفكر والوضع البشري . لكن الإيمان يختص عما دونه من العقائد الوضعية بآثار بعيد مداها حميد وقعها في الحياة ، وهو من ثم جدير بالنظر المخصوص . وما أدعانا لأن نقدر آثار الإيمان الصالحة لنستبين جانبا من عظيم خطر الدين في زمان طغى فيه الفكر المادي الذي جعل لأوضاع المادة شأناً تنكسف إزاءه حقائق الدين الغيبية وتستحقر في جانبه إرادة النفس المؤمنة حتى آيس الإنسان من آخرته وأضر به في دنياه وكاد يحرمه من كل أثر طيب يحدثه الإيمان بحق الله وحتم لقائه وصدق رسالاته ومن كل سبب يبارك به الدين حياة المؤمنين . ولعل في توقير شأن الإيمان وتقدير آثاره الطيبة ما يجلب الطمأنينة لأهل الاعتقاد ويدعو المكذبين إلى التصديق فتزكو نفوس بني الإنسان وتطيب حياتهم دنيا وأخرى .

وإذا اغترب الدين في عصرنا وألف الناس شتى المذاهب العقلية والمادية والروحية من دونه ، فربما نضطر إلى إشارات لما يعهد الناس من مذاهب استئناساً وتوطئة أو مقايسة بينها وبين العقيدة الدينية . ولكننا لا نبسط الكلام في تلك المذاهب ولا في آثارها العملية ، إنما نُعنى في هذا البحث

بالإيمان وآثاره – نخصه بالنظر ونجرد متن الحديث لبيانه ، لا تصرفنا غربته إلى دحض الأوهام والشبهات عن جنابه ، ولا تحرفنا إلفة المذاهب الوضعية إلى الإفاضة في شرحها أو في نقض حجتها وإثبات مضرتها .

• • •

وقد يحسب المرء بادىء الرأي ان الدين كله شيء واحد – تصور غيبي للوجود ، وان الديانات كلها ذات مغزى واحد – يتحد اثرها في الواقع على تباين اشكال الشعائر وفروع التعاليم . والحق ان رسالات الله المتعاقبة – ما دبر منها وما غبر – قد احدثت توافقاً في اصول الديانات الكبرى السائدة في حاضر البشر ، فالمرسلون إخوان دعوة واحدة المعنى بين رسالاتهم نسب واضطراد وثيق – تصدق كل منها ما بين يديها وتبشر بما خلفها لتجعل من اهل الدين اجمعين ملة واحدة . ولكن تقادم العهود وعوامل النسيان والوضع اخترمت اصول الدين الصحيح فتلاشت معانيه وتبدلت مظاهره حتى بقيت اليوم بقية انبت ما بينها وبين السماء واصبحت ركاما من التقاليد والتصورات الموروثة . بل إن الديانات التي عهدها قريب بالسماء – كاليهودية والنصرانية – قد غلب عليها الوضع والابتداع في العقائد والأحكام انطباعاً بالأوضاع المحلية وتأثراً بالظروف التاريخية التي اكتنفت تطورها . وقد تطرأ عناصر الوضع على الدين من جراء اجتهادات تلحق به أول الأمر شرحاً وتفصيلا من أجل تهيئته للنشر والتطبيق بما يجاوب حاجات العصر الفكرية والواقعية ، ثم ما تلبث تلك الاجتهادات البشرية أن تتقوى بحجة الدين وتكتسب حرمته وتصبح تراثاً جامداً يغمر برواسبه حقائق الدين ولا يزايله مهما تغيرت الأحوال والحاجات ، فلا تبقى للدين من بعد معانيه الأصيلة ولا آثاره المعهودة .

فلا جرم أن اصدق الحديث عن الإيمان هو ما كان منسوباً إلى الإسلام ، لأنه الدين الخالص ذو الأصول المحفوظة ، ولأن سائر الأديان قد تبدلت





عقائدها وشرائعها بما شابها من بدع شتى ما أنزل الله بها من سلطان . فالحديث في شأن الدين ينبغي ألا يساق على سبيل الاطلاق . ولئن تشابهت الملل في مبدأ انبعاث الدوافع الدينية الفعالة ، فإنها تختلف اختلافاً كبيراً في مدى مفعولها وصور تأثيرها في واقع الحياة . وربما يصدق بعض ما نقوله عن عقيدة الإسلام على بعض العقائد الأخرى ، دون أن تضطرد المعاني على وجه العموم . بل ينبغي أن نحرر الإسلام الذي قرره الوحي وسنة الرسول ﷺ مما ينسب إليه من تصورات واهمة شاعت اليوم بين عامة المسلمين أو سادت في فترات معينة من تاريخهم ، فذلك هو خلاق المسلمين في التبديل يضاهون به سنن الملل الأخرى حتى ينيبوا إلى كتاب الله المحفوظ وسنة رسوله الباقية .

ولسنا بحاجة إلى تعريف الإيمان في دين الإسلام بأكثر من عبادة الله الواحد والإيمان باليوم الآخر وبالجزاء والتصديق بالرسالة وبسمعيات الغيب ، ثم تتدرج في هذه الأصول سائر شعاب الاعتقاد التي بسط علماء الفقه والكلام تفصيلها وأفاضوا في مباحث المعاني والألفاظ المتصلة بها . ولما كان همنا قاصراً على بيان الآثار العملية للعقيدة فليس من شأننا أن نخوض في شروح الإيمان أو نسلك النهج المعروف في مباحثه ، وإنما نعنى بعناصره وشعابه من حيث تأثيرها في واقع الحياة فلا نعرض لها إلا في سياق ذكرنا لوجوه ذلك التأثير .

• • •

والحديث عن الإيمان ذو شجون . ولا ينفك القرآن يجمل القول ويفصله في أمره ، فهو يوالي سوق البراهين لقضاياه مذكراً باصله المركوز في فطرة النفس البشرية ثم هاديا بالأدلة إلى وحدانية الله وصفاته الحسنى التي تقدسه عما يشوب تصورات البشر من أوهام وتنزهه عما يشركون ويشبهون . ويحشد القرآن المعاني تترى لإثبات مبدأ المسئولية يوم الدين ، فهو يوجه الإنسان أن ينظر كيف بوأه الله الأرض وسخر له ما فيها وما حولها ليقدر أن مستقره

ومتاعه إلى أجل وأن الله ما خلق الوجود باطلا وعبثا وما ترك الناس سدى يلجون في خوض وتظالم وتدور عليهم دورة الحياة والموت بلا غاية ولا نهاية بل جعل قدرهم أن يبتلوا في الدنيا أيهم أحسن عملا ثم يبعثون يوم الدين ليوفوا جزاءهم بموازين عدالة مطلقة. ويذكر القرآن بان الإنسان وقد هبط إلى الأرض عرضة لفتنة الشر وإغراء الشيطان ولكن ربه يسعفه بالهدى يتنزل عليه على لسان المرسلين تبياناً للتي هي أقوم في شأن دنياه وآخرته. ويبسط القرآن دلائل صدق الرسل وقصص الصراع بين الكفر والإيمان، ويكشف للناس أموراً سمعية تصور لهم عالم الغيب، ويوجههم في عالم الشهادة لما ينبغي أن يكون من سيرة المؤمنين، ويصور لهم كيف يتفاعل الإيمان مع شتى أحوال الحياة، ويزف إليهم البشائر والنذر المرهونة بالأعمال.

ومهما تكن معاني الكتاب الخالدة فإن المسلمين مدعوون في كل زمان ومكان لأن يقتبسوا منها ما يعالج واقعهم ليصوغوا من ذلك مقتضى الدين الذي يتعين عليهم ويناسب ظروفهم الخاصة. وهذا القبس المخصوص ـ مثل ما ينتج عنه من صور تطبيق الإسلام ـ لاحظ له من خلود الكتاب، وإنما تقوم حجته ما قامت ظروف الزمان والمكان. بيد أن ركود المسلمين في العهود الأخيرة جعل الغالب من فكرهم الحاضر تراثاً تناقلوه من نتاج العصور السالفة التي كان فيها شأنهم مزدهراً.

ولنا إذا تاملنا مقالات الإسلاميين السالفين في قضية الإيمان أن ننسبها لثلاثة من وجوه النظر. أولاً: نظر المتكلمين والفلاسفة الذين تصدوا لبراهين الإيمان وإثبات حقائقه علاجا للمسائل التي طرحها الجدل مع الكتابيين والزنادقة والخلاف بين الفرق الكلامية عند المسلمين، ويغلب على ذلك كله قوالب المناظرة وأساليب المنطق التي كانت سائدة آنذاك. ثانياً: نظر الفقهاء الذين تورع كثير منهم عن الخوض في مناظرات علم الكلام ولكنهم شرحوا أحكام الإيمان والكفر شرحاً فقهياً فحرروا





ألفاظها وحددوا شروط انطباقها، لا سيما حين اتجه الفقه بعد طور الاهتمام بمقاصد الدين ومعانيه نحو الإيغال في مباحث الألفاظ والأشكال. ثالثاً: نظر علماء الدين الذين اشتهر من بينهم أهل التصوف الذين اهتموا بحقائق الإيمان الحية وراء أشكال المنطق وألفاظ الفقه فأبانوا دقائق الاعتقاد وشعاب العاطفة الدينية ومناهج التربية النفسية لتزكية الإيمان.

وإذا قومنا اليوم هذه الوجوه من الفكر الإسلامي فإننا لا ريب واجدون لكل منها بعض القيمة الباقية لا سيما إذا جردنا اطرافها من الشطط الذي يبدو شذوذه اليوم أكثر مما بدا لأهلها يوم كان تحرير تلك الأفكار استجابة لأزمات حادة راهنة استدعت أن يبالغ أطباء المجتمع المسلم أحياناً في وصف العلاج.

ولكن ظروف فكرنا الحاضر أدعى إلى نظرة جامعة في العقيدة تأخذ أيضاً من معاني القرآن الخالد الذي لا تنفد ذخائره، بيد أنها تعنى بجملة أثر الإيمان في الحياة. ولقد اصبحت الدراسة الواقعية لشأن الإنسان مشهورة وميسورة، لأن العلم البشري مذ تقدم اشواطاً في اكتشاف نواميس الوجود قد أفاض في دراسة الإنسان يحلل الأصول النفسية لمواقفه وسيرته ويتأمل السنن العامة في نهج حياته، ولأنه قد انتشر الوعي بظواهر التطور الذي يكتنف حياة الإنسان واهتم الناس بتوجيه مصائر الحياة حتى غدت حركة التخطيط والتدبير والتغيير ناشطة في كل مجال.

ولربما يتوهم المرء أن النظر إلى حياة الإنسان بنهج واقعي شامل لا يتأتى من زاوية الإيمان، حسباناً بأن العقيدة من الدين ما هي إلا شطره الذي يتصل بتصور الحقائق النظرية، وأن التعبير عنها في الواقع إنما يقتصر على الشهادة بصدق الدين والمجادلة عن حقه أو على شعائر التعبد التي تتوجه مباشرة وإخلاصا لتوقير الله وتكبيره والتخشع له والتضرع. ولربما يحسب المرء لذلك

أن فساد العقيدة إنما يتجلى في خطل التقريرات التي تتضمنها شهادة العابد أو خطأ الوجهة التي تتوخاها شعائر العبادة .

ولكن الإيمان معنى يتخلل كل وجود المؤمن وينبغي أن يتمثل في كل لحظة ولمحة من حياته . فعقيدة الإيمان تقوم على التوحيد والاستغراق ، فهي موقف كلي ليس لوجوه التعبير عنها من حصر ، بل مسرحها الحياة الإنسانية جميعاً . فحيثما وقعت وقائع الحياة من فكر أو ذكر أو فعل اتيح مجال للعبادة وحيثما كانت عبادة فهي تحقيق للعقيدة وتربية لها في ذات الوقت .

وتجري الحياة على الإنسان بأحداث وانماط لا تتناهى حسبما تصورها أقدار الله الواسعة – ما يكون منها متصلا بكسب البشر وما يمضي به سائر القضاء . فمهما كان قدر المؤمن في الحياة وحيثما وجد نفسه في أحوالها وجب عليه أن يمارس دينه ، أن يعبد الله ، أن يحقق عقيدته ويزكيها متفاعلا مع واقع الوجود . فالدين لم يشرع للانسان في فراغ ، وإنما يتحقق من خلال العيش في الأرض والتفاعل مع أشيائها وبشرها ، ومن ثم تتم معرفة الرب وتقدير الغيب وتكون عبادته تعالى والسعي نحو لقائه . ولئن كان من العبادة أشكال مقررة مسنونة أدعى وأخلص لذكر الله فإنما ذلك هو النصاب الأدنى الذي يضمن للانسان أصلا من التدين ، ثم تلتمس وجوه العبادة وراء ذلك عبر مختلف أشكال الحياة وأعمالها . فإذا كمل إيمان المرء وخلصت عبوديته لله سرت روح الدين في حياته جميعاً وانتظمت كل عمل تتيحه الظروف التي تلقيها بين يديه أقدار الله . فتتجلى العقيدة في المجال السياسي – إفراداً لله بالحاكمية ، ورفضاً لحكم الهوى والطاغوت ، ومخافة لليوم الآخر في تصريف السلطة والولاية ، ومجاهدة لقوة الباطل في سبيل الله . وتظهر العقيدة في المجال الاقتصادي – إقراراً في شأن المال بمالكية الله وخلافة البشر ، وتوجيها للسعي في الرزق نحو مقاصد العبادة وعكوفاً عن التعبد للمتاع ، وقياماً في علاقات المعاش بمقتضى تقوى الله وطاعته . وتبدو العقيدة في المجال العلمي



توحيداً لمعقول العلم ومنقوله في سبيل الازدياد من معرفة الله وتسخيراً له من أجل الاتساع في عبادته . بل تتمثل العقيدة في كل وجه من الحياة وتتكشف العبادة كلما تشعبت تلك الوجوه . فإذا صح الإيمان ووقر في النفس فاض في واقع الحياة حتى تغدو كلها مشهداً له يحققه ويصدقه ، وإذا أصابته العلة انحسر عن بعض نواحيها حتى إذا غلب عليه الفساد أجدبت من مظاهره .

فالحديث عن عقيدة الإيمان لا يقتصر على ترتيب المعلومات النظرية أو تعداد الواجب والمحال في حق الله والملائكة والمرسلين أو إحصاء سمعيات الغيب ، ولا على المناظرة والكلام في حجية أحكام الاعتقاد ، ولا على تقرير الشروط اللازمة لصحة الشهادة بالدين أو الحدود التي تودي إلى الارتداد ، ولا على تحليل الأحوال النفسية اللطيفة التي تورثها شعاب الإيمان ، وإنما الحديث عن العقيدة حديث عن الحياة جمعاء . ويجدينا كثيراً أن ننظر في الإيمان بهذا الوجه الجامع فنستبين مقتضاه في سيرة الفرد وأثره في أحوال الجماعة ونقدر ما يحدثه في حياة الإنسان من تبديل جليل .

• • •

وقد يكون لنا أن نتعرف آثار الإيمان من استقراء الواقع التاريخي لدين الإسلام . فإن من أبلغ العبر أن ننظر كيف ألفى الإسلام في العرب شعوباً مبعثرة الكيان تستقل كل طائفة منهم بولاء قبلي وولاية سياسية وينهك قواهم الحرب المضني فأحالهم بعد الشقاق إخوانا وجعلهم أمة واحدة وأقام عليهم سلطانا مركزيا شاملا ، وكيف كانت أطرافهم واقعة تحت نفوذ الآخرين بل كان سائرهم غرضاً للغزو والتسلط فاستشرفوا بالإسلام إلى العزة والحرية وتصدروا لقيادة سياسية مسرحها العالم العريض ، وكيف كانوا فقراء إلا من رحلتي الشتاء والصيف وأسواق التجارة الزهيدة فاستثارهم الإسلام إلى الجد والكسب الدؤوب وسخر لهم ثروات كانت مكنوزة وإمكانات كانت مهجورة وقاعدة إقليمية متزايدة حتى أحدثوا نهضة اقتصادية رائعة ، وكيف كانوا

في مظاهر الحضارة المحدودة التي عرفوها عالة على الفرس والروم والهند فأسسوا بدوافع الدين حضارة راقية أظلت العـــالم دهوراً طويلة وأفاضت عليه من خيرها العميم ، وكيف كانوا في مجال العـلم خاصة أمة أميـة فأهلهم الإسلام ليصبحوا أرباب المعرفة وأئمة العـلوم ابتداعا وتنظيما وتدوينا ونشراً فأقاموا مراكز العلم التي أشعت على أوربا من نورها فأيقظتها من سنة القرون ...

ولنا أن نرد كل هذه النهضة الهائلة السريعة إلى دوافع الإيمان الفياضة التي هاجت ذلك الجيل الإسلامي الأول وعبأت طاقاته في حملة ضخمة تفاعلوا فيها مع ظروفهم الجديدة فشادوا ذلك المجد الشامخ ، وأن ننظر كيف خبا وَقْدُ ذلك الإيمان من بعد وخلّف خلف ذبلت في نفوسهم معاني الدين الحية وغلب عليهم اتخاذ الدين نظاماً لظاهر الحياة فتعثرت تلك الدفعة وتلاشت قواها . ولقد ظلت بعض وجوه حيـــاة المسلمين تزدهر زمنا مـا ، ولكن النكسة أدركتها بعد حين وتداركت مظاهر الانحطاط .

ولنا أن نتأمل موكب التـاريخ الإسلامي اللاحـق لنرى أنه مـا تنبعث الحياة في عقيدة المسلمين في بقعة أو فترة ما إلا لتولد تياراً فعالاً يحدث أثراً ملموساً في بعض حياتهم أو كلها حيثما اتجهت طاقته ثم لا يسقط إلا إذا أدركه فتور العقيدة أو هدته ظروف قاهرة تستدعي قدراً أعظم من الإيمان أو خذله الجهل بعلم الشريعة فتخبط سدى .

وللباحث أن يرقب تاريخ سائر الأديان ليقف على مشاهد شتى لشدة فعل العقيدة في الحيـــاة في سياق ظروف مختلفة وعلى شواهـد بينة لأثر أمراض العقيدة في انحطـاط المجتمع ـ حينما يصبح الدين مراسم ومظـاهر والنفـوس خواء من الإيمان ، أو حينما يتوافر الحماس الديني بغير هدى من العلم .

بيد أنا لا ننهج في هـذا البحث نهج الاستقراء لتاريخ الدين فذلك شأن المؤرخين ( وإن لم تكن مدونات تاريخنا قد رصدت كثيراً من هذه الزاوية ) ، وإنما نتوخى التحليل دون القصص . وقد يماري مكابر في الدين بأن فاعليتـه





كانت رهناً بظروف مواتية في مرحـلة منصرمة في مـدارج تطور البشرية ، فإذا تسنى لنا بالتحليل والتدبر أن نكتشف في الإيمان عناصر قـوة فعالة أمكننا ان نفسر سوالف النهضات الدينية ونقدر إمكانات الانبعاث في المستقبل على أساس من الإيمان . وصحيح أن للظروف الراهنة في كل عصر اعتباراً ذا بال لأن قوة الدفع الإيماني إنما تتفاعل مع تلك الظروف لتنتج مظاهر النهضة الحضارية ، ولكننا نخص الإيمان في ذاته بالنظر لنتعرف شيئاً من قوانين قوته ووجوه اندفاعها ومن طبيعة آثاره ومدى نفعها العميم .

• • •

وقد لا يرتاب المؤمن في جـدوى الإيمان ولا يتساءل عن نفعه لأنه ـ بمـا آمن بالله واعتصم به واستقام على عبادته ـ يعلم أنه مؤيد بأقدار الوجود كلها مهيأ لأسباب الخير ، فإليـــه تعـالى ترجع الأمور والأسباب ـ يوفق سعي المؤمنين ويبارك جهدهم ويجعل لهم من أمرهم كله ما تطيب به الحيـاة . والله جل شأنه إنما يرتب الآثار الصالحة على الإيمان بسنن مقدرة ثابتة كما يقضي بذلك سائر نهجه في الوجود . ولكن من تلك المقادير ما هو علم غيبي لا نعـلم طرقه إلا من الأصول الدينيـة التي ترهن عواقب الخير بشرط الوفاء بواجب الإيمـان اعتقاداً وعملا ، فعاقبة الإيمان بهذا الوجه وعـد حق يستيقنه المؤمن بعقيدته ويعرف صدقه من تجاربه الذاتية ومن اعتباره بواقع المؤمنين .

بيـد أنا لا نريد إحصاء منافع الإيمـان استنباطاً من النصوص التي تبشر المؤمنين بحسن المآل ، كما لم نلتمسها في استقراء تاريخ المؤمنين ، وإنما خطتنا أن ننظر في طبيعة الاعتقـاد الديني وشعابه ومقتضياته فنقـدر النتائج التي تترتب عليه بالنظر الظاهر حسب أسباب الدنيا المعهودة المشهودة .

ولا يعالج البشر قضايا الحياة إلا بادراك عليل وعلم قليل ، فليس لامرىء مهما أنعم النظر ووالاه أن يحيط بأبعـاد التأثير النافع للإيمان ، ولا يغنى المؤمن إلا أن يطلب ذلك في نصوص الوحي المنقول ليتم له العـلم ويكتمل

التصور . فلا مطمع لنا من هذا البحث في أمر الإيمان إلا أن نتأمل في بعض الأسباب المعقولة لنا مما يبارك الله به حيـاة المؤمنين ـ عسى أن نكتشف من خلال تلك التأملات وجوها من تأويل حديث القرآن عن الإيمان ، أو ان نقوي بها قناعتنا بعظيم شأن الإيمان في الحياة الدنيا فيشتد اطمئناننا وإيقاننا بحقائق الاعتقـاد ، او ان نهتدي إلى جانب من حكمة الله في الوجود تزيدنا معرفة به تعالى وقربا من جنابه .

• • •

ولقد وضح من فحوى القول ان همنـا في أمر الإيمان يقتصر على آثاره العاجلة التي تحدث في دنيا الإنسان فتقيم له أموره وتصلح معاشه ومحياه . ولا ريب ان الدار الآخرة هي الحيوان في حساب الدين وأن عيشها خير من عيش الدنيا وأبقى ، وأن غاية الإيمـان وما يواكبه من عبادة وعمل إنمـا هي ابتغاء وجه الله وأن ثمرته العظمى وأثره الأجل أنه مفتاح الفوز يوم القيـامة بالنعيم العظيم الديوم ـ عيشة الجنان الهنيئة ورضوان الله الأكبر ، فما من بشارة دينية بنعيم الآخرة إلا جاءت مقرونة بشرط الإيمان والعمـل الصالح شاهـداً له ، أو نذارة بالشقاء إلا جاءت رهينة بالكفر والتولي . تلك معان لا حاجة لأن نستشهد لها بنصوص الدين لأنها من بداهته ومقتضياته الأساسية والإيمـان بها هو عماد الدين لا قوام له من دونه . ولكن الدين يقضي أيضاً ان الحيـاة العاجلة مطية الآجلة وأن الطريق الراشد الذي ينتهي إلى آخرة طيبـة يعبر الدنيا فيطيبهـا ، فصلاح الدار الأولى فضلة تنتج بين يـدي صلاح الأخرى : « من عمـل صالحاً من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينه حيـاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ( النحل ٩٦ ) .

فللإيمان من دون العاقبة العاجلة المرضية ثمرة عظيمة وآثار جليلة في عاجل حياة الإنسان ـ هو الذي يبحث على عمران الدنيا بالصلاح وصونها من الفساد بوجه لا يضاهيه شيء مما يحاول الناس بغير الدين .

• • •





ولا ندعي ان في بيان فائدة الإيمان او ضرورته في الحياة الدنيا ما يؤسس حجة ملزمة تثبت حقائق الدين ، كما ينبغي ان لا يستأنس بذلك البيان الذين يردون الدين كله إلى مجرد ظاهرة اجتماعية وضعها الإنسان للوفاء بحاجاتـه . ولا نتوهم ان الدنيا هي مبلغ علم المؤمن او أكبر همـه ، فليس من الدين ـ كما قدمنا ـ أن يبتغي المرء بإيمانه عرض الدنيا القريب دون الآخرة بل تلك بغية خائبة لا محالة لأن إيماناً كهذا عقيدة عقيمة لا تثمر في عاجلة ولا في آجلة .

ولكن كثيراً من مواقف الناس نحو الدين فرع عن رأيهم في جـدواه العـاجلة ، فإذا لم يرجوا له خيراً او يخشوا من دونه شراً في حياتهم العـاجلة فالأولى في حسبانهم ألا يكون فيه خير في الآجلة . وينقلبون من هـذا الحكم الغائي على الدين إلى مقدمات الاعتقـاد الأولية فينكرونها او يأخذهم بهـا الشك حتى يلتمسوا الطمأنينة في إهمال مسألة الدين جمـلة واحدة وينقلبوا في حياتهم غير آبهين بشأنه البتة .

ولعل انصراف كثير من اتباع الدين في عالم اليوم عن دينهم عائد إلى ان التقاليد الدينية الموروثة حجبت اصل الدين الخالد عن الناس فلما تخلفت تلك التقاليد عن حاجاتهم الحـاضرة صدوا عن الدين كله غـير مكترثين لحجج المنـاطقة المتدينين ولا لإنذارات الفقهـاء المفتين ولا لأخبـار الصوفيـين عن مكاشفات عالم الروح .

• • •

ولربما يلزم المرء ـ ليستوفي تقدير مغزى الدين في واقع الحيـاة ـ ان يعم بنظره كل التعاليم الدينية عقيدة وشريعة . ولكن بحثنا هذا إنمـا يقتصر على عقيدة الإيمان .

ولا يستقيم بالطبع ان يكون الفصل بين نظام الدين العملي وعقيدته فصلا بائناً ، فالأحكام الفرعية العملية إنما هي وجوه التعبير عن الإيمـان في واقع

الحياة وهى في ذات الوقت اسباب تزكية لمعانيه في النفوس ، كما ان الإيمان ينصب الغاية التي ينبغى ان يتجه إليها كل عمل ويمثل القاعدة التي تندفع عنها طاقاته . فالدين واحد في معانيه ، تتكامل فيه العقيدة والشريعة . وهو في حقيقته الواقعة ، العقيدة تدفع المؤمن لصالح الأعمال وتضبطه عن سيئاتها وتخط له معالم تجدى الخير والشر في الحياة ، والشريعة بمبادئها العامة وأحكامها الفرعية هي دليل العمل ونظامه تبين اتجاهاته واشكاله وترسم علاقاته وحدوده . فبالإيمان يستمد المرء قوته ويهتدى إلى وجهته في الحياة ، وبالشريعة يتعلم أي نحو مفصل ينحو بعمله في واقع أحواله المعنية كما يتعرف دقائق نظم السلوك وضوابطه .

وما دام الإيمان واتباع الشريعة وجهين للدين متلازمين متكاملين فإن الآثار الخيرة الناتجة عنهما في الحياة الدنيا يمكن ان ترد بحق لأي منهما . فالإيمان سبب في منافع الدنيا ومتاعها : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » . ( يونس ٩٨ ) .

والشريعة طريق إلى العيش الهنيء : « ... فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » . ( طه ١٢٣ – ١٢٤ ) .

وإن هذا التلازم الوثيق بين الإيمان والتعاليم العملية ليبلغ ذروته في دين الإسلام الذي احتفظ بنسجه الرباني الموضوع وتكامله الموزون ولم تخالجه اختلاقات الوضع واختلافاته .

ومهما يكن من ذلك فإن الاقتصاد في الحديث يدعونا لأن نصوب النظر إلى جماع آثار الدين في الحياة كما تفضي إليها أصوله العقدية او إلى النتائج العملية الأساسية التي يقتضيها الإيمان – يتحقق بها وتصدقه في واقع الحياة ، ولأن نكفه عما يؤيد ذلك ويفصله من مقتضى الأحكام الشرعية – إلا إشارات





عابرة نومىء بها إلى طرف من الأحكام التي تستكمل معاني الإيمان وتشكل منها بغيات النظام الاجتماعي وأطر الحياة الدينية . سوى أن التصديق بأصل الشريعة والعلم بها شعبتان من العقيدة يستلزمهما الإيمان ولا يتم إلا بهما ، فالشريعة بهذا الوجه من صميم ما نشمله بالنظر لنستبين أثره العام في الحياة .

● ● ●

ولئن كففنا الحديث عن أمر الشريعة فلعل في إرساله في أمر الإيمان استكمالا لازماً لبعض الدراسات التي تصف نظام الإسلام من حيث أحكامه وأوضاعه العملية . وقد كان ذلك النهج فاشياً عهد ازدهار الفقه الإسلامي ، ثم دعت مناهج العلوم الاجتماعية في حاضرنا إلى دراسة نظم الحياة بوجه واقعي وإلى المقايسة بين المذاهب المختلفة ليتسنى الحكم بين فضلها أو قصورها في الوفاء بالحاجات وتوفير الخير للإنسان . ومذ كان ذلك غدت المناظرة مألوفة بين الإسلام والنظم الأخرى ، لا سيما أنه بأصله نظام كلي متميز وأنه يقف اليوم بأهله وجهاً لوجه مع سائر الملل في عالم وثيق الاتصال .

ولا شك أن للاسلام بكونه وحيا منزلا من الله خصائص تميزه عن جملة مذاهب البشر الوضعية مهما اختلفت أسماؤها – ذلك أمر يثبت للناظر أيا كان اعتقاده في حق الإسلام وباطل الأهواء . لكن أعظم تلك الخصائص أن شريعته العملية مؤسسة على قاعدة من معاني الإيمان ، ولا يستقيم الدين البتة إذا جُرِّد من تلك المعاني ولم يُعتبر منه إلا الأحكام والأوضاع ، فذلك اعتبار يصوره صورة ممسوخة بما يسلب منه العنصر المؤثر الفعال ويدخله في زمرة النظم المادية الدنيوية .

فعنصر الإيمان هو الروح الذى يحيا به نظام الشرع ، وهو لذلك جدير بدراسة مخصوصة ليتم لنا تقدير الشريعة حق قدرها فإذا نسبناها إلى شرائع الوضاعين تجلى فضلها بوجه لا تبرزه أبداً مقارنة صورة منها ميتة إلى سائر النظم . ولعل في ذلك ما يهيىء أهل شريعة الإسلام ليجابهوا الغزو الفكري

الذي يعصف بهم من كل جانب بل ليتصدوا للعالمين بدعوتهم إليها ويجاهدتهم بها جهاداً كبيراً .

● ● ●

ومهما تكن جدوى الحديث عن الإيمان لدحض شبهات المرتابين في أصل الدين أو لإقناع أصحاب الملل الأخرى بفضل الشرع الإسلامي وفاعلية نظامه ، فإن المسلمين في خاصة أمرهم بحاجة للتذكير بعظيم شأن الإيمان . ذلك أن سواداً عظيماً منهم يكتفي من دينه بإجراءات تعبد يوقعها أشكالاً ظاهرية وبمعاملات يرائي بها المجتمع الذي يراقبه وبآداب في اللفظ الجاري على اللسان ، ويحسبون ان البر والبركة في اللفظ والحركة دون كبير اعتبار لمقاصد الدين ومعانيه الحية . وما علة انحطاط المسلمين في أمور الدنيا إلا أن قضاءل في نفوسهم الإيمان حتى غدت منه خراباً بعد عمران : « ... إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... » ( الرعد ١١ ) . فتراهم يتسابقون في انضباط السلوك الظاهر وفي حساب التعاويذ والأذكار وطويتهم هواء لا تجيش بحواث الإيمان وعزائمه التي تحدث النهضة في واقع الحياة . ولو أنهم أصلحوا ما بأنفسهم فصدقوا الإيمان باطناً ثم استقاموا ظاهراً على حكم الشرع لتقبل الله منهم وأصلح حالهم وبارك سعيهم نحو حياة أفضل .

● ● ●

وإذا ذكر الإيمان وعظم شأنه في الحياة لزم التنبيه إلى ضرورة تربية معانيه في نفس المؤمن لتربو آثاره وتشتد ، وتثقيفه بالعلم لتستقيم وجهته . ذلك أن الإيمان ليس كبعض تعاليم الشريعة حكماً منضبطاً ظاهراً حده وشرطه وليس اسماً تترتب عليه الآثار بصورة آلية ويعقب الخبر فور وجود جنس منه ، وإنما الإيمان علم ويقين يعيه الإنسان وينفعل به شعوره بدرجة من درجات القوة ثم يطرأ عليه النمو أو الذبول حسب حظ صاحبه من أعمال التعهد أو التضييع ـ العلم والعبادة أو الخوض واللهو . فلا يجدي إيمان





لا يتخوله صاحبه بالتربية لأنه لا محالة آيل إلى ذبول حتى يصير مجرد خواطر يقوم بالذهن غير دفاع ولا مناع ، ولا يستقيم دين بغير علم لأنه يصبح قوة رعناء لاغية أو باغية .

فكل ما نصف من آثار جليلة لعقيدة الإيمان إنما ينبني على شروط الوعي والقوة في دين المؤمنين . ولكننا نستعفي بهذا التنبيه عن ان نخوض في أمر التربية الدينية ووسائلها لئلا يتطاول البحث .

● ● ●

ونمضي في ختام هذه المقدمات في حصر حدود حديثنا عن الإيمان فنقرر أنا لا نقصد ولا ندعي الإحاطة والشمول وأنا لا ننهج في بحثنا نهج علوم النفس او الاجتماع ولا ننسبه إليها ، وإنما هي خواطر حول الإيمان ووقعه في الحياة راودت صاحبها لزمن مضى ثم قيض الله له أن يحتبس عليها فيقيدها عفواً لا يتكلف البحث الوافي ولا تتيسر له أسبابه ، وها هو يخرجها إلى ساحة القراء . وبالله التوفيق .

# الفصل الاول

## أثر الايمان في رقي الحياة

# ( توطئة ) معنى الحياة في عقيدة الايمان

الإنسان في نظر الدين مخلوق من مادة الطبيعة — من ذات طينة الأشياء التي تكون عالم الشهادة ـ ولكن الله سواه ونفخ فيه من روحه وآتاه من علمه فأودع فيه بذلك عنصراً آخر ميزه على أشياء الطبيعة وكرّمه تكريماً : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » . ( الإسراء ٧٠ ) . ومن أجل ذلك أمر الله الملائكة لأن يقعوا لأبي البشر ساجدين : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » . ( ص ٧١ — ٧٢ ) . فلما أهبطه إلى الأرض جعل له سلطاناً على الأشياء وسخرها جميعاً لخدمته : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ... » ( إبراهيم ٣٢ — ٣٤ ) .

وكان الله قد هيأ الإنسان لمرحلته الأرضية بأن علمه أسماء الأشياء وزوده بوسائل الإدراك واكتساب العلم : « وعلم آدم الأسماء كلها ... » ( البقرة ٣١ ) ، « الله الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئـدة ... » ( السجدة ٧ – ٩ ) . فلا ينفـك الإنسان لذلك يتطلع إلى الإحاطة بعلم الأشياء . ثم إن الله قد ركب في فطرتـه أيضاً غرائز ملحة تجعله يتعلق بمواد الطبيعة يتطلب فيها متاعاً يشبع شهـــواته : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منـــه لحماً طرياً وتستخرجوا منـــه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ... » ( النحل ١٤ ) ، « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منـــه سَكَراً ورزقاً حسناً ... » ( النحل ٦٧ ) .

ولكنه تعالى أودع في الفطرة استعداداً لتجاوز الطبيعة توجهاً إلى الخالق الأعلى بالحب والعبادة . فلا ينبغي للإنسان – بما فضل على الطبيعة وبما أنيط به من سلطان عليها – ان يخضع لمظاهرها أو يتخذ منها متعبّداً وهدفاً أعلى . بل ينبغي ألا يحتويه التعلق بها فيجعل من استغلالها والتمتع بهـا غاية لهمـه ومنتهى لقصده . إن للانسان معنى أكرم وأكبر من الكائنـــات المشهودة ، فحياته إذاً ذات مغزى أكبر من الولوع بالكائنات عبادة لهـا أو استعباداً . وإنما مظاهر الطبيعة هي معبر الإنسان إلى ربه – قد تروعه بدأتها وتستحوذ على همه لكنه متى يمعن النظر يدرك أنها ناقصة لا تستأهل التوقـير ، خاضعة لأوضاع وقوانين محكمة لا تستطيع منها تفلتا ، شاهدة بذلك الخضوع أن الذي فطرها وقدّر أمرها أعلى وأجل وأولى بالتوجه والعبادة : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبـدون » ( فصلت ٣٧ ) . ونعم الإنسان ذو النظـر الثاقب من اختلبته مظاهر الكون لأول وهلة لكنه تامل نقصها فتدرج فيها يبتغي الكمال حتى ازدردها جميعاً وتجاوزها إلى الله الذي بدأ الخلق وانتهى إليـه الكمال : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلمـــا أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هـــذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هـذا ربي





هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطـر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » ( الأنعام ٧٥ – ٧٩ ) .

وإذا أعجب الإنسان بذاته وغره علو قدره على الطبيعة وتمكنه منها فقد يعكف على نفسه ويتخذ إلهـــه هواه فتستعبده شهواته وتفتنه مكتسباتـه . ولكنه إذا تأمل في ذات نفسه ببصيرة نافذة وجد منها دليلاً على الله ، لأنـه بعنصره الطيني من بعض مادة الطبيعة يخضع جسده كرهاً لقوانينها اللازمة ، فهو مثلها ليس محطاً للكمال بـل آية تدل عليـه . ولئن كان له من حيث عنصره الروحي امتياز على سائر الطبيعة بمـا يملك من حرية اختيار مواقفـه وتكييف شئونه ومن قابلية التعلم والإحاطة بالأشياء ، فإنـه مضطر للاقرار بان حريته وعلمه منقوصان لا يسريان إلا في إطار الطبيعة ومـا هما إلا قبس أمده بهما الله ذو المشيئة الطليقة الحاكمة والعلم الكامل المحيـط : « ... وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ( الإسراء ٨٥ ) ، « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ، ( التكوير ٢٩ ) .

بيد أن لامتياز الإنسان بالعـــلم والحرية مغزى عظيماً . فسائر الأشيـاء مشدودة إلى ربها بطبعها طائعة لحكمه كرها ، بينما أتيح له هو ان يهتدي إلى الله بعلمه وأن يكون موضعاً لخطاب الله باوامر تكليف لا يقهر بها قهراً بـل يترك له ان يلتزم بها طوعاً او يفسق عنها إن شاء : « انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » ( الأحزاب ٧٢ ) .

ولقد حير الملائكة في شان الإنسان ان يتيح الله له حرية ربما تجر الى الفساد وهم مسيرون موَطنون على الطاعة : « قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال اني أعلم ما لا تعلمون » ( البقرة ٣٠ ) . ولكن الله قدر للانسان شأنا لم تدرك تأويله الملائكة – ان يختصه من دونهم ومن دون سائر الخلائق بقوة العلم والإدراك وحرية المشيئـة

ثم يطرحه في مسرح الكون المشهود امتحاناً له أين يتجه بحياته. فالمؤمن من نفذ بعلمه ظاهر الكون نحو خالقه واستجاب لنداء الإيمان المنبعث من فطرته فتسامى عن التعلق بالأشياء وتحرر عن هواه وتوجه تلقاء ربه يقف الحياة على عبادته ويحمل لقاءه هدفها الأعلى. ذلك هو الذى اجتاز الامتحان. ولكن الساقط الفاشل من شغله هواه عن دواعي الإيمان في نفسه او حجبته أشياء الطبيعة عن خالقها فاشرك به معبوداً من دونه وأخلد الى الأرض منحطاً عن المرتبة الجديرة بالإنسان: « ... ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق » ( الحج ٣١ ).

فالمعنى الكبير الذي قدره الله في خلق الحياة والموت انما هو ابتلاء الناس فيما يعملون: « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور » ( الملك ٣ ). وكل ما يحيط بالإنسان من أوضاع الطبيعة وصورها وكل ما يعتور حياته من خير وشر مادة لذلك الابتلاء الذى يتصل ويدوم ما دامت الحياة الدنيا: « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » ( الكهف ٧ )، « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » ( الأنبياء ٣٥ )، « ان الدنيا حلوة خضره وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون » ( مسلم ).

ولا يحمل الله على الناس فيما يبتليهم من حرج بل ينزل اليهم من السماء نوراً مبيناً يهديهم في ظلمات الحياة. فقد تطبق على الإنسان مظاهر الكون المشهود وتشغله شهواته وتعلقاته بمتاع الدنيا فينسى عالم الغيب ويغفل عن الآخرة، وقد يتصدى له شيطان الجن الذي حسده لأول خلقه لما حبي من تكريم والذى ناكف الله في شأنه فآلى ان يلازمه بكل وجوه الإغواء والإضلال حتى يبطل فضله فيستويا في استحقاق اللعنة والطرد من لعنة الله: « قال يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاخرج منها





فإنك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين... قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين » ( ص ٧٣ – ٨٣ ). فالبشر منذ هبطوا الأرض على موعد مع وحي الله يأتيهم على لسان الرسل تذكرة للانسان بما قد ينغمر في فطرته من دواعي الإيمان وتعليما له مالا يدركه بعمله من شأن الله ومن أمور عالم الغيب ودليلاً له الى نهج الحياة الأقوم وتبشيراً له ونذيراً بمصائره بعد انقضاء مرحلة حياته الأرضية: « قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ». ( طه ١٢٣ – ١٢٤ ).

فلا بد من يوم يفضي فيه الابتلاء الدنيوي إلى منتهاه ومؤداه فتنقطع الأعمال ويحشر الناس ليوفوا نتائج كسبهم في الحياة. يومئذ تحصل لكل فرد جملة أعماله وتعرض عليه صحيفة حسابه وتقام عليه الأشهاد وتنصب الموازين العادلة فيزف الفائزون إلى لقاء ربهم – ذلك اللقاء الذي اتخذوه هدفاً لأول حياتهم – فتتم لهم الطمأنينة ويخلدون في كنف الله إلى نعيم عظيم: « يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي » ( الفجر ٢٧ – ٣٠ )، ويحجب الخاسرون عن ربهم جزاء وفاقا لأنهم ما كانوا يرجون لقاءه بل كان نصبهم في الدنيا لغايات عاجلة من دون ذلك فليس لهم هنالك إلا الشقاء والحرمان العظيم: « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالو الجحيم. ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ». ( المطففين ١٥ – ١٧ ).

• • •

أما بعد فلننظر في أثر هذه العقيدة التي أوجزنا بيانها – كيف تدعو إلى إعمار الحياة الدنيا والرقي بها.

وإنما تكمن مقومات إعمار الدنيا في معطيات الطبيعة ثم في جهد البشر

الذي يستثمر خيرها . وجهد الإنسان هو العامل الإيجابي في التفاعل مع قوى الطبيعة ، لأن تلك القوى ثابتة على سنن لا تتبدل بينما الإنسان حر مختار إن شاء علم وعمل أو شاء جهل وكسل ، فإذا توافر منـه السعي وصحت طرقه ألفى جازيته وآتته الطبيعة أثمارهـا في شتى جوانب الحيـاة ، وإذا تقاعس الإنسان أو أخطأ وجـوه التصرف ظلت حاجاته بلا اكتفاء وبخلت عليـه الطبيعة أو اضرت به اقدارها .

فبناء الحيـاة ونماء الحضارة وتمـام سعادة البشر على الأرض رهن بجود الإنسان بذات نفسه ليولد من معطيات الطبيعة المحـدودة أكثر الثمرات وأطيبها بـل ليتمكن بالنظر والعلم من توسيع المجال المتاح من مستثمرات الطبيعة بما يكتشف من مواد وقوى وقوانين طارفة ومن الاهتداء إلى خطط جديدة لمباركة الجهود البشرية ذاتها ولتنمية إمكانات الوقت والمكان التي تبدو مقدرة محدودة .

وسواء كانت بغية الإنسان ان يعيش عيشة رغـداً او ان يحفظ عزته وعرضه او ان يشبع إحساسه بالجمال والزينة او ان يرضي أياً من سائر رغائب نفسه – مهما كانت الثمرة الطيبة التى يرتجيها او الخير الذى يبتغي إحـداثه في حياته الدنيا فإنما المعول على عظم الجهد الذي يبذله الفرد واستقامة المنهج الذي تتخذه جماعة الناس لتنظيم جهودهم . فلا سبيل لأن ينعم الإنسان بالحياة ويستنبط أسباب السعادة من أوضاعه الطبيعية إلا بفضل كدحه وكدح بني جنسه ، فحيثما جاد بالأعمال المناسبة في مجـال المعاش او الفن او السياسة او الاجتماع او سائر نواحي الحيـاة احدث نهضة خـيرة في احواله وتذوق من جراها الرضى والسعادة .

وإن لعقيدة الإيمان لأثراً عظيماً في دفع الإنسان للعمـل ، وإن المجتمع المؤمن لتنحشد فيه من دوافع العقيدة طاقات جليلة توفر الخير وترقى بالحياة . ولا نقول إن المجتمعات غير المؤمنة بمعـاني الدين لا تقوى أبداً على العمـل





ولا تتأتى لها أدنى نهضة ولا تبلغ شيئاً من نعيم الدنيـا ، فإن الله في سنتـه وحكمته البالغة لم يجعل سعادة الدنيـا وقفاً على المؤمنين بل يمد منها لسائر خلقه مدا ويفتح لهم أبواب كل شيء وفق أسباب الكسب وأقدار البلاء ، ثم يردون إلى الدار الآخرة إذ يتمايز المؤمنون والمجرمون وتنقطع سنن الدنيا فلا تتاتى سعادة بكسب ولا يجـدي فيها ما يحاول الناس إلا عطاء من الله جزاء بما أسلفوا في الحيـاة الخالية : « وإذ قال ابراهيم رب اجعل هـذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير » . ( البقرة ١٢٦ ) . ولكن للايمان فضلاً على الكفر في مباركة الدنيا قبل الآخرة : « ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فاخـذناهم بما كانوا يكسبون » . ( الأعراف ٩٦ ) . ذلك ان الإيمان – متى ما توافرت ذخائر الطبيعة بتقدير سواء – يفجر قوى فعالة يوفقها الله ويباركها فتحدث في الحياة أثراً جليلاً لا يدانيه أثر من سائر الأفكار والمعتقدات .

فالمؤمن يتخذ من لقاء الله غاية عليّـه يستيقن حقها ويتبع اليها صراطاً مستقيماً عـُلّمه من هدي الرسول . فالحياة عنده لها مغزى معلوم وخطة بينة ، يقـدم عليها بإيجاب واجتهاد يحدوه الشوق الى ربـه فلا يقعد أبداً ، ويتقدم فيها ببصيرة تهديه تعاليم الشريعة فـلا يحار ولا يضل أبداً . ويثق المؤمن في استقامة وجهته وحسن عاقبته فتدعوه الثقة الى الانطلاق في توكل وثبـات لا يصده عن مساره خوف ولا أذى ، كما تدعوه الى التجرد لقبلته والتزامهـا بكل خطو او عمل مستقلاً شعاب الدروب المائلة . واذا تاق العبد المؤمن الى ربه وتعلق بكماله الأعلى واتخذ الحياة مطية اليه مقـدماً متوكلاً متجرداً فإنه لا يرى السعي والعمل الا زلفى الى محبوبه فتطيب نفسه بالكدح والمجاهدة ، ويدرك معنى الابتلاء فيما هيء له من اسباب الطبيعة فيعرفهـا نعماً اسبغها الله يؤدي فيها واجب الشكر باتخاذهـا مادة لعبادته ، ويؤمن بانه مسئول عمـا ابتلى به من امر الدنيـا فيرجو الفوز يوم الحساب ويخاف الخسران ، ويحفزه

ذلك الى الاجتهاد في صالح الأعمال قبل ان تطوى صحائف عمله . تلك هي وجهة المؤمن القاصدة ودوافع السعي التي تبعثها العقيدة في نفسه فتعمر من جرائها حياته وتزدهر.

• • •

وسننظر اولاً في توجه المؤمن على صراط مستقيم ثابتاً عليه متجرداً مما سواه لنرى اثر ذلك في تمهيد اسباب السعي ومباركة اقداره .

ونعطف الكلام من بعد على تفصيل دواعي الاجتهاد في سبيل الله .

ونخلص آخراً الى بيان حصيلة المؤمن من صالح الأعمال ومدى آثارها في إعمار الحياة.



## أ ـ اتخاذ الوجهة والسبيل

لا ينهض الإنسان في الحياة قدماً اذا لم ينتصب له هدف معلوم يحركه اليه الشوق والطموح . ولا يصدق السعيَ ويبلغ الجهد الا اذا كان ايمانه بحق هدفه قاطعاً لا ريب فيه . ثم ان الإنسان لا يتقدم الا بقدر ما تتضح رؤياه ويستبين له سبيل موطأ نحو غايته . لكن المؤمن عامل مجتهد وسالك مهتد لأن له غاية هي لقاء الله يعلمها علم اليقين وله صراط مستقيم يتعلمه من هدى الرسول . وحياة المؤمن عمل دائب لا يفتر ورحلة في سبيل الله لا تنحرف لأنه معتصم بإيمانه ان ينقطع عن عبادة الله وبعلمه ان يضل عن سبيله .

والمؤمن يقيم وجهه لله حنيفاً لا يسجد لسواه ولا يتخذ من دونه ولياً وهو لذلك محرر من عقال الشرك لا تأسره شهواته فيتثاقل او يتلهى عن همومه السامية ، ولا يتعبد لبشر آخر فيحبس نفسه على طاعته لا يتجاوزه ، ولا يمتقل همه على توقير الطبيعة فينحط عن درجته الكريمة بل يتجرد عن كل تعلق ارضي وينتهض الى مقاصده العلية . وهو من توحيده لربه واخلاص عبادته يرهن الحياة كلها لوجهه ويقصر السعي كله على سبيله فيبلغه ذلك التوجه والتركيز مقاماً عظيماً في الحياة .

ثم ان المؤمن يتحلى بالتوكل والصبر ليقينه بأن الله اهل التوجه والعبادة واعتصامه به مولى ونصيراً ، ولثقته بأن هدى الله مفتاح للفوز العظيم في

الدنيا والآخرة واستمساكه به نهجاً للحياة قاصداً . وهو من توكله يقدم مجاهداً في سبيل الله ولو كان الطريق محفوفاً بالأخطار ، ومن صبره يثبت على نهج الحق مهما صدمته المكاره فلا ينكفيء على عقبيه ولا يجور عن سواء السبيل .

• • •

ولننظر فيما يلي في معاني اليقين والعلم والتوكل والصبر والتحرر والإخلاص لنتأمل اثرها في مواقف الإنسان من الحياة .

### ١ – استيقان الغاية :

تتوارد دواعي الإيمان على الإنسان من قبل الفطرة والعقل ومن رسالات الله المنزلة . فقد اودع في فطرته هاد يهدي الى الله حيث سرت فيه لأول خلقه روح من ربه وانعقد بينهما عهد عرف به العبد خالقه واذعن له ، فإذا استوى وبلغ رشده وجد في نفسه داعية يتجه به الى الله من جراء ذلك العهد الأول : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » . ( الأعراف ١٧٢ ) . وقد زود الإنسان عقلا تمده الحواس فهو ينزع نحو العلم بالكون ويحب الاطلاع على دقائقه والتوغل في اسبابه ، فإذا تدبره بنظر شامل نافذ وجده آية بينة تدل على خالق واحد قيوم لقاؤه حق لا ريب فيه : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون » . ( فصلت ٣٧ ) « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي احياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير » . ( فصلت ٣٩ ) . وتنزل على الإنسان رسالات الله تذكره بالعهد المركوز في فطرته وتوجهه للتفكر في آيات الله وتعلمه من عالم الغيب ومن اوامر الله مالا يعلم : « لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم





ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . ( آل عمران ١٦٤ ) .

وتقر نفس المؤمن بالعلم الذي يلقاه من الدين في شأن الوجود والحياة . فالانسان ما ينفك يتساءل عن حقائق الحياة الكلية – عن اصل الخلق ومعنى الحياة وحقيقة المصير – فيرتطم فكره بحجب الغيب وينقلب خاسئاً حسيراً لا يهتدي سبيلا حتى يسعفه الإيمان فيضيء له ابعاد الوجود ويشرح له علل الكون والحياة فيعرف الله خالقاً لكل شيء قائماً بتدبير السماوات والأرض حميداً ينتهي إليه الكمال ويقف من الكون على بناء دقيق تجري اسبابه بأقدار حكيمة لازمة من الله وتحدث وقائعه بقضاء منه نافذ ، فالوجود كله يبدو نظاماً منضبطاً موحداً يجول فيه العقل بيسر وتسكن النفس الى حكمته ووحدته .

وطالما حاول الناس – بغير هدى من الدين – ان ينفذوا بنظرهم الى اسرار الوجود . فتراهم يعقدون النظريات والتخرصات ثم ينقضونها ويطرحونها ليتخذوا غيرها من بنات الفكر القاصر ، وكل ذلك لا يجد بينهم قبولاً واسعاً ولا يورث يقيناً يحرر الإنسان من الحيرة والشك او يتمخض عن تأثير قوي على إرادته وعمله . ولكن الدين وحده هو الذي يشفي نفس الإنسان التواقة لتفهم الوجود والحياة ، فهو يجلو الحقائق ويبسطها حتى يأخذ كل احد من الناس من إدراكها بنصيب يكفيه مهما تفاوتت حظوظهم في الذكاء والعلم . والدين وحده هو الحق الذى تطمئن به النفوس ويؤسس فيها قناعة قوية تحكم الإرادة وتوجه الحياة . وإنما يطمئن الإنسان الى تصورات الدين لأنها تمثل الحقيقة في شأن الوجود ، إذ هي موحاة من خالق الوجود ذاته الذي وسع كل شيء علماً . ولا يتسنى للبشر بالعقل وحده ان يحيطوا بعلم الوجود فيدركوا جملة اسراره ويلموا منه بتصور شامل ، بل مبلغ علمهم ما تدركه حواسهم المحدودة – لا مطمع لهم فيما وراء ذلك إلا ان يتيهوا في الأوهام لأنهم جزء صغير من الوجود محصور المدى تحيط به الكائنات ولا يحيط بها . ولكن قبسة

من ذلك السر الكبير يكمن في اعماق النفس البشرية بسبب انتسابها الى الوجود بتلك الجزئية ، فإذا تلقى الإنسان تعـاليم الدين جاوبتها نفسه بذلك السر الغائر تحت سطوح الوعي فيستأنس بمـا فيها من تذكرة تحيي عهـد فطرته .

هكذا يأمن الإنسان بالدين ويؤمن به إيماناً ترسو اصوله في النفس ويجيش فيها إرادة فعالة وينفجر طاقات هائلة شديدة الأثر في واقع الحياة : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبـة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها ويضرب الله الأمثال للنـاس لعلهم يتذكرون » . ( إبراهيم ٢٤ — ٢٥ ) .

وكما تقع حقائق الإيمان في شأن نظام الكون ومسار الحيـاة برداً وسلاماً على الإنسان بما تشبع فضوله العلمي وتؤنس خاطر نفسه ، يرضيه في الإيمـان كذلك ان يدرك لحيـاته مغزى كبيراً ولوجوده معنى كريماً . فهـو لم يخلق سدى تمضي حياته بدداً وتفضي الى خيبة العدم ، وما هـو بذرة من المـادة تائهة عن نفسها مسيرة في الوجود تدور بقدر محتوم حتى يدركها الفناء ، ولا هو كالأنعام غاية شأنه ان يأكل ويتمتع ثم يقضي نحبه . وإنما هو مخلوق فاضل كرم عنصره على سائر اشياء الطبيعة وجعل له ان يركب متونها ويرتزق منها طيباً ثم فوض له ان يفعل بحياته ما يشاء . فهو إذا جعل لقاء الله غاية لهـا وعبادته طريقاً اضفى عليها معنى جليلا يرفع قدره عن اوضاع الجماد والحيوان ويرضي نفسه التواقة للكمال .

ويستشعر الإنسان بمعنى عبـادة الله وابتغاء وجهـه وئاماً مـع الكون واندراجاً في سلكه المنظـوم . فأشياء الطبيعة كلهـا خاضعة لله محكومـة بأوامره القدرية التي لا تتحول تسجد له كرهاً وبحكم الطبع . أما هو فإنما توحى إليه شريعة من أوامر الله ويدعى الى السجود غـير مكره ، فإذا شاء ان يعبد الله وينصاع لأوامره الشرعية ألفى نفسه في وفاق مع الكون لأنـه يسجد طوعاً للذي يسجد له الكون كرهاً ، بل إنـه يستشعر التطلع مـع فطرته الذاتيـة لأن عنصره الجسدي من سائر مادة الطبيعة خاضع مثلـها



لأوامر الله بالطبع — يتصور خلقه وتدور حركته بأقدار مضطردة لا خيار فيها للعقل ولا تأثير للإرادة . وإن لم يفعـل اصبح قلق الفكر مشفق النفس متشاكس الكيان ، إذ هو — بوجه — معبد لأوامر الله الطبيعية ينصاع لهـا كرهاً في ذاته وفي محيطه الكوني بينما يأبى عبادة الله بوجـه آخـر ويتمرد على أوامره التشريعية بما أوتي من حرية المشيئة . ثم لا مناص له عنـدئذ من ان يقع في أسر اهوائه وشهواته او ان يـذل لمظهر كوني او لبشر مثله ، ويحـق عليه من ثم ان يسمى مشركا لأن لله عليه بالطبع سلطاناً نافذاً فأشرك هو في امر نفسه سلطان معبود آخر اتخذه فيما خير فيه وكان له إن شاء ان يوحد الله معبوداً بالكره والطاعة : « أفغـير دين الله يبغون وله اسلم من في السماوات طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » . ( آل عمران ٨٣ ) .

وبين حال الإيمـان وحال الاشراك بون شاسع . فالمؤمن صافي النفس موحد الوجدان لأنه يسلم للذي يسلم له كل شيء ويخلص لمعبود واحـد بكل ذات نفسه . أما المشرك فإنه مبلبل مفـرق الهم لأنه استيقن آيات الله في نفسه وفي الكون من حوله ثم اتخذ من دونه ولياً فغدا متنازع النفس مشتت الولاء : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون » . ( الزمر ٢٩ ) . وأنى يستوي العامل السالم لوجهة واحدة يستيقن حقها فيتجـه نحوهـا غـير مرتاب ، والقاعد المتنازع بين شتى الوجهات تتدافع لديه المعتقدات فلا تنعقد له عزيمـة التوجه إلى اي قبلة وتضطرب فيه الشكوك فتشله عن الاقدام ! وأين نيـل هذا من ذاك في مراتب الكسب ومراقي الحياة الفضلى ؟

**٢ — استبانة السبيل :**

إذا اتخذ المرء هدفاً لحياته وآمن ان الفوز كلـه في التوجه نحوه فحقيق عليه ان يتعرف معالم السبيل التي تستقيم إليه لئلا يضل سعيه ويتيه في شعاب الدروب او يقوم عنـد مفارقها حائراً بغير فرقان او ينبت في بعض الطريق من تفريطه في علم ما يقتضيه السير من زاد واستعداد .

ولا يجدي في تعرف الطريق الى الله بجرد علم البشر ، لأنه محدود الوسائل لا يحيط بأبعاد الواقع في الدنيا ولا يستبين وجوه المصالح بيقين قاطع ولا يهتدي الى افضل السبل لتحقق المقاصد ، ولأنه — بالغاً ما بلغ من عالم الشهادة — تحيق به استار الغيب ، فليس في مقدور الانسان ان يطلع على عالم الغيب والوجود المستور او يحيط بأيلولة حياته الدنيا ليستكمل تصوره للوجود . ولذلك ما كان للانسان بعد ان قر قراره في الأرض وانقطع عن الملأ الأعلى ان يستغني عن علم ربه او يهتدي بنفسه الى نهج صالح في حياته الدنيا وتقدير صحيح لآخرته : «... وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبو شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » . ( البقرة ٢١٦ ) . ومن اجل ذلك تعهده الله برسالات السماء رشداً يتجدد كلما اصبح نسياً مهجوراً او تطاول العهد فحدثت اقضية جديدة ، حتى تهيأت البشرية بما عهدت من الرسالات المتعاقبة لأن تتلقى اكمل هدى يريده لها الله ، وحتى توثقت بينها اسباب الاتصال وشاعت وسائل تدوين العلم بما يفي بمستلزمات رسالة عالمية تخاطب كل الأقوام وتسري على وجه الخلود حتى يرث الله الأرض ومن عليها — نزلت شريعة الاسلام التي بلغها محمد ﷺ واستكمل تطبيق احكامها من مرحلة الدعوة الى الدولة فبقيت تعاليمها دليلاً كما بقيت سيرة الرسول ﷺ انموذجاً للمسترشدين : « آلر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . » ( ابراهيم ١ ) .

وبالشريعة المنزلة يتهيأ للمؤمن علم صحيح بالتي هي اقوم من شأنه مع ربه وتنجلي له مواقع خطوه لينطلق على بصيرة . وإذا كان وضوح المنهج يدعو المرء للانطلاق فإن المؤمن مدعو دعوة حثيثة لأن في الشريعة بياناً لكل شيء يهم المؤمن ، وما من شأن يعرض له فيما يختلف فيه الناس ويتوقفون عنده إلا كان له ان يرده الى نصوص الشريعة او يستنبطه من قواعدها فيتضح له فيه وجه الحق الحاسم « ... ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمؤمنين » . ( النحل ٨٩ ) .





ولا يتوطأ لأحد طريق السعي في الحياة كما يتوطأ للمؤمن لأنه ما من احد ينبعث الى تعرف مذهبه وتعلم احكامه كما ينبعث المؤمن لتعلم الشريعة . ذلك ان انبناء الشريعة على العقيدة يجعلها اقرب مساساً بالمرء ففيها رشده في امر الحياة جميعاً — ما يعني خاصة امره مع ربه وما ينظم ذات نفسه مع الآخرين : بل ان معاني الايمان كلها تدعو الى تعلم الشريعة . فهي — اولاً — امر الله ، والمؤمن الذي يحب ربه ويشتاق الى الاستزادة من معرفته يكب على دراستها لأنها اثر وثيق القرب من الله لم يتوسط فيه الخلق الا بالبلاغ ولأن في علمها زيادة علم بالله فهي من فعله تعالى وآية منه ناطقة بينة . والعلم بالشريعة — ثانياً — شرط للتمكن من عبادة الله التي هي هم المؤمن في الدنيا وزاده للآخرة . وإنما يعرض عن الشريعة من اتخذ إلهه هواه واستوحى شهواته واسترضى لذاته فاستغنى بالحس والغريزة عن ان يعلم اوامر الله ، ولكن المؤمن يعبد الله ويبتغي وجهه فهو يستوحي حكمه ويتحرى شريعته ويتبعها كي يلقاه في الآخرة فيفوز لديه بالنعيم ويزداد من معرفته بالرؤية والقربى .

بيد ان المؤمن لا ينفك يطلب مزيداً من القرب الى ربه يتعرف آياته وآثاره . فهو إذ تعلم اوامره الشرعية يتأمل ايضاً في أوامره الكونية ومظاهر إرادته وقدرته في الوجود ويلتمس من النظر في طبائع الأشياء وفي نواميس الكون وقواه ما يدله على بدائع فعل الخالق الذي احسن كل شيء صنعاً ، كما يعتبر بأحوال البشر ومصائرهم الدابر منهم والحاضر ليهتدي الى سنن الله في شأن الإنسان ويتوسم آثار قدرته ورحمته . فالإيمان من هذا الوجه يدعو الى العلم بالطبيعة علماً يتطلع إليه المؤمن بغير غرض الا تعلقاً وتقرباً إشباعاً لحب الاستزادة من معرفة الله المعبود المحبوب .

ثم ان الإيمان يدعو الى العلم بالكون من وجه آخر — ذلك ان الدنيا فيما يعتقد المؤمن مسرح اتاحه الله للإنسان وبسط له فيه من نعمائه ليبتليه يشكر ام يكفر ، وان الله إنما خلق السمع والبصر والفؤاد ليزوده بقدرة إدراك

وقعلم تجعله أهلا لاحتمال أمانة الاختيار ثم السؤال : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . » ( النحل ٧٨ ) ، فالمؤمن يسعى للاستزادة من علم الكون واكتشاف قواه ليوسع امكاناته ويزيد فاعليته ، ففي ذلك أداء لرسالته في الحياة وعبادة لله بأوفى وجه ، اذ كلما تزداد قدراته في تسخير الطبيعة تتوافر له النعم ويصبح شكره أشمل مدى وأوفى بحق الله : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون . » ( الأنبياء ٨٠ ) ، ثم إنه بذلك يبلغ غاية طاقته العملية في تنفيذ أوامر الله ويأتي بالطاعات بقدر أكمل وتكون عبادته أسمى درجة وأشد قربى الى الله .

فالعلم الحق في نظر المؤمن كله أصل واحد ـ شرعية وطبيعية ، عقلية ونقلية ـ لأن موضوعه معرفة الله عن طريق أفعاله وسننه وأوامره ما كان منها لازما يسري على أشياء الكون وما كان تكليفا يخاطب به الإنسان ذو المشيئة والاختيار ، ما علمه الله لعباده بما أودع فيهم من وسائل الإدراك الذاتي وما أوحاه اليهم وحيا يبلغه الرسل وتنقله الرواية الصحيحة ـ كل ذلك شرط في تمام معرفة الله وفي ممارسة الحياة بالوجه الذي يحقق أكمل معاني العبادة ، وان الحياة الا تفاعل بين الإنسان والطبيعة تتوارد فيه الأحكام المطلوبة والأقدار المكتوبة .

والعلم الذي يثمره الإيمان يستتبع العمل لأنه نور يكشف للمؤمن بينة الصراط المؤدي إلى الله ويقشع من بين يديه حجب الشك والجهالة فيندفع بحوافز الإيمان لا يستبهم عليه الطريق ولا يستوقفه التخوف من أن يميل عن الجادة . ثم إن العلم يزيد العالم معرفة بالله وإيمانا به واستشعارا للغيب وإدراكا لمصالح الحياة الأخرى فيضاعف لديه دوافع الإيمان وضوابطه حتى يغدو نهاضا إلى حيث يدعو الله وقافا عند حدوده .

فالعلم بالشريعة لا يكون صادقا إذا اقتصر صاحبه على معرفة حروف



النصوص وقشورها أو حكمها في التطبيق العملي وحكمتها في المصلحة الدنيوية وانما آية صدقه أن يُعمل به التزاما بقواعد الأحكام الظاهرة واستصحابا لنية العبادة الخالصة المتوجهة إلى الله . وبقدر العلم يكون حجم العمل ومدى إخلاصه : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » . ( الزمر ٩ ). كذلك العلم الطبيعي ـ لا يكون علما حقا إذا اقتصر على خصائص الأشياء وقوانين الكون وعلى وجوه استغلالها للمصلحة الدنيـوية : « ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . » ( الروم ٦ ـ ٧ ) ، « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . » ( النجم ٢٩ ـ ٣٠ ) . وإنما العلم ما بصّر صاحبه بعد ذلك بدلالة الأشياء على الله وسما به من آيات عالم الشهادة إلى حقائق عالم الغيب حتى تغمره فيوض الإيمان وتبعث فيه روحا تواقة إلى الله فعالة في سبيله ، وهو ما ذكر صاحبه بسعة نعم الله وكثرتها فحثه على مضاعفة الشكر ، وما هداه إلى وجوه استغلال الأشياء في تكثيف العبادة لله : « وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا . » ( الفرقان ٦٢ ) ، « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » . ( فاطر ٢٧ ـ ٢٨ ) .

وما يطلب الإنسان شيئا بقصارى جهده في ظاهر الأسباب إلا يسر الله له أسبابا خفية توفقه إلى مايروم . كذلك إذا تعلم المؤمن علما صدقه العمل فتح الله بصيرته لعلم أوسع بسنن الله الخفية : « ... واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم . » ( البقرة ٢٨٢ ) ، « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذوالفضل العظيم » ( الأنفال ٢٩ )

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين . »
( القصص ١٤ ) .

ولا يتم دين المرء الا اذا عمل على هدي من العلم ، فالتلبس بالدين مع الجهالة خطر عظيم لأن الطاقات الهائلة التي تفجرها العقيدة في الحياة تصبح عندئذ جهودا عمياء تمضي في سبيل الضلال هدرا وقوة خرقاء تطغى على حدود النظام الاجتماعي طوفانا يخرب الحياة من حيث يريد أصحابها الإصلاح ويحسبون أنهم مهتدون . وقد شهد تاريخ الديانات حالات كثيرة توافرت فيها النيات والجهود الدينية بقدر ضخم لكنها ضلت الطريق فزواها أهلها في المسالك التافهة حتى راحت بددا أو تناطحوا بها فخربوا الحياة بالصراع المدمر والحروب الطاحنة . من أجل ذلك كان التصديق بتفاصيل الشريعة المنزلة ركنا أساسيا في الدين وضرورة ملحة لاستقامة أهله وكان التفقه في معانيها رأس الواجبات الدينية : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . » ( التوبة ١٢٢ ) .

٣ - التوكل والاقدام :

التوكل موقف ينشأ عما يقوم بنفس المؤمن من أن الله حق وما خلاه باطل وأن هدى الله هو الهدى ليس بعده الا الضلال ، فإذا استقر هذا العلم بالنفس وصار اعتقادا جازما ويقينا حاسما أورث المؤمن حالة من الثقة المطلقة بصحة الطريق الذي يسلكه مقبلا على ربه وعاملا في سبيله ، وذلك يدعوه للاقدام بثبات نحو الغاية المنصوبة أمامه على صراطها المستقيم .

وثقة المؤمن في الله وفي شرعه ثقة وطيدة لاتزعزعها الشكوك ، فهو إنما يوجه وجهه لأعلى ما يصبو اليه البشر وأكمل ما يقصدون - لله الكبير المتعالي ، بينما ينحط أهل الشرك ويتخذون من دون الله آلهة ما هم الا بعض خلقه لا يكافئونه في شيء ، وهو انما يجعل ولاءه لله الواحد القهار الذي





يصرف أسباب الحياة - يجلب الخير ويكشف الضر لايرد له قضاء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء - والذي ينفرد بالملك يوم الدين لاعاصم من أمره ولا يملك أحد معه شيئا - ذلك بينما يستظهر المشركون بخلق أمثالهم لايملكون حيلة الا بسبب منه تعالى .

فالمؤمن اذ يعتصم بالله القوي العزيز يوقن بأنه يأوي الى ركن شديد فلا ينتابه من بعدها خوف - لايرتاع من مشاهد الطبيعة التي يتعبد لها كثير من الناس فما هي الا مظاهر لقدرة الله ، ولا يأبه لموات الأصنام والأوثان التي تنسج حولها التقاليد والاوهام حلة تقدير وتقديس وتنسب اليها قدرة التأثير على الحياة ، ولايرهب المتألهين من البشر الذين تذل لهم الأعناق لأنهم في اعتقاده لايملكون شيئا الا باذنه تعالى .

والمؤمن اذ يهتدي بهدى الله ويتبع شريعته يثق بأنه على طريق سديد - صراط الله العليم الحكيم . ومنذ كانت الحياة تفاعلا مع طبيعة الكون - مواردها قواها وظروفها - فإن الاحتكام الى أوامر شرع الله هو مفتاح النجاح فيها لأن الطبيعة تنحكم أيضا بأوامر قدر الله ، فالشرع أوفق نهج لمراودتها ومغالبتها وتطويعها لخدمة الإنسان . وليس كخالق الوجود عالم حكيم بالمسالك التي تمكن الإنسان من الأخذ بناصية الأسباب الكونية ليستنبط منها الطيبات وبالوجوه التي تجلب له مصالح الحياة وتدرأ عنه المفاسد وبالتدابير التي تهيء دنياه لآخرته وتوفقه للفلاح أولا وآخرا . ومادام المؤمن على بينة من ربه فإنه في غنى وكفاية يزدري جهالات البشر ومعالجات عقولهم الصغيرة لشئون الحياة .

وهكذا يتم للمؤمن اليقين القاطع بأنه يأوي الى الركن الشديد ويسير على الطريق السديد ويصح اعتماده على ربه ويصدق توكله وتخلص منه عزيمة الإقدام وتقفز به الى الأمام طاقات هائلة لأنه - وقد اطمأن بأنه على الحق المطلق - يعكف على السعي الحثيث والعمل الدؤوب ، لا يحجم اذا تعسرت عليه

الأسباب وغالبته العوائق لأول وهلة لعلمه بأن مآله التوفيق الى الخير ، ولا يبالي بالذين يقومون في وجهه يصدونه عن سبيل الله ويبغونها عوجا — لايفتنه منهم اغراء ولا يستخفه استرهاب لأنه يستمسك بحبل من الله متين وله معه في الرجاء والخوف شأن أعظم ، بل يمضي على طريقه حتى تعمر حياته وتزدحم بصالح الأعمال !

● ● ●

والذي قدمناه هو قبس من المعاني الكثيرة التي يوردها القرآن الكريم في سياق الدعوة للتوكل لتثبت في المؤمنين الثقة الوطيدة بحقائق الاعتقاد الديني وتلهمهم حسن الاعتماد والاكتفاء بالله وتدفعهم للاقدام والمجاهدة بقوة تعاند العوائق وتقتحم العقبات . فالقرآن مثلا يثبت صاحب الرسالة — المؤمن القدوة —لانه على الحق المبين ولو كره الناس أمره بادىء الرأي أو خفيت حكمته عن علمهم المحدود : « قل إني نُهيت أن اعبد الذين تعبدون من دون الله قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذا وما انا من المهتدين . قل اني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين . » ( الأنعام ٥٦ — ٥٧ ) ، « فتوكل على الله إنك على الحق المبين . » (النمل ٧٩ ) ، « فاستمسك بالذي أوحي اليك إنك على صراط مستقيم . » ( الزخرف ٤٣ ) . وتؤكد الآيات بأن ذلك الحق هو مدعاة للخير كله عاجله وآجله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا . » ( النساء٥٩) ، « ... ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما . »(النساء٦٦—٦٨) ، « ... فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . » ( طه١٢٣ — ١٢٤ ) .





وتدعو الآيات للمجاهدة في سبيل الله بلا ارتياب ومجابهة الأخطار بلا انثناء : « ... فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون . » ( آل عمران ١٥٩ — ١٦٠ ) ، « قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . » ( المائدة ٢٢ — ٢٣ ) ، « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . » ( التوبة ٥١ ) ، « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون . » ( الحجرات ١٥ ) .

● ● ●

فالتوكل شعبة من شعاب الإيمان تهيىء المؤمن في واقع الدنيا لحياة عامرة بضروب العمل الصالح مفعمة بوجوه الخير وفقا لتوجيهات الشريعة وحدودها وهو لذلك إيجاب لاسلب يدفع للاقدام لا للقعود .

وينبغي لذلك أن ننفي عن عقيدة التوكل الصحيحة بعض التصورات الواهمة التي انحدرت إليها معتقدات بعض العامة من المسلمين ، فقد أخذوا من التوكل معنى التعطل ومن القضاء والقدر معنى الجبر المحتوم فانتهوا إلى الخنوع والقعود عن محاولة التأثير الفعال في الحياة اعتذارا بأن القدر جار على وجهه المكتوب مهما فعلوا واتكالا على أن الله سيدبر لهم الخير مهما تركوا

والحق أن أقدار الله هي أسباب الطبيعة وقواها وقوانينها وما الإنسان بقوته إلا بعض منها ولكنه مدعو — ومدعوم بسلطان من الله — إلى تفهم تلك الأسباب واقحام جهده فيها وتسخيرها بعضها على بعض . ولا يملك الإنسان أن يغير السنن والأسباب المقدرة وانما يحاول أن يرتب التفاعل بينها

نحو نتيجة يبتغيها ، فإن أصاب في محاولته وأدرك مبتغاه كانت النتيجة من كسبه هو بهذا الوجه ولكنها في الحقيقة الكلية من قضاء الله خالق الكائنات – انسانا وما سواه – ومقدر قواها وقاضي مصائرها . وليس التوكل أن يزهد الإنسان في العلم والعمل بدعوى التفويض الى الله ، إذ لايترتب على ذلك سوى أن تجري معادلات الأسباب وتفاعلاتها بمعزل عن تدخله وتستقر عند نتائجها المقضية بسنن الله وأوامره . وانما يعني التوكل ثقة الإنسان بالله ومن ثم الاستعانة بما يوقن به من حقائق الإيمان وما يتعلمه من قواعد الشريعة ليزداد تفهما للسنن الكونية ودراية بالمسالك المؤدية الى ما يبتغي من الخير . فالكافر جاهل الا بظاهر من الحياة الدنيـــا لأنه محجوب بعقيدته عن علم حقائق الايمان – وهي أبعاد غيبية للحياة والوجود ، وهو كذلك ضال بما تولى عن التعاليم التي شرعها الله تبيانا للنهج الصالح لتحقيق الخير في الدنيا والآخرة .

والمؤمن هو الذي يستمد بحقائق الايمان ويستعمل قواعد الشريعة فضلا عن علمه الدنيوي بطبائع الوجود ، ويتمكن بكل هذا الزاد والاعداد من تخطيط حياته بعلم وتدبير ليبلغ به النتائج الطيبة التي ينشدها . بل ان المؤمن – ما أيقن في ايمانه والتزم بهدى الشرع – تنفتح بصيرته الى وجوه الخير وسبله وتتهيأ له من حيث لا يحتسب توفيقات الى الخير بمقتضى أسباب دقيقة من أقدار الله الخفية . ولئن خرجت بعض مناحي هذه التوفيقات من احاطة علم البشر فإنها مرتبطة بسعيهم في تقدير الله لسننه الكونية ولاتتأتى عفوا بل تنبني على الايمان ثم تترتب على العمل كما تترتب التدابير الظاهرة – اذا انتصر المؤمن لله أتم الله له النصر اذ لات حين منتصر ، واذا اتقى الله جعل له مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب ، واذا دعاه استجاب له مهما أحاطت به أسباب الأزمة – كل ذلك بإذن الله : « ... ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا . » ( الطلاق ٢–٣ ) .

فالمؤمن لايعطل أسباب السعي الظاهرة طمعا في توفيق الله لأن التوفيق





رهن بسعيه – شأن سنن الله التي تتواكب وتتكامل في غير اختلاف . ولكن المؤمن متى قدم الأسباب التي يملكها ولم يأل جهداً حق له ان يرتجي خيراً لأنه وفّى بشرط الأهلية لتلقي توفيقات الله الذي يدبر الأمور جميعاً ويأخذ بناصية الكون كله . وذلك رجاء عظيم يغلب دواعي الخوف وينفي عوامل الانخذال ويدفع إلى المصابرة والإقدام . فلا يبالي المؤمنون كثيراً بما يهابه النـاس من العقبات والمخاطر لأن سائر الناس لا يلوون إلا بأسباب محـــدودة فتعظم في نفوسهم العوارض اليسيرة وتردهم الأخطار الهينة وإذا أعدوا القليـــل يئسوا من ان يبارك الله سعيهم ويزيدهم قوة إلى قوتهم فيحجمون انخذالاً وخوفاً من حيث يقتحم المؤمنون التحديات والمخاطر وهم متوكلون .

تلك هي المعـاني التي تتضمنها وصايا التوكل وصوره في القرآن : « . . . قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهـم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنـا وانصرنا على القـــوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله..» ( البقرة ٢٤٩–٢٥١ ) ، « . . وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » ( آل عمران ١٥٩ ) ، « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لـكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » . ( آل عمران ١٧٣ ) ، « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون . » ( ابراهيم ١٢ ) ، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقـولن الله قـل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون . قل يا قوم أعمـلوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . ( الزمر ٣٨ – ٤٠ ) .

**٤ – الصبر والثبات :**

كل صروف الحياة عند المؤمن بقدر وقضاء من الله – يجري خطهـا وفق

نظام لازم وسنة لا تتحول وتقع أحداثها بحكم نافذ لا يرد . ولا يملك الإنسان من ذلك إلا إرادة محدودة قسمها له الله بقدر فهو يقحمها بعلم الله وحوله في سياق نظام الكون ليسأل في آخرته عما فعل بهذه الأمانة المقسومة . فالمؤمن من تمام اليقين بذلك في رضى وطمأنينة لا يزله شيء عن نهجه الذي آمن به . إذا نفذ عليه القضاء ومسته واقعة تقبل خيرها أو شرها بنفس مستقرة ، فلا يطيش عقله جزعاً مما يسوؤه ولا يطير لبه من فرط الفرح بما يسره .

وإنما يهم المؤمن إزاء الاقدار الجارية كسبه الخاص وحسابه من المسئولية — الحوادث كلها خيرها وشرها ذات معنى واحد فيما يعنيه لأنها وجوه لابتلائه في الدنيا وحيثيات لحسابه يوم الدين ، فهمه الأول منها ان يستقيم موقفه في كل حال على ما تقتضيه معايير العبادة لله لئلا يضله وقع الأحداث عن سبيل ربه . وينظر المؤمن من اجل ذلك فيما يصيبه — اما ان كان بغير سبب منه فهو يتقبله قضاء من الله يشكره عن الخير ويصبر على الشر ابتغاء وجهه ، وأما ان كان بسبب يسند اليه فهو يتوجه الى ربه بما كان خيراً يسأله ان يقبل كسبه ويحمده على اتمامه وتوفيقه لعلمه ان الأمور ما تيسرت له الا لمواتاة اسباب اخرى يهيئها الله ، لكنه لا يعتذر في الشر بأقدار الله وإنما ينشغل بما يعنيه من الندم على ما اكتسبت يداه من اسباب متضرعا الى ربه مستغفراً ومسترحما ثم يتجاوز مقام السوء معتبراً يحتاط لمستقبله .

والرضى بالقضاء معنى يتخذ منه بعض عامة المسلمين ذريعة للاغضاء عن المنكر والقعود عن تغييره ورده وللاقامة على سوء الحال والزهد في النهضة والإصلاح . بيد ان الرضى لا يعني حقاً الا القناعة المطمئنة بأن الأحداث والأحوال ما هي الا نتائج محتومة لتفاعل سنن الله المقدرة ومحكومة بمقتضى سريانها . وما افعال الإنسان الاختيارية الا بعض هذه السنن . فلا حرج ان يغضب المؤمن للمنكر من حيث كسبته بعض ايدي البشر ، فهم قد اقحموا في معادلات أسباب حدوثه إرادة مختارة جعلتهم أهلاً للمسئولية والمحاسبة .





ولا حرج ان يتحرك المؤمن لرد المنكر ودفع الظلم وازالة سوء الحال ، لأنه إذ يهم بذلك لا يريد ان يعارض سنن الله وانما يعمل بمقتضاها ويأخذ بأسبابها . بل ان المؤمن يغضب للمنكر ويقوم لدرء السوء استجابة لله مراعياً في ذلك انتهاج قواعده الشرعية بعد الأخذ بسننه الطبيعية اللازمة . فواقع الحياة من تدبير الله وحركة الإنسان لتغييره من تدبير الله كذلك ، والمرء بنهضته الدائبة نحو الخير لا يفر من اقدار الله الا الى اقدار الله . وإنما الأحمق من أراد ان تتغير له سنن الحياة فتنتقض له نتائج قد انعقدت فعلا بحكم القدر والحسم أمرها ، والعاجز من استسلم للجزع وقطع نفسه حسرات وقعد يتمنى الأماني عوضاً عن ان يسلك سنن الحياة ويتوخى أسبابها لبلوغ مرامه . لكن المؤمن متى افرغ جهده فيما يملك من أسباب لم يكن عليه بأس ان يتوجه الى ربه ضارعاً ان يتم له مالا يملك فلله — كما سبق القول — توفيقات زائدة يرتبها على عمل المؤمنين بسنن وأقدار من عالم الغيب فيقضي لهم ما يشاء من حيث لا يحتسبون .

فعقيدة المؤمن في القضاء والقدر ان يعترف مطمئناً بحكم الأسباب ثم يتوجه للأخذ بها ما تيسر له وأن ينتهي عن الجزع وانكسار النفس عند البأساء فإن ذلك لا يغني الإنسان الا ان يهلك نفسه ويثبطه عن تجاوز المصائب بالصبر الجميل ويضعفه عن مواجهة تحديات الحياة : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » . ( النساء ٩٧ — ٩٩ ) ، المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن اصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان ، ( مسلم ) .

ومن الرضى بالقضاء ينبثق الصبر ، وهـو انضباط النفس من ان تستخفها النزعات الأولية التي تحدث رداً للمؤثرات الطارئة . فمن طبـع الإنسان إذا صدعه الشر ان يهيجه الغضب ويجنح به لأول وهـلة نحو العـدوان ، ولكن الصابر يملك زمام نفسه ولا يطاوع هواها بل يلزمها مقتضى الخلق الكريم . وقد يكون أثر الشر ان يستبد بالإنسان اليأس فينكسر وينخذل ، ولـكن الصابر من يرد غاشيـة القنوط ويثبت على وقاره وبصيرته . أما المعنى الأول فنؤجل النظر فيه الى موضع آخر ، وإنما يعنينا هنا ان نبسط الكلام في أثر الصبر بالمعنى الأخير ، وهو أثر إيجابي – ألا ينخـذل المؤمن إذا اعترضت سبيله المخاوف وألا يقعد إذا اثخنته المصائب بل يحتمل المشقـة الزائدة التي تضعها عليه تلك الظروف ويمضي قدماً في طريقه المرسوم . فاستجابته الفطرية الأولى هي ان يخبت لأثقال المصيبة إذا نزلت به ، ولكنه متى ما قوي بالإيمان قاوم داعي الفشل ونهض بعزم متناصر وجد متواصل كادحاً في سبيل الله .

وطريق الحياة تعتوره المكاره المختلفة – لا ينفك الذي يسلكه من ان يطرأ عليه خطر أو أذى يخيفه فيصده عن مسلكه . وكثـير من الدعاة الى الإصلاح والعـاملين الصالحين من يفتنه عن مسعاه وينكسه عن نهجـه كيدُ الذين يبغون الفساد في الأرض . بل لا تخلو الحياة أبداً من طوارىء الخـوف والأذى . فإذا كانت نفس العامل ضعيفة تهددته ظروف الحيـاة في كل حين بالتوقف أو الانحراف أو الانقلاب ليجتنب آثارها المكروهة : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنـة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . ( الحج ١١ ) ثم ان الإنسان عرضـة كذلك للمصائب الفادحة تصيبه في نفسه أو ماله أو أهـله أو ما يحبه بالنقص والموت ، فإذا اشتد وقعهـا عليه لا يسلم من ان تنكسر همته ويقنط من مواصلة الجهاد في الحياة إذ يزهد في متاعها الآيل الى تباب ولا يرى بعد معنى لإجهاد النفس من أجلها .

أما المؤمن فإنه يصبر على كل ذلك ، وقوام ذلك الصبر يقينه بأن الدنيا





دار ابتلاء مما يهيئه سلفاً لأن يلاقي الضرّاء كما يلاقي السرّاء ، ولا يرى في الأذى الا امتحاناً لصدق إيمانه وتحدياً لثباته وقوته : « الم . أحسِب النـاس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . ( العنكبوت ١ – ٣ ) . فالمؤمن يحتمل المشقات ويواصل عمله مطمئناً بأنه مأجور عند ربـه بقدر ما أبدى من عزم شديد وما بذل من جهد جهيد . بل إنه يجد في مشقات المجاهـدة لذة هائلة لأنه يرتاد بهـا درجات ُعلى من الحب والوفاء لربـه . ثم إنه لا يجزع كثيراً لمصائب الموت والخسارة لأنـه لا يتعلق أصلاً بشيء من متاع الدنيا فلا يأسى على فواته ولا يقعد متحيراً متبـلداً ، فإنما غايته وبغيته منوطة بأمر الآخرة وحرصه كله ألا تكون مصيبته في دينه وآخرته . ومتاع الدنيا عنـد المؤمن وديعة من الله يستخلف فيهـا الإنسان ، فإذا استردها الله لم يكن في ذلك سبب للأسى الذي يقطع النفس ويذهبها حسرات ، بل شأن المؤمن ان يرضى بقضاء الله وقدره واخـذه وعطائه ، فإن كان في المصيبة معتبر اتعظ بهـا واحتاط لمستقبل أمره ، والا سلا عمـا أخذته المقادير مما لا حـول له فيه ولا قوة – مطمئنة نفسه على كل حال .

فالصبر مدعاة لمجابهة الحياة بإيجاب وثبات وليس منه الاستسلام لحدثانها . والصابر من تصدمه المكاره فلا تصدعه ومن تقع به المصائب فلا تقعده عن مساره – يرضى بما قسم الله من حيث أنه لا يتبرم بالقضاء ، لكنه لا يتبـلد جامداً في مكانه لأن الله بتقـديره وتيسيره قد جعل للنـاس ارادة وأتاح لهم أسباب الفرار ممـا يسوءهم من أقداره الى ما يسرهم منها فهم لا يخرجون من حبائلها ولكن لهم فيها مجالاً معلوماً . وانما شأن المؤمن أن يكون ثابتاً على نهج الحق حيثما جال فيها ودالت له أو عليه .

• • •

ولما كان الصبر من أجلّ فروع الإيمان ومن أوضح ما يتميز بـه المؤمنون

لدى مواجهة المعسرات من الأمور فقـد تكررت الدعوة اليـه في القرآن الكريم تربية للمؤمن حتى يتصل عمله ويثبت على نهج الهـدى والفلاح مستقيما لا يعوج مهما توعرت مسالك الحياة وتكاثرت مكارهها : « ولنبلونـكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . ( البقرة ١٥٥ – ١٥٧ ) « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ( آل عمران ٢٠٠ ) ، « والعصر . إن الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ( العصر ) . وانما يقدر الله المصائب ابتلاء ليميز الصابرين عن الجازعين : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . ( محمد ٣١ ) . ولما كان الرسل هم رواد الدعوة ورأس قافلة الايمان يشقون الطريق لأول مرة فتنهال عليهم هجمات المعارضة الضارية ، كان حقيقاً عليهم ان يكونوا أولي عزم شديد لينهضوا بأعباء البلاغ وليكونوا أئمة لسائر المؤمنين الصابرين : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . ( الأنعام ٣٤ ) ، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ... » ( الأحقاف ٣٥ ) . وما يستجيب المؤمنون لدعوة الله الا انبرى لهم أهل الطاغوت بالأذى ، وما يتم لهم اقامة الجماعة المسلمة الا تصدى لها حزب الكافرين بالعدوان ، فعلى المؤمنين ان يصبروا على الفتنة ثم يصبروا بعد على القتال والجهاد : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين . ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » . ( آل عمران ١٣٩ – ١٤٠ ) ، « قال موسى لقومـه استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثهـا من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . ( الأعراف ١٢٨ ) . ولا يستوي ثبات المؤمن في سبيل حقـه



وما يبـدي غيره من اصرار على باطله : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » . ( الأنفال ٦٥–٦٦ ) .

**٥ – التوحيد والاخلاص :**

ليس للمؤمن الا الله يتوجه اليه وجهـه ويتخذ لقاءه غاية لحياته وعبادته طريقاً مستقيماً مهتدياً بكتابه مقتدياً برسوله . وكل مقاصد الحياة من دون ذلك منخرطة في سلك هذا المعنى ، اذ هي أسباب يتزلف بها المؤمن إلى ربه . وبينما يعكف الكافر على بعض أشياء الدنيـا وأغراضها فتلهيه وتقاطعه عن المسار الى الله ، لا يتخذها المؤمن الا معـبراً ومجازاً . فبالتوحيد يتسامى الانسان من أن تعتقل همه الطبيعة المحسوسة في الأرض والسماء ، بل يتخذها دليلاً إلى عالم الغيب وسلماً الى الله الخالق الواحد القهار ، ولهذا أثر واضح في موقفه إزاء قواها ومظاهرها . وبه أيضاً يستقل المؤمن من حيث هـو فرد أن تستعبده بعض الذوات البشرية أو العلائق الاجتماعية فيوقف نفسه عليها ، أو أن يأسره هوى نفسه فيحتبس عليها يتعبد لشهواتها ، ولهـذا أيضاً أثر مبين في نهضة الانسان بحياته والترقي بها . ثم يتحقق بالتوحيد اخلاص المؤمن لوجهة واحـدة يصب فيها جهده كله فيتحصل له اجلّ قدر من الكسب والانجاز . فلنأخذ في بيان هذه المعاني

**سلطان الانسان على الطبيعة :** سخر الله للبشر طبيعـة الأرض والسماء يصوغون من عناصرها وطاقاتها ومواتها وأحيائها أسباب الحياة ، وبوأهم في مسرح الارض يتخذون منها مجالاً لسعيهم وسكنهم واتصالهم وانفصالهم ويهتدون بمعالمها لتقدير الزمن والمكان والاشياء : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عـدد السنين والحساب ما خلق الله

ذلك الا بالحق يفصّل الآيات لقـــوم يعلمون » . ( يونس ٥ ) ، « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتـــدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . ( النمل ١٥ — ١٦ ) ، « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . ( الإسراء ١٢ ) ، « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » . ( الملك ١٥ ) .

وزود الله البشر بقابلية الادراك واكتساب العلم بنواميس الطبيعة ليتسنى لهم ان يكتشفوا قوى المـــواد وطبائعها ويتفهموا خصائص الأشياء وعلاقاتها فيستغلوا الفرص المواتية في تسخير بعضها ببعض واستثمارها بالجمع والتركيب او التفريق والتحليل . بل يتاح لهم بالعلم ان يتعرفوا قوانين الجهـد البشري ذاتها لتُجند طاقات الفرد وأوقاته بأوفق الوجوه وتحشد مجهودات الجماعة تخصصاً ولمّاً وتنسيقاً .

فللانسان نوع سيادة على الكون المشهود يستند فيهـا الى سلطان من الله الذي كرّم عنصره وفضله وأذل له الاشياء وأمده بالعقل ليعلم طبائعها ويملك ناصيتها . ولم تتح له هذه النعماء ليتخذها غاية لحياته بل ليقدر فيها أنه مبتلى مسئول فيؤدي شكرها ويراقب الله فيما يفعل بها : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والافئدة قليـلا ما تشكرون . وهو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون . وهو الذي يحيي ويميت وله اختـلاف الليـــل والنهار أفلا تعقلون » . ( المؤمنون ٧٨ — ٨٠ ) .

• • •

وتصور السيادة البشرية على الطبيعة يورث الانسان تقديراً خاصاً لمركزه في الوجود ولموقفه تجاه الطبيعة . فمهما هالته مظاهرها وقواها لم يكن له ان يذل لها أو يعبدها ، بل حقه ان يتخذ منها موقفاً فاعلا يقتحم مجالهـا ويغالبها بعلمه وجهده من أجل اذلالها هي لارادته وتعبيدها لغرضه — يرتزق





منها ويكتسي ويتخذ منها سكناً وأمناً ويستمتع من جمالها زينة ومتاعاً — كل ذلك في سياق عبادة الله .

ذلك شأن المؤمن . فإذا ضلّ الإنسان عن الايمـان كان أقرب للوقوع في الوثنية وعبادة الطبيعة . فمن البشر فريق عظيم يرزحون في الوثنية الجاهلية — تستعبدهم مظاهر الطبيعة التي تكتنف حياتهم فيتخذونها آلهة يصرفون اليها كثيراً من الجهد عبادة وقربى وينخذلون عن كثير من مجالات العمل خوفاً منها ، وتستبد بهم الخرافة والاوهـام وتأسرهم ظروف الحيـــاة الفطرية . فالوثني مثلا يقـــدس الحيوان ويخنع له ، وانما خلق الحيوان لخدمة الانسان يستظهر به على نقل ترحاله ويتخذ منه مأكلا ومشرباً وجمالاً : « والأنعـام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحـون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم » . ( النحل ٥ — ٧ ) . وهو يحاصر نفسه بالمحظورات الموهومة ويحرمها من منافع الطبيعة ومتاعها : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » . ( المائدة ١٠٣ ) ، « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » . ( الأنعام ١٣٨ — ١٤٠ ) . وقد كان العرب في الجاهليـة فريسة لكثير من التصورات التي تنسب للطبيعة قوة غيبية على الإنسان ، فحررهم الدين الإسلامي من ربقة الاعتقاد في الطيرة والكهانة والخوف من أوضاع الكواكب وخسوفها والتعبد للأصنام والأوثان ، وكان من تعاليم الرسول ﷺ ، « الطيرة شرك وما منا الا ويتطير ولكن الله يذهبه بالتوكل » ( مسلم ) ، « الشمس والقمر لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته

ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فصلوا » ( البخـاري ) ، وسأله سائلهم : « قال قلت يا رسول أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان ، قال فلا تأتوا الكهان ، قال قلت نتطير ، قال ذلك شيء يجده احدكم في نفسه فلا يصدنه » ( مسلم ) . وقد كان لتلك العقيـدة المتحررة من الأوهـام أثر عظيم في نهضة حياة العرب والمسلمين .

واذا لم يعرف الانسان لنفسه كرامتها في الوجود وحقها الخاص على الطبيعة فإنه يظل وثنياً مهما تقدم علمه بالكائنات واتسعت امكاناته لتسخيرها . سوى ان النـاس عندئذ يتجهون بوثنيتهم الى الأشيـاء التي يصنعونها فيقدسونها ويكدسونها وتحتكر كل همهم وطاقتهم وتلهيهم عن التأمل في اتجاهات حياتهم ومصائرها فيتيهون في غفلتهم ويعمهون في فرحتهم حتى تنزل بهم الطامة من حيث لا يشعرون وتحول حياتهم ركاماً كأن لم تغن بالأمس : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » . ( يونس ٢٤ ) .

**الاستقلال عن أهواء البشر** : ـ الهوى هو جماع الميول الفطرية التي تتجه بالانسان الى متاع الحياة الدنيا ، فإذا طاوعـه واتبع دواعيه أوقعـه في اسر اللذات الأرضية المحسوسة حتى يصبح كل همه في ان يأكل ويتمتع كشأن البهائم وحتى يذبل عنصره الروحي وينبت الحبـل بينه وبين عالم الغيب . ولا يزال الهوى بصاحبه حتى يبطل سر كرامته على سائر الأشياء ويعطل تعلقاته العلوية من فرط شغله بالشهوة السفلية بل حتى يغشى بصيرته جميعاً فلا يرى الا ما تحت قدميه ولا يعنى الا بالقريب العاجل لا ينظر في حياته لمآلاتهـا البعيدة ولا يقدم شيئاً لآجلته . وما دام عبد الهوى أعمه في دنياه يأخذ منها كيفما اتفق عاجلاً بعاجل ولا يخط لها تدبيراً او نهجاً شاملاً فأولى به ان يغفل جمـلة واحدة عن آخرته .





وقد يترقى عقل الانسان وعلمه شيئاً ما فيكف عن ايثار اللذة المباشرة رجاء لمستقبل أفضل وتعلمه التجربة ان يدخر لغده وان يحتمل مشقة الزراعة من أجل الحصاد ، ولكن مبلغه من ذلك قليل بغير الايمان لأن الشهوة شديدة الالحاح تتفلت من زمام العقـل والصبر ولأن بصيرة البشر محـدودة تحصرها حجب الغيب في مدى قريب ، فمن خلق الانسان اللازم قصر النظر وتعجل الأمـور .

ويترتب على قلة علم الانسان وفرط تأثره بالمحسوسات المباشرة أنه رهين الظروف المحيطة به ، فأوضاعه المادية ومشاهداته وتجاربه الخاصة هي الاطار الذي يحكم فكره واتجاهـه . وقد يكتسب حظاً زائداً من العلم ونفـاذ البصيرة فيشمل بنظره مجالاً أوسع من الحياة ، ولكن القـاعدة الظرفية التي تحيط به لا بد ان تطبع نتاج فكره وتحكم سلوكه بقـدر معتبر . ويبـدو وقع الظروف المباشرة على الانسان في أنها تبرز له حاجات معينة تحتكر همه كما تلمح له وجوهاً معينة لمعالجتهـا تشغل عقله فيظن ان ذلك كل ما هو كائن من غايات ووسائل له بل للناس جميعاً . ومن ثم كانت المذاهب التي يتخذهـا البشر يحسبون فيها حلاً شاملاً وشافياً ودائماً لمشاكل الانسان ـ كانت كلهـا معالجات جزئية لبعض قضايا الحياة موقوتة بأحوال عصرها اذا تجاوزها الزمن لم يبق لها الا قيمة قليلة .

من أجل ذلك كان الانسان من اتباع الهوى في تقلب وذبذبة لأنه لا يستبين لحياته معنى جامعاً ولا يهتدي لقبلة ثابتة يحركه في سعيه الشوق اليها ويجمع شمله الالتزام بها بل يدب مطاوعاً لتيار الظروف كلما عصره ظرف انعطف نحوه بأهون الجهـود يترك نفسه مرسلاً سادراً متقلباً تبعـاً لنوازع الشهوة والمزاج وضغوط أحوال الحياة وغيرها كما ينساب الهواء ويتقلب . وقصارى جهد المرء اذا اتخـذ إلهه هواه ان ينتظم له أمره حيناً من الدهر فيرى رأياً ويتخذ مذهباً في الحياة حتى اذا انفق فيه كثيراً من وقته وجهده لاح له فيه

خطأ وبدا له شأن آخر فينقلب على عقبيه ويبطل سالف سعيه ويتوجه نحو الغاية الجديدة حتى يزهد فيها وينصرف عنها الى غيرها — هكذا يتخبط في حياته وتتشتت طاقاته في كل وجه وتتبدد في الأخذ والرد . بل ان المرء حينئذ قد يشقق نفسه في وقت واحد يتجه بكل جانب منها الى نحو مختلف لأن أمره مختلط لا يستقر على حال ، فربما ينهج في حياته الخاصة نهجاً يناقض مسلكه العام ويتصرف في حياته الاقتصادية بما يعارض مثله الاجتماعية ، وهكذا ترتبك جهوده وتتجاذبه المنازع فتنشل طاقته ويخيب نتاجه .

فمن أعظم آثار الايمان أنه يحرر الانسان من إسار اهوائه ومن حصار أغراضه وشهواته المباشرة ويوجهه نحو غاية علمية يعلق بها همه ثم يهبه علماً يهدي بصره الحبيس الى ابعاد الوجود الرحبة ونوراً يبدد من ظلام الغيب ليضيء له آماد الحياة ومراحل الطريق الى الله أولها وآخرها . والمؤمن يدبر أمره ببصيرة نافذة لا يعميه الحرص ولا يستخفه التعجل عن تقديم الجهد الصادق مهما تأخرت ثمرته في الدنيا، بل لا يبالي ان يفوته الاجر العاجل لأن الدنيا عنده مزرعة للآخرة . وهو يرسم خط حياته بنظرة شاملة ويتجه بها نحو قبلة واحدة ، لأنه يهتدي بهدي من الله ذي العلم المحيط والتدبير الحكيم ، ولأنه قد راض هواه وطوّع رأيه لحكم الله فطاقاته جميعاً محشودة وجوانب سعيه كافة موقوفة لعبادته .

والفرق في معيار الدين بين الذي لا يشرك بعبادة ربه شيئاً والذي يتعبد لهواه او لما يروق له من اهواء البشر هو الفرق بين الهدى والضلال . فالأول مؤمن عرف ربه فهو يستقبله بالعبادة معتصماً بحبله لا يتحول عن هديه ولا يحيد ، والآخر تائه يخبط العشواء .

وكثيراً ما يورد القرآن هذا المعنى في الهدى والضلال . فهو احياناً يصور اضطراد طريق الهدى واستقامته وجمعه لشمل الانسان وتوحيد نواحي حياته : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة ابراهيم حنيفاً وما كان



من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين » . ( الانعام ١٦١ — ١٦٣ ) . واحياناً يقابل بين الهدى والهوى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين » . ( القصص ٥٠ ) ، « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ( ص ٢٦ ) . ولعل من ابلغ التصوير للتخبط قبل الهدى قصة ابراهيم عليه السلام وهو يبحث عن ربه قبل ان يؤتى رشده اذ وجده الله ضالاً فهداه بعد ان تقلب في تعلقاته من الكوكب الى القمر الى الشمس ( الانعام ٧٥ — ٧٨ ) . ولا يضل الرجال المهيئون لنبوة لاحقة الا بمعنى البحث والتنقيب عن الحق لأنهم لا يطمئنون الى الباطل ولا تسكن نفوسهم اليه ، وانما يطمئن اليه اشباه الانعام الذين لا يدركون حتى اضطراب سيرهم وانخباط عملهم بل يرتعون في الحياة بلا وعي : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون » . ( الاعراف ١٧٩ ) ، « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضو بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم » . ( يونس ٧ — ٩ ) ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام . . . » ( محمد ١٢ ) .

• • •

واذا تحرر المؤمن من هوى نفسه وميول فطرته بأثر من عقيدة التوحيد فأولى به ان يتحرر كذلك من نفوذ الوجود الاجتماعي فيما يصده عن سبيل

خطأ وبدا له شأن آخر فينقلب على عقبيه ويبطل سالف سعيه ويتوجه نحو الغاية الجديدة حتى يزهد فيها وينصرف عنها الى غيرها – هكذا يتخبط في حياته وتتشتت طاقاته في كل وجه وتتبدد في الأخذ والرد . بل ان المرء حينئذ قد يشقق نفسه في وقت واحد يتجه بكل جانب منها الى نحو مختلف لأن أمره مختلط لا يستقر على حال ، فربما ينهج في حياته الخاصة نهجاً يناقض مسلكه العام ويتصرف في حياته الاقتصادية بما يعارض مثله الاجتماعية ، وهكذا ترتبك جهوده وتتجاذبه المنازع فتنشل طاقته وتخيب نتاجه .

فمن أعظم آثار الايمان أنه يحرر الانسان من إسار اهوائه ومن حصار أغراضه وشهواته المباشرة ويوجهه نحو غاية علميّة يعلق بها همه ثم يهبه علماً يهدي بصره الحبيس الى ابعاد الوجود الرحبة ونوراً يبدد من ظلام الغيب ليضيء له آماد الحياة ومراحل الطريق الى الله أولها وآخرها . والمؤمن يدبر أمره ببصيرة نافذة لا يعميه الحرص ولا يستخفه التعجل عن تقديم الجهد الصادق مهما تأخرت ثمرته في الدنيا، بل لا يبالي ان يفوته الاجر العاجل لأن الدنيا عنده مزرعة للآخرة . وهو يرسم خط حياته بنظرة شاملة ويتجه بها نحو قبلة واحدة ، لأنه يهتدي بهدي من الله ذي العلم المحيط والتدبير الحكيم ، ولأنه قد راض هواه وطوّع رأيه لحكم الله فطاقاته جميعاً محشودة وجوانب سعيه كافة موقوفة لعبادته .

والفرق في معيار الدين بين الذي لا يشرك بعبادة ربه شيئاً والذي يتعبد لهواه او لما يروق له من اهواء البشر هو الفرق بين الهدى والضلال . فالأول مؤمن عرف ربه فهو يستقبله بالعبادة معتصما بحبله لا يتحول عن هديه ولا يحيد ، والآخر تائه يخبط العشواء .

وكثيراً ما يورد القرآن هذا المعنى في الهدى والضلال . فهو احياناً يصور اضطراد طريق الهدى واستقامته وجمعه لشمل الانسان وتوحيد نواحي حياته : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة ابراهيم حنيفاً وما كان



من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين » . ( الانعام ١٦١ – ١٦٣ ) . واحياناً يقابل بين الهدى والهوى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين » . ( القصص ٥٠ ) ، « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ( ص ٢٦ ) . ولعل من ابلغ التصوير للتخبط قبل الهدى قصة ابراهيم عليه السلام وهو يبحث عن ربه قبل ان يؤتى رشده اذ وجده الله ضالاً فهداه بعد ان تقلب في تعلقاته من الكوكب الى القمر الى الشمس ( الانعام ٧٥ – ٧٨ ) . ولا يضل الرجال المهيئون لنبوة لاحقة الا بمعنى البحث والتنقيب عن الحق لأنهم لا يطمئنون الى الباطل ولا تسكن نفوسهم اليه ، وانما يطمئن اليه اشباه الانعام الذين لا يدركون حتى اضطراب سيرهم وانخباط عملهم بل يرتعون في الحياة بلا وعى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون » . ( الاعراف ١٧٩ ) ، « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم » . ( يونس ٧ – ٩ ) ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام . . . » ( محمد ١٣ ) .

• • •

واذا تحرر المؤمن من هوى نفسه وميول فطرته بأثر من عقيدة التوحيد فأولى به ان يتحرر كذلك من نفوذ الوجود الاجتماعي فيما يصده عن سبيل

الله . ذلك ان المؤمن مع ربه شأناً خاصاً – يتوجه الى ربه رأساً لا تحجبه اوضاعه الاجتماعية ولا تقطعه تعلقاته دون الله ولا تلهيه عاطفته الاجتماعية عن حب ربه وذكره ، ويتلقى من ربه التكليف المباشر ثم الحساب والجزاء العيني لا يجد شفيعاً ولا يملك عذراً ، لأن الله قد اودع في كل فرد من روحه وعلمه وألهمه حرية الاختيار بين نجـــدي الخير والشر ثم ألزمه قـدره من المسئوليـة والجزاء . فالمؤمن لا يبقى مرهوناً في اطار القبيـلة او الشعب او الطبقة التي ولد فيها ، ومهما طوقه وسطه الاجتماعي وواقعه المادي انشدّ الى الله بحبل متين ينتشله من وحل اوضاعه الى آفاق انسانية طليقة لتنقشع غشاوة العصبية الفطرية التي تحصر بصره وتنحط اوزارها التي تثقل ظهره ويخلى بين فكره وطاقته وبين امكانات الترقي والاتساع في الحياة .

ومن امثلة التربية القرآنية التي تثبت هـذا المعنى في نفوس المؤمنين وصاة الله لهم بالزهد في علائق الارض والنسب والمال ان قعدت بهم عن عبـاداتهم وبجاهداتهم في سبيل الله : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » . ( النساء ١٠٠ ) ، « يا أيهـا الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الـكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » . ( التوبة ٢٣ – ٢٤ ) ، « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » . ( العنكبوت ٥٦ ) .

فالمؤمن محرر من كثير من القيود الاجتماعية التي تكبل الانسان وتقعد به عن العمل الحر والنهضة المنطلقة وتحتبسه الا يرتاد آفاق الحياة الرحبة . ومن خلق الانسان ان يستسلم لتقاليـد المجتمع الذي ينشأ في احضانـه والمعتقدات الموروثة التي يتربى على مراعاتها وتلزمه بها ضوابط الرقابة الاجتماعية . وما





التقاليد والموروثات الا قوالب جمدت فيها سوابق تجاهلت الحياة لها وظيفة نافعة في تنظيم اتجاه السلوك الاجتماعي وضبطه ، ولكنهـا كثيراً ما تشكل بمضمونها جمـــوداً وتمادياً في باطل قـديم او تتخلف عن مقتضيات الظروف المتجددة فتعرقل تقدم المجتمع . اما المؤمن فإنه اهل لعضوية صالحة في المجتمع الصالح ، لكنه لا يتخذ قيمه من تحت ارجله ، بل هو مشدود الى مثل عليا لا يشرك بها شيئاً – هي المعيار الذي يحكم الله في موقفه من تقاليد مجتمعه واعرافه . فحين تنحرف هذه عن الطريقة المثلى يهجرها وينطلق من قيودها الى آفاق الحياة التي يبلغها اياه جهده الحر ، بينما يرعاها بدقة زائدة ان كانت ضوابط رشيدة ومعالم تنظم السير نحو غايات المجتمع المثلى ولا تعوقه او تسد طريقه : « واذا قيـــل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَلَـوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون . يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » . ( المائدة ١٠٤ – ١٠٥ ) .

ومن هذا المعنى ما نجده في القرآن وهو يقرر علو قيم الايمـان وينعي على الذين يتشبثون بالمعهود الموروث ويكفون عقولهم عن تجاوزه : « واذا قيـل اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتـدون » . ( البقرة ١٧٠ ) . ويضرب القرآن مثـلاً من المؤمنين المتحنفين الى طريق الهدى مهمـا اشتدت ضغوط المجتمع : « إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت مـلة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولـكن اكثر الناس لا يشكرون » . ( يوسف ٣٧ – ٣٨ ) ، « قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا براء منكم وممـا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده ... » ( الممتحنة ٤٠ ) .

● ● ●

ولعل من اظهر دواعي تحرير الفرد في عقيدة التوحيد انها تأمره الا يتعبد لبشر مثله وان يفرد الله بالتوجه والطاعة وان يعتصم به موقناً انه لا يكشف الضر غيره ولا يجلب الخير ويهب رزقه الا هو . وبذلك يستغني المؤمن تماماً عن العباد مهما تهيأت لهم اسباب الرزق في ظاهر الحياة ولا يبالي بهم مهما جرت على أيديهم أعنة السلطة والنفوذ .

ومن اجل هذا كان التوحيد – وهو حق لذاته – ركناً جوهرياً في الايمان وعاملا اساسياً في تحقيق آثاره العملية ، كما كان الاشراك – وهو باطل في ذاته – من اشد آفات العقيدة لانه يقدر لبعض المخلوقين حولا وقوة من دون الله فيجعل لهم سلطاناً على سائر العباد – يستعبدونهم ويسخرونهم ويصادرون حرياتهم . ولا ريب ان امثل وضع للانسان ان يكون في اقرانه حراً سوياً ليتيح لنفسه مجالها ويبلغ بها اقصى ما تبلغه – لا يحبسها على مجال شخص آخر او يعقلها في حدوده ومداه ، ولا يقعد بها ويعطل امكاناتها اتكالاً على غيره واكتفاء بالآخرين عن نفسه ، ولا يرضى بمواطن التقصير والسوء طمعاً ان يحمل غيره عنه وزره . وانما ينبني المجتمع من وحدات الوعي والجهد التي يسهم بها افراده ويتنافسون فيها ويتزايدون فيوفرون فيه الخير ويتباينون ويتخصصون فيحققون فيه التكامل والتضامن ، وفي رحاب الايمان ينشأ المجتمع الصالح ويقوم فيه كل فرد عضواً صالحاً يفي بما عليه من شرك او نصيب . ولكن الانسان اذا لم يعرف رباً هو وحده مالك اسباب التصرف في الانسان وصاحب الامر والحكم يستوي بين يديه كل العباد – او اذا اتخذ من دونه الاولياء والوسطاء – ذلك الانسان نواة لمجتمع قمين ان يطغى فيه السادة والكبراء بحق الدين او الملك او المال او الجاه او يفنى فيه سواد الرعية لانهم يقفون عند آراء اولئك ويتأخرون عن سعيهم من شدة التوقير فيبددون طاقاتهم في خدمتهم او يجمدونها استغناء بقدرات الرؤساء التي يرون انها تكفي وتفيض .

ويكاد القرآن يكون كله تذكيراً بوحدانية الله ووجوب افراده بالعبادة



والتوكل وانكاراً لعقائد الشرك وأوهام المشركين : « قل من يرزقكم من السماء والارض أمّن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون . قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع أمّن لا يهدي الا ان يُهدى فمالكم كيف تحكمون » . ( يونس ٣١ – ٣٥ ) ، « ان الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً . خالدين فيها ابداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً . يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » . ( الاحزاب ٦٤ – ٦٨ ) ، « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » . ( الزمر ٣ ) .

وحينما يجعل القرآن من الصالحين قدوة حسنة يتأسى بهم سائر المؤمنين يعلل ذلك بأنهم ملتزمون بهدى الله متقدمون في طريقه ، ذلك لئلا يتعلق المؤمنون بذوات الرجال مهما صلحوا فيكون زوالهم مدعاة الى التحير والتوقف : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » . ( آل عمران ١٤٤ ) ، « اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » . ( الانعام ٩٠ ) .

واذا كان الشرع يهيء للفرد نظاماً يكفل له حريته الدينية والسياسية والاقتصادية من كل طاغوت فإن العقيدة هي التي تربيه لممارسة تلك الحرية

ولتحقيق ثمراتها فلا يقتصر على إحقاق حقه الخاص في الكرامة والمساواة إزاء أرباب القوة والجاه بل يتحرر من كل خوف يرهبه ويخرج على كل ظرف يدعوه للاحجام عن مجاهداته وللنكوص دون ما أتاح الله له من فرص الحياة.

**الاخلاص في التوجه والعمل** : ينبني على توحيد المؤمن لربه وتجرده عن كل متعلق سواه أن يقيم وجهه حنيفا لنهج الله يعتصم بكتابه وسنة رسوله لايختلبه عنهما شيء ولا يختلس منه الهوى والشيطان أدنى التفاتة عن قبلته المستقيمة ، فهو مقيم أبدا على شريعته الواضحة خطاه على درب واحد وسعيه مركز يتواكب عمله ولا يتضارب ويضطرد تقدمه في الحياة ولا يضطرب .

ومما يهدف لتثبيت هذا المعنى تربية القرآن للرسول الكريم ﷺ ولسائر المؤمنين أن يتمسكوا بشريعة الله مستيقنين أنهـــا دين الحق وطريق الفلاح لا يستخفهم عنها الضالون في شعاب السبل ولا ينجرون الى تقليد الباطل مهما انتفخ وطفح : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ... فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغـــة ونحن له عابدون . » ( البقرة ١٣٥ – ١٣٨ ) ، « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انـكم قوم تجهلون . ان هؤلاء مُتبّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلـكم على العالمين . » ( الأعراف ١٣٨ – ١٤٠ ) ، « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون . » ( الجاثية ١٨ ) .

وليس من الإيمان أن يقبل المرء على الله ببعض شأنه ويدبر عنه ببعض : « ... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . » ( البقرة ٨٥ ) . بل ينبغي للمؤمن أن يحاذر من أدنى





انحراف في وجهته او انعطاف الى أهواء البشر فإنه اذا صدق توحيده عز بربه واستغنى بهديه عما سواه : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون . » ( المـــائدة ٤٩ – ٥٠ ) .

● ● ●

واذا استقام اتجاه المؤمن العام ملتزما بشريعة الله فإن ذلك يقتضيه ان يخلص مقاصد اعماله من شوائب الشرك ويجعل باعثه عبادة الله في كل حركة وسكون . وانما تقوّم الأعمال بنياتها مهما كانت المظاهر والأشكال ، ولايتقبل الله الا عملا وافق بشكله توجيهات الشريعة ودخل بنية في مقاصد العبادة : « ألا لله الدين الخالص ... » ( الزمر ٤٣ ) ، « انما الأعمال بالنيات وانمـــا لكل امـــرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » ( البخاري ) .

وهذا المعنى هو الذي يميز العبادات من اغفال الاعمال التي تجري بهـــا عادات البشر ، ففي حياة المؤمن اعمال تعبدية محضة لا تقع غالبا الا في سياق العبادة لانها اعمال مخصوصة الشكل لم توضع الا بقصد التوجه المباشر الى الله كالصلاة والصيام والحج ، وانمـا جعلت هذه العبادات المحضة لتزكية الدين وذكر الله – ليس لها من غرض دنيوي الا اذا التوى بها صاحبها . أما سائر الاعمال فتتخذ من الشكل صورة معتادة وتتجه لاول وهلة لتحقيق غرض دنيوي مباشر ، وقد يأتي بها الغافل عن ذكر الله على نحو ما يأتي بها الذاكر المخلص ، وانما يخرجها من عداد الاعمال العادية ويدخلها في نطاق العبادة المستصحبة بالنية . فبالنية الصالحة يزكو كل عمل وينقلب عبادة معتبرة ، ولو توخى

قضاء حاجة بشرية او كان من محقرات الشئون التي تجري بها سنة الحياة الرتيبة . ولكل عمل صالح مرجوع في حساب العبادة بحسب نية صاحبه ، فإذا اتجه وعي العامل الى اختيار العمل الحلال دون الحرام والتزام الوجوه الشرعية لإتيان عمله كان ذلك بعض عبادة ، وإذا وصل باعثه المباشر بمقصد أعم من ضمن مقاصد الدين كان حظه من العبادة أوفى ، ويتعاظم قدر العبادة في العمل بقدر ما تتضاعف فيه المقاصد الدينية ويغلب التوجه الى الله حباً وشكراً وخوفاً ورجاء ، وما يزال العبد يتسامى بعبادته حتى يبلغ اعلى مقامات الاحسان والاخلاص .

وما يؤكد خطورة الإخلاص في الدين ان النفاق يعتبر فيه من ابغض مواقف البشر : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . » ( النساء ١٤٥ ) . وما من مذهب غير الدين يشتد هكذا في إنكار النفاق ويجعل للإخلاص هذا الوزن الكبير في تقويم الاعمال ، إذ يغلب على البشر في مذاهبهم الوضعية ان يأخذوا بظاهر من السلوك وألا يعتبروا بالنيات إلا بقدر لأن طوايا النفوس لا تبدو لهم إلا قليلا . ولكن الدين يؤسس على استجابة راضية لدعوة الله يصدقها العمل المخلص ولا يغني فيه الكذب والمخادعة . ولئن كان في الدين بعض مسئولية المؤمن قاصرة على ظاهر عمله — لأن امرها في الرقابة والحساب موكول الى الجماعة — فإن المسئولية الدينية العظمى إنما يقام حسابها يوم القيامة يتولاه الله الذي لا يخفى عليه سر ولا علن : « وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين . » ( العنكبوت ١١ ) . فلا حظ في الدين لمنافق كذاب يحاكي بظاهره سيرة المؤمنين ولكنه يعرض عن الله في دخيلة نفسه .

وقد يبدو بادىء الرأي ان العمل إنما تحدث ثمرته في الدنيا بوقعه الظاهر مهما يكن الباعث الغائر من ورائه . ولكن العامل الذي لا تحركه نية مخلصة لا يمكن ان يبلغ مبلغ المخلص في افراغ جهده بوجه فعال نحو محصول





عملي اتقن أداء واشد تأثيراً في واقع الحياة . ثم ان كل عمل يؤدى بإرادة التعبد الخالص يعود على نفس صاحبه بأثر طيب لأن في ممارسة العبادة زيادة للايمان وتربية للطاقات الروحية ، واذا عظم الايمان انبجس أعمالاً صالحة وفاض خيراً وبركة على الحياة . والعمل الذي يُنافق فيه او يشهر في الملأ بغير وجه المضمر يبعد صاحبه عن الله ، فإن كان منافقاً ازدادت نفسه مرضاً وان كان مؤمناً يرائي غشيته بعض العلة وأوهنت ايمانه ، ويوشك المؤمن اذا اعتاد أعمال الرياء ان يموت في نفسه الايمان فلا يقوى بعد على عمل صالح . اما المنافق فإنه لا يبلي بلاء يذكر اذا عددت فعال المؤمنين وآثارها الصالحة ، فهو لا يأتي الخيرات الا كارهاً يوقعها بأضعف الوجوه مظاهرة للناس ولا تواتيه غفلة منهم الا راغ عن الخير وافسد ما وسعه الإفساد لأنه لا يبغي الا ان يحفظ جاهاً وسلامة في حياته الاجتماعية .

فالمؤمن — كما يتوجه في جملة حياته الى الله ويستقيم في مذهبه العام على شريعته — مدعو الى تمثيل ذلك الموقف العام في كل عمل بأن يمحض فيه نية العبادة ويجرد قصد التقرب الى الله . الا ان حظوظ الدنيا تكتنف المؤمن وتراوده وتشوش عليه ، فربما حجبته عن امر ربه حتى يأتي العمل لاهياً إلا من غرضه الدنيوي المباشر ، او نازعته في مقاصد عمله فأشرك فيه نية متجهة الى الله وشيئاً من اغراض الدنيا مما لم يأذن به الله — كأن يرائي الناس او يراعي فيه مقصداً لم يضعه الدين لمثله . وقد جاء رجل الى النبي ﷺ فقال : « الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ( البخاري ) . وان الله لأغنى الشركاء عن الشرك لا يقبل عملاً من عامل يتجه بشطر همه إلى شيء من حظوظ الدنيا وتقديرات المراآة ، أما اذا كان قصد وجه الله غالباً في العمل فهو مقبول على الجملة ولو خالجته البواعث الأخرى ، فإن النية لا تخلص للبشر على وجه التمام إلا قليلا . بيد أن فضل الأعمال المقبولة منسوب إلى درجتها في الصفاء عن كل شائبة .

## ب ـ دواعي العمل في سبيل الله

### ١ ـ العمل حباً وشكراً :

لا يعرف العبد ربه خالقاً واهباً للحياة ورحماناً مسبغاً للنعماء وإلهاً قائماً بذاته لا يكافئه احد وليس كمثله شيء متعالياً عن كل نقص ومتفرداً بكل كمال مطلق ـ لا يعرفه حق المعرفة الا امتلأ حباً له وتوقيراً . والحب يورث شدة الولاء ويبعث على العمل والاجتهاد قربى الى المحبوب وابتغاء لمرضاته ـ عملاً من تلقاء النفس وطوعها لا يراقب منفعة مرجوة ولا تحدده مراعاة اجر مرغوب فما يزال صاحبه في بذل وعطاء حتى يفرغ جهده او ينقضي عمره .

والإنسان بفطرته المفطورة يحب الكمال لذاته ويلفي نفسه مشدوداً اليه . لكن كمال الله لا يتناهى ولا يحيط بمداه إدراك البشر ، فلكل مؤمن حظ من التعلق بكمال الله حسب مقامه من الايمان ، وتتعاظم اقدار الحب للرب كلما عرف العبد مزيداً من صفاته الحسنى وافعاله المجيدة بعلم يتلقاه عن رسول او بنظر في عجائب خلقه وآثار قدرته او بتجربة نفسية في عبادته والتقرب اليه .

وقد يعجب الانسان بصور الجمال في الكون المحسوس وبمعاني الكمال المجردة ، ولكن ذلك كله اثر محدود لكمال الخالق المطلق ، فليست الصور



الا شاهداً على تمام تقديره وليست المعاني الا قبساً من نوره ولله المثل الأعلى . فالمؤمن الراسخ في العلم بالله يرجع الأمر كله إليه ويجمع تعلقاته بالمحسوسات والمفهومات جميعاً متوجهاً بها الى مبدع الأشياء ومنصرفاً بحبه كله ليستغرقه في رب العالمين . وذلك مثل ابراهيم عليه السلام ، اذ اعجبه الكوكب المنير في جنح الظلام فتعلق به لأول وهلة ثم تجاوزه لما رأى فيه النقص وابتغى لحبه الكمال فما زال يتدرج فيه بنظره وفكره حتى بلغ غايته فوجد ربه عند ذلك ( الأنعام ٧٥ ـ ٧٩ ) . وإذا كان المؤمنون يتسامون بولائهم الى الله فسائر الناس بقاصر إدراكهم يقفون بتعلقاتهم وحبهم من دونه : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ... » ( البقرة ١٦٥ ) .

والانسان بالغريزة المركوزة فيه يحب نفسه ويشمل بعاطفته كل شيء يتمثل نفسه فيه أو يرى وجوده ممتداً إليه ـ وذلك هو سبب حب الانسان لما ينتسب إليه من اهل وملك وموطن ـ وما يشاكله ويلائمه بأي وجه من الوجوه . وبهذا المعنى أيضاً يحب الانسان ربه متى اهتدى إليه ، فوجوده كله لله وقيامه ودوامه به ورجوعه إليه ، وتربطه بربه وشائج أوثق من كل قرابة لأنه أثر منه تعالى صنعه بيديه ونفخ فيه من روحه ولقنه من علمه وحاطه برحمته وقدرته ، بل ما هو إلا جزء صغير يندرج في نظم من خلق الله الكبير ويتسق في وحدة الكون وتحيط به آثار قدرة الله الحسية وآياته البينة ، فكل شيء في عالم الشهادة يصله بربه ويزيده أنساً به وحباً له . فالمؤمن ذو الفكر والبصيرة لا يكاد يشعر بنفسه وابعاد وجودها إلا ذكر بها ربه ، ولا يحب نفسه إلا كان الله احب إليه منها ومن كل قريب . ثم يقع في نفس المؤمن حب رسول الله ﷺ وحب دينه وحب المؤمنين : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان ـ ان يكون الله ورسوله احب إليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » ( البخاري ) .

والحب يبعث على السعي نحو المحبوب والاجتهاد في استرضائه – ذلك أن المحب يميـــل إلى القرب من حبه ويهيجه إليه الشوق فإذا سعى نحوه سعد واستشعر راحة البال فكأنه بالزلفى يستجمع ذات نفسه ويستكملها ، ثم إنه يحرص على ان ينال حظوة لدى حبيبه ليرضى عنـــه ويتيح له أسباب المودة ويمكنه من استشراف روح القرب . وهـذا هو شأن المؤمن المحب لربه – ينهض إليه نافراً من الدعة والقعود عن جنابه : « . . . وعجلت إليك رب لترضى » . ( طه ٨٤ ) ، ويشعر ساعياً مهما بعدت الشقة ، فما يبلغ مرتبة من القرب ويستبشر بهـــا إلا تطلع الى مـا فوقها وتاق الى مقامات ادنى . ويتطلب المؤمن المحب مرضاة ربه فيطيعه في انقياد وإسلام – ينعم بالتكاليف ولا يستثقلها ، ويراقب حدود الله ولا يضيق بها لأنها معالم الطريق إليه .

هذه المعـاني ليست وقفاً على خواص العارفين بالله ، بل تصف كثيراً من مواقف المؤمنين المجاهدين الصادقين ، فمن حب الله يحبـون رسوله الذي بلغ عنه وكان إماماً للسالكين سبيله ، وتراهم ممـا والوا الله ورسوله يفرون إليـه مسابقين ، وأينما لاحت لهم وجهــة امر الله ومظنه رضوانه اندفعوا دائبين لا يكادون يحسبون حساباً لحجم التكاليف ومشقات الطريق ، بينما تجـــدهم مبغضين في الله كل من حاد الله ورسوله وقافين عند حدود الله نافرين مما يجلب عليهم غضبه ومقته ويباعدهم عن جنابه .

وإذا كان حب المرء لله ورسوله ثمرة تدل على إيمانه وتنبيء بعظمهـا عن عظم الايمان فإن العمل كذلك من ثمـار الحب وشاهد عليه ومعيار لتمكنه وشدته : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لـكم ذنوبكم والله غفور رحيم » . ( آل عمران ٣١ ) . ومن عمر قلبـــه بحب ربه وابتغاء مرتضاته هان عنده ما يحب من الشهوات واسترخص في سبيل الله ما يستغلي من نفس وأهل ووطن ومال : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغـاء مرضاة الله والله رؤوف بالعبـاد » . ( البقرة ٢٠٧ ) ، « لا تجد قوماً يؤمنون بالله





واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او أبناءهم او إخوانهم او عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » . ( المجادلة ٢٢ ) ، « ويطعمون الطعـام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منـكم جزاء ولا شكوراً » . ( الانسان ٨ – ٩ ) .

ويرغّب الله عباده في فعل الخير ونبذ السيئات بما يعدهم من مجاوبتهم حباً بحب وودأ بود وما يحذرهم من اتباع ما يسخطه : « وقاتلوا في سبيـل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتـدين » . ( البقرة ١٩٠ ) ، « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . ( البقرة ١٩٥ ) ، « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » . ( آل عمران ١٤٦ ) ، « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . ( آل عمران ) ، « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . ( الصف ٤ ) .

ويبشر الله عباده بأن عاقبة الاحسان الكبرى يوم القيامة هي نيل رضوان الله والدخول في وده : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عـــدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » . ( التوبة ٧٢ ) ، « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » . ( مريم ٩٦ ) ، يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبـادي . وادخـلي جنتي » . ( الفجر ٢٧ – ٣٠ ) .

● ● ●

وللعبد مع ربه شأن آخر يضاعف حبــه لله ويحمله على ابتغاء رضوانه

والعمل لوجهه من بعد الرغبة في الأجر وخوف العذاب – ذلك أنه يقدر نعم الله عليه فلا يكاد يحصيها . فقد تفضل عليه ربه بالوجود – أم النعم جميعاً ، ثم جعـــل له السمع والبصر وسائر مقومات الوجود ، وسخر له وسطاً ملائماً يهيء له أسباب الحياة ، وبالجملة أسبغ عليه شتى النعم – مـا يظهر له ببدائه النظر وما يستبطن فلا يدركه إلا بدقائق الفكر . ومـا يزال الإنسان كلما اتسعت رؤيته وزاد علمه بنفسه وبما حوله يستبين من افضال الله ووجوه خيره ما لايتناهى : « الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » . ( ابراهيم ٣٢ – ٣٤ ) ، « ألم تروا أن الله سخر لكم مـا في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنـــة . . . » ( لقمان ٢٠ ) .

والإنسان مجبول على عرفان الجميـل لكل من أحسن اليه ، ويجد نفسه منساقاً بذلك الامتنان إلى ان يشكره ويؤدي إليه ما يفي بإحسانه – لاتكاد نفسه تسكن وترتاح حتى يفعل ذلك . لكن أين إحسان البشر المحدود من نعم الله التي لا تحصى ؟ وكيف يكون حقهم في الشكر من ضخامة الشكر الواجب لله ؟ بل ما من نعمة تنسب للعباد إلا هي فرع من إنعـام الله خالق الأشياء كافة ومالكها في أصـــل الحقيقة ومسخر الخلق بعضهم لبعض . ويحوط الله عباده بالإحسان متنزهاً عن الغرض غنياً عن العوض ، إلا أن يبتليهم هـل يشكرون أم يكفرون : « قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم » . ( النمل ٤٠ ) ، « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . ( الإنسان ٢ – ٣ ) .

فالمؤمن الشاكر ينهض بهمة ليصدق شكره بالعمل الكثير – يجد في ذلك





تسكيناً لنفسه التواقة الى رد الجميل ، ثم يقوي من عزمه أن الله يقابل الشكر بمثله وأنه شكور حميد يعد الشاكرين بالمزيد العاجل ويعد لهم في آجلتهم أجراً عظيماً : « وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » ( ابراهيم ٧ ) ، « . . . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين . « آل عمران ١٤٥ ) . فشكر المؤمن مرقـد عليه أولاً وآخراً : « . . . ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » . ( لقمان ١٢ ) .

ولما كان الإيمان يدعو للشكر الجزيل والشكر للعمل الكثير فقـد وجـه الله عباده إلى تعرف وجوه نعمائـه في أنفسهم وحياتهم : « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون » . ( الأعراف ١٠ ) . « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » . ( الأنفال ٢٦ ) ، « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونهـا وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . ( النحل ١٤ ) ، « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . ( النحل ٧٨ ) . وحض الله عباده كذلك على تصديق الشكر بالعمل : « . . . اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » . ( سبأ ١٣ ) .

والعبد المؤمن لا ينفك يسأل ربه التوفيق الى أعمـال الشكر حتى يكافيء من افضاله مـا يستطيع : « . . . رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمـل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبـادك الصالحين » . ( النمل ١٩ ) .

• • •

هذه المعاني المتقدمة – الحب والاسترضاء والشكر – شعاب من الإيمان

اذا وقرت في الصدر صدقها العمل انتهاضاً الى الخيرات وانحباساً عن حدود الله . وتتعاظم تلك الآثار في حياة المؤمنين بقدر عظم الإيمان وبسطة شعابه في أنفسهم . بل كلما استجاب عامل لداعيـــة الحب والشكر أعقبه عمله وما يرى من أثره الطيب مزيداً من انقطاع الهم عن علائق الدنيا ومن اخلاص الحب واستشعار واجب الشكر لله ومن ابتغـــاء مرضاته وإيثارها على كل مرغوب ، ويرتد ذلك مضاعفة للعمل والأثر الطيب في الحياة ، وهكذا دواليك.

وربما يلحظ المرء لهذه المعاني شأناً جليلاً فيفضلها على رجاء الأجر والخوف من العذاب المحسوس لأنها تبدو أقرب للتنزه والكمال . ومن الجائز ان يكون بعض الناس اكثر اشتغالاً بهذه الدوافع المحضة وبقصد وجه الله منهم برجاء الجنة والخوف من النار أو أن هذه الدوافع تنهض بعمل المؤمن الى مقامات أجـل وأسمى . ولكن مهما كان من ذلك فإن بـين الحب والشكر والرجاء والخوف تكاملاً ووحدة أساسية . فقد يشري المؤمن نفسه ابتغاء مرضاة الله ويكاد يفنيها في حبه ، ولكن حبه لربه يتصل بحبـــه لنفسه لأنه وجـه من أشواق نفسه الى الكمال وانعطافها الى مقوّمات وجودها ، فلا ينتقض الحب لله بأن يرجو المؤمن لنفسه نعيم الآخرة ويخاف عذابها . ومهما ارتاحت نفس المؤمن ونعمت بما يرضي الله من عمـل فإن هائجة حرصه على استرضاء الرب لا تسكن الا اذا لقيه يوم القيامة فألفاه راضياً ودوداً ، وانما يتمثل رضوان الرب ووده فيما يبسط للعبد من النعيم المحسوس وان فاضا عليه أيضاً بوجـه معنوي أكبر . ولئن كانت دواعي شكر الله انما تنبعث في النفس من حب معرفة الجميل فإن الذي يقدر عاجل الإحسان لا بد أن يطمع في آجله ويحذر سوء العاقبة ، وإن للشاكرين من الحسنى يوم القيامة نعيما محسوساً الى جانب الرضوان كما ان للكافرين مساس العذاب الأليم علاوة على غضب الله .

فلا وجه للمقابلة الفاصلة – بعد انعـام النظر – بين البواعث التي تبـدو متسامية الى ذات الله مجردة من حظ النفس وتلك التي تحسب حساب الجزاء ، ولا بين التقديرات الناظرة الى مصائر العباد المعنوية عند ربهم وتلك التي ترعى





مصائرهم الحسية إلى النعيم أو العذاب ، ولا بين أثر مقيم يجده المؤمن حاضراً في نفسه برداً وطمأنينة أو خيراً مادياً يعجله له ربه في الدنيا وعاقبة آجـلة يوقن أنها لا تؤخر إلا لأجل معدود وأنها خير وأبقى – كلها بواعث تتفاعل وتتكامل في نفس الإنسان وتنهض به إلى أجل الأعمال وأشد الجهـاد وتؤتي ثمارها الطيبة في شتى نواحي الحياة .

٢ – العمل لأجل الجزاء :

لا يكاد البشر ينبعث لشيء الا رجاء لمنفعة يلتذ بهـا ويسعد ، ولا يكاد ينكف دون حاجته إلا خوفاً من ضر يؤلمه ويشقيه – ذلك حسب تقـديره وترجيحه لاحتمالات وقوع النفع أو الضرر . بيد ان الإنسان لا يعيش هكذا متجرداً لطلب اللذة الشخصية المباشرة والفرار من الألم ، فإن فطرته وتربيته الاجتماعية تبسط حـدود وجوده الفردي وتوسع تعلقاته حتى يشمل باعتباره دائرة أرحب من الآخرين ويقدر للمصلحة العامة قدراً أكبر . وحين تنعقـد العلاقات في المجتمع وتتطور ظروف الحياة تتركب عنده من الحاجات الجزئية المباشرة تصورات أعم لأهداف الحيـاة ووسائلها ويتغير مفهومه لحاجاته وتقديره لما هو أولى للناس وأعدل بينهم .

فالفرد في حركته وانضباط سلوكه يدور بين الرجاء والخوف – يتمثلان في مواقفه المتعددة نحو مختلف الرغائب والمخاطر الحسية والمعنوية أو في التزامه مبدأ أشمـــل يهدي إلى الوجهة العـامة لمقاصده . أما الجماعة فتتخذ كذلك مواقف لجلب المصالح المرغوبة ولدرء المفـاسد المخوفة في تقويمها الغالب ، كما تضع سياسات شاملة تتوخى تحقيق المصالح العامة وتوفيق مصالح الأفراد ، ثم تفرض على أفرادهـا مراعاة تلك المواقف والسياسات بأن تقرنها بإجراءات ترغب الطائعين بالمكافأة وتردع الخارجين بالغرم والعقاب أو بإجراءات تصلح من جنوح الفرد وتخلفه .

فحاصل الأمر أن الجزاء هو العـــامل الأساسي الذي يحكم سلوك الإنسان

دافعاً ووازعاً مما يثير في نفسه من ترجى السعادة أو تخـوف الشقاء . فالفرد فيما يتخذ من مواقف بين الفعـــل والترك إنما يبنى على تقويمه للعواقب المحتملة بالنسبة لذات نفسه ولمن يستشعر اتحـاداً معهم من الآخرين . أما التقـدير الغالب الذي تتخذه الجماعة لمظان المصلحة والمفسدة فلا نفاذ له إلا باستقامـة الأفراد مع أمر الجماعة . فحيثما وافق اتجاه الجماعة تقويم الفرد وهواه فإنـه يوافقها بسلوكه مطاوعة لبواعثه الذاتية . أمـا حيث يتخلف الفرد أو يشذ فلا مناص من ان تحـــاول الجماعة ضبط سلوكه عن طريق التأثير على تلك البواعث ذاتها . بأن تتخذ إجراءات معينة تستثير رجاءه وخوفه بما يعـدل اتجاه سلوكه نحـــو الموافقة . وتتشكل تلك الإجراءات بجملتها نظام الجزاء الاجتماعي ، وتتخذ وجوهاً مختلفة منها القانون وسائر الأعمال السياسية التي تصدر عن السلطة الحاكمة ومنها ضوابط الأخلاق والآداب الاجتماعية وأحكامها وجزاءاتها المختلفة . وقد تتخذ الجماعة أسلوب تربية الفرد وإصلاحه ، وهي محاولة لإيصال تقدير الجماعة لقيم الخير والشر إلى نفس الفرد لعله يلفي السعادة من تلقاء نفسه في مراعاتها وألم النفس في الخروج عليها . فبين تأثيرات التربية وضغوط الجزاءات اتحـاد في الوظيفة يستتبع بعض التـــداخل في إجراءاتها العملية .

● ● ●

وانما يعنينا في هذا المقام أن نبسط الكلام في عقيدة الجزاء عند المؤمن واثرها في دفعه للعمل والجهاد والترقي بمستوى حياته فضلا عما ينبعث اليه من ذات نفسه بميله الفطري الدائم الى حال أحسن . ولا شأن لنا – مادمنا معنيين بالايمان وحده دون الشريعة – بالتعرض لأثر نظام المجتمع الاسلامي في التأثير على افراده بسلطان القانون وبالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبسائر الضغوط الاجتماعية من أجل النهوض بهم في مدارج الحياة الطيبة . اماالكلام عن اثر الجزاء في كف الفرد عن الاعتداء على حدود نظام الحيـاة وعلاقات الجماعة فنؤجله الى موضعه .





الابتلاء والجزاء : مبدأ الجزاء ركن أساسي في الايمان ـ يعتقد أولاً أن الانسان لم يخلق عبثا ، فلئن خلق وركبت فيه الغرائز فقد زود بقوة العقل والادراك ، ولئن طرح في الارض تحيط به طبيعة الكون فقد مكن منها تمكينا ، فمهما سيرته الطبائع المجهولة في نفسه بقي له نصيب من حرية الارادة ، او طوقته سنن الكون اللازمة في محيطه وجد لمشيئته مسرحا ومجالا . فما كان للانسان وقـــد امتاز بهذه الحرية في اطار الوجود الا ان يتعرض لعدلها من المسئولية والجزاء ولا يترك سدى . وهكذا انزل الله على عباده – عن طريق الوحي والرسل – دليلا يهديهم لمعايير الخير والشر مقرونا بالبشائر والنذر بالجزاء الوفاق وترك لهم ان يقفوا منه حيث شاؤوا . فالمؤمن يتذكر ببصيرته ان الله هو حقا رب العالمين يسجد لامره الوجود كرها فله الطاعة فيما امر الانسان ان يسجد له ، ويعترف بأن الله حقا هو الرحمن ينعم بالوجود والهداية فله الحمد كله تسبح به الخلائق بطبعها وينبغي للانسان ان يسبح به مختارا ، ويوقن ان وعده تعالى بالجزاء هو الحق لاريب فيه فيرجو رحمته ويخاف عذابه يوم الدين . فالحياة عند المؤمن اختيار وعمل ثم حساب وجزاء ، وهي لذلك ابتلاء هادف : « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . » ( البقرة ٣٨-٣٩ ) .

اما الكافر الذي يجحد ربه ويكفر نعمته ويكذب رسله فانه يتمرد على عهد الايمان المركوز في فطرته ليقع في اسر شهواته ويلتهي عن نذر العذاب بمتعة الدنيا وزينتها ويؤثر عاجل النعيم على آجله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا . إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا . وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا . » ( الكهف ٦ – ٨ ) ، « ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم . » ( محمد ١٢ ) .

فالدين ـ فضلا عما فيه من ذكرى للانسان تحيي ما في فطرته من قوى الخير التي تدعو الى حب الله وشكره والنهضة اليــه بالاعمال والطاعات ، يخاطبه من جهة شهواته التي توقعه في الشر فيغريه باللذة والسعادة ويعظه بالشقاء الاليم . فإذا انتصب بين يدي الانسان بشريات النعيم ونذر العذاب اتسع تقديره لعواقب اعماله ولم يقنع باعتبار اثرها الادنى بل نظر في جملة ما يؤول من نفعها وضرها وبنى على ذلك مواقفه ـ هكذا يحدث الايمان بالجزاء اثره العظيم على سلوك المؤمن وعلى حياته .

• • •

ويتضمن الجزاء الرباني شعبتين فعالتين : الرجاء والخوف . ولا مجال في التأثير بأي منهما للقيود العملية التي يمهدها الناس في تطبيق الجزاء الاجتماعي ، فلو شاء الله لاحاط كل امر او نهي بالترغيب والترهيب . ذلك انه لاحد للرجاء في جنب الله لان خزائن اجوره وافضاله لاتستنفد مهما أعطى الراجين ـ له الملك الواسع والفضل المطلق ـ وكما وسعت رحمته كل شيء يصيب بعذابه من يشاء ويبلغ بهول العذاب ما يشاء لانه يحيط بكل فرد ويأخذ بناصية كل دابة فلا يروغ عنـــه عبد بالتخفي والمراءاة والمداهنة ولانه يملك ان يؤلم الإنسان بما لايدانيه تعذيب البشر . لكن رحمة الله سبقت غضبه ، فقد قدر لكل ذرة من إحسان ـ فعلا أو تركا ـ أحسن الأجر وأجزله ، بينما اقتضى لطفه ألا يأخذ بالعذاب إلا من أخلّ بواجبات أساسية معدودة أو من اقترف المحرم من المناهي . فالرجاء وحده هو الذي يقترن بطلب التكاليف الشاقة والأعمال الجليلة . لكن المؤمن في واقع الأمر قد يحيا مشدودا بين الرجاء والخوف مهما كانت مرتبته في فضائل العمل وبعده عن الحرام . ويعود ذلك التلازم بين الخوف والرجاء إلى أن المؤمن يعلم أنه محاسب على جملة عمله ، وهو ببشريته لاينفك أبدا عن مقارفة بعض الخطايا التي لايدري إن كان الله غافرها ، ومهما كاثرتها حسناته يشفق ألا تحظى عند الله بالقبول لأن الله



يشرط للعمل الصالح خلوص النية لوجهه ونيات البشر تتغلب عليها الشائبات ، فمن هذا التقدير وذاك لا يأمن المؤمن أبدا من عذاب الله ولا يغره الغرور بل يدفعه الخوف والاحتياط إلى تكثير الطاعات ومضاعفة المجاهدات والدأب نحو الدرجات العلى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون . » ( المؤمنون ٦٠ ـ ٦١ ) ، « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . » ( المعارج ٢٧ ـ ٢٨ ) . ثم إن المؤمن يعلم أنه محاسب بخواتيم عمله ، فيخشى أن يجتاحه قبل الممات سوء الخاتمة فتحبط أعماله ، ويدفعه ذلك الفزع إلى المبالغة في العمل الحسن ليزكي نفسه ويحصنها من النكسة أو الردة وليبلغ من ربه مقاما يحفظه ويرعاه لأجله حتى يتوفاه .

فالمؤمن يكتنفه الخوف والرجاء فيرفعانه إلى معالي المقامات في العمل الصالح كما يكفانه عن أن ينحط تحت الحدود الدنيا لمقتضى الإيمان . وقد يغلب على بعض الناس الرغب أو الرهب ، وقد ينشغل المرء بهــذا حينا وبالآخر حينا ، ولكن الأعم من الأحوال أن يتلازم الخوف والرجاء ويتحدا في نفس المؤمن فيورثاه وعيا دقيقا بأنه مختار ومبتلى في كل حركة وسكون واحساسا مرهفا بأنه مراقب ومسئول في كل لمحة ولحظة . وهذا هو الوعي الذي يحييه القرآن بذكر الحساب في الآخرة : « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . » ( الأعراف ٦ ) ، « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون . » ( النحل ٩٧ ) ، « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . » ( الحشر ١٨ ) .

وإذا تيقظ وعي المؤمن لهذه الدرجة استثمر كل أوقاته وافرغ كل طاقاته في فضائل العمل ، فلم يضع ساعة من عمره سدى في خوض ولهو لايغنيه ولاعطل شيئا من طاقته بالغفلة والنسيان . وإن أدنى مقارنة لحساب عمل

الغافل والمذكر مقدرا في طول العمر ومضافا إلى جملة عداد الأفراد لتبرز هول الفرق العملي بين الكفر والإيمان .

ومهما يكن من اتحاد الرجاء والخوف في شعور المؤمن فإن وعد الجزاء بالأجر هو كما قدمنا العامل الذي يقترن بفضائل الأعمال المطلوبة ، ولايشترك معه الوعيد بالعقاب إلا في الواجبات الدنيـــا أو في تعزيز النهي عن تعدي حدود الأخلاق والوقوع في محارم الله . ومادمنا نقصر الكلام في هذا الموضع على أثر الايمان بالجزاء في تكثيف العمل الإيجابي الذي يرقي حياة الإنسان فإنا نعزل دافع الرجاء لنخصه الآن بالنظر ونؤجل التأمل في وازع الخوف من عذاب الله لموضع لاحق .

● ● ●

لعل أظهر ما في الجزاء الذي يرتبه الله سبحانه وتعالى على إحسان العمل أنه يشمل كل وجوه الرغائب البشرية وينتظم الحياة دنيا وأخرى . فالله قد يعقب المحسن في عاجل أمره وجوها من الأجر المعنوي والمادي ـ يقذف في قلبه السكينة والرضى ، ويودع له في نفوس الآخرين الحب والتوقير ،ويحييه حياة طيبة مفعمة بالرغد والأمن والعز ، ثم يعد له في آجلته من كل وجه عهده في الدنيا ما هو خير وأبقى : « ... للذين اتقوا عنـد ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . » ( آل عمران ١٥ ) ، « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم . » ( التوبة ٧٢ ) ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . » ( النور ٥٥ ) ، « إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه





وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهم بيض مكنون . » ( الصافات ٤٠ ـ ٤٩ ) .

وهذا الشمول في طبيعة الجزاء الديني يجعـــل له أثرا شاملا على نشاط الإنسان ومن ثم على حياته . ذلك أنه ـ أولا ـ يجذب الإنسان من كل جانب تتجه اليه الرغبة ويخاطب الناس جميعا بكل خصائص مزاجهم ـ سواء الذين تهيجهم الشهوات الحسية بطبعهم الغالب أو بسبب من شدة الكبت والحرمان أو من نهم الإسراف ، والذين يتشوقون إلى اللذات المعنوية من جراء فطرة راجحة أو لأنهم فطموا شهواتهم الحسية بالتربية أو أغنوها بالكفاية . فهو يعدل كل لذة تقدر في الدعة والكسل بمثلها وبخير منها ، ويسلي عن كل تكاليف العمل بما يكافئها ويزيد ، وذلك حيثما اتجهت رغائب البشر . ثم هو باعتبار ثان ـ ممتد في مستقبل الإنسان عاجلا وآجلا . فبالنظر لما يتأخر منه ينبسط للقاعد أجل يمهله حتى يراجع أمره وينهض ليقدم لغده ويجتهد في حرثه ليكثر حصاده ويقرض ربه كثيرا حتى يرجع إليه فيوفيه ويربي له أجزل الربا ، وتتاح كذلك للمحسن فرص الإكثار والتضعيف . وبالنظر لما تعجل يثبت المؤمن العامل ويطمئن ويمضي في نهجه قدما ، ويعتبر العاجز فيهب بهمة فعالة يحدوه الرجاء الحسن .

وإذا كانت الحياة عاجلها وآجلها خط واحد فإن أولى المراحل تختص أساسا بالعمل ولا يستوفى الجزاء كاملا إلا في الدار الآخرة . فالجزاء في مدى الحياة الدنيا لايترتب حتما لكل إنسان وفق عمله على استواء وعدل منضبط. وكما أن الجزاء لايترتب آليا على العمل في الدنيـــا فإن صروف الإسعاد والإشقاء لاتتوقف كليا على العمل ـ لايفضي كل إحسان أو إساءة إلى حال سعد أو شقاء جزاء وفاقا ، ولا تنتج كل حال نعمة أو ضر عن سوالف العمل صالحه أو طالحه . وليس ذلك أن الله يظلم أحـدا ، ولكن جملة الجزاء

لا تستوفى إلا إذا قدرنا في الحسبان فضل الأجر والثواب في الآخرة وأن الدنيا كلها دار ابتلاء يمتحن الله فيها عباده بالخير والشر مما يعرض لهم في سياق الحياة .

ـ فما اصاب المؤمن في الدنيا أو فاته من حظها برغم إيمانه وعمله الصالح فإما ببعض ما قدمت يداه من سيئة جزاء عاجلا يطهره ويكفر سيئاته ليلقى ربه راضياً مرضياً أو هو ابتلاء له من ربه لينظر أيصبر أم يكفر وكيف يستجيب لتحدي الضرّاء والبأساء ، فشأن المؤمن في كل ذلك أن يرضى ويصبر ويحسن الموقف والعمل فإنه راجع الى ربه فمعوضه جميل العوض فموفيه أجر الصبر والشكر كاملا غير منقوص : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » : ( البقرة ١٥٥ ) ، « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . » ( النحل ٤١ ـ ٤٢ ) ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . » ( الشورى ٣٠ ) ، « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه » ( البخاري ) . وإذا لقي المؤمن في حياته خيرا فإما جزاء يقدمه له ربه عما أحسن دون أن يستنفد ذلك ما يؤخر له من أجر الآخرة ، او ابتلاء بالخير ليمتحن صدق إيمانه وشكره وليرى عمله ريثما يأتي يوم تقرأ فيه كتب الأعمال : « ... للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . » ( النحل ٧٠ ) ، « ... هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ... » ( النمل ٤٠ ) .

وما عجّل للكافر من الطيبات فإنما هو غاية جزائه على ما عمل لانه يستنفد أجره في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ، وما قدم له من العذاب فهو من جزاء ماكسبت يداه ولا يعفيه من عذاب أعظم يوم الدين أو هو





ابتلاء يثبت كفره ويزيد إثمه فيحق عليه سوء العاقبة : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » . ( آل عمران ١٧٨ ) ، « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . » ( هود ١٥ ـ ١٦ ) ، « كذّب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . » ( الزمر ٢٥ ـ ٢٦ ) ، « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون . » ( الاحقاف ٢٠ ) ، « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها في الدنيا ويجزى في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » ( مسلم ) .

ـ وإنما الغافل من الناس من لا يتعظ بما يأخذه من عاجل العذاب ومن يغتر بما يمد له في النعيم فيتمادى في ضلاله ولهوه : « ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . » ( الأنعام ٤٢ ـ ٤٤ ) . وهو من لا يلحظ في غفلته الا ظاهر الحالة التي تصيبه ويفوته منها معنى الابتلاء : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُه فأكرمه ونعمّه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . » ( الفجر ١٥ ـ ١٦ ) . ولذلك قد يثقله الخير فيقعده عن العمل او يستخفه السوء فيقنط وينخذل . ولكن المؤمن يرى في كل حال داعياً للعمل الصالح ، فان اصابته الضراء قدر فيها كفارة تطرح أثقال الذنوب فينطلق بهمة متجددة ، أو قدر ابتلاء وتمحيصاً من ربه فيحشد كل جهد

يمكنه ليثبت قوة ايمانه ومصابرته ، وان اصابته السراء قدر انها جزاء عاجل يشجعه قدماً او ابتلاء يستدعي منه ان يستغل النعمة في العمل الصالح شكراً لله ورجاء لمزيد من فضله .

– **جزاء الآخرة وخصائصه** : مهما كان الجزاء الرباني في الدنيا فانه لا يغني غناء جزاء الآخرة في التأثير بالخوف والرجاء على سلوك الناس وتجنيد قدراتهم للارتقاء بالحياة . ذلك – أولاً – لأن الجزاء قد لا يقع في الدنيا بالغاً قدره العادل الوافي والا اضطربت شئون الحياة الدنيا التي هيأها الله لتكون مرحلة ابتلاء تبسط فيها مسارح العمل ويرخى حبل الحساب – بذلك سبقت كلمته وسنته ، فاذا جاء أجل الحساب طويت فرص العمل وانقطعت سبل التوبة وقضي الأمر : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . » ( النحل ٦١ ) ، « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير . » ( الشورى ٢٧ ) . والأمر الثاني ان جزاء الآخرة أوفى وأبقى فعذابه أشد هولا من كل ما يعهده الناس من صور الألم في الدنيا ونعيمه فوق ما يخطر لهم على بال . أما بقاؤه فذلك ان مسرات الدنيا أو سوءاتها انما تلم بالمرء لأمد موقوت ثم تدور صروف الحياة واقصى ما تدوم ان تنبت بالموت ، بينما يبقى سعد الآخرة أو شقاؤها سرمداً – لا ينفك اهل النار ماكثين فيها أحقاباً لا يخرجون وأهل الجنة خالدين فيها أبداً : « ... قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . » ( النساء ٧٧ ) ، « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون . » ( الانعام ٣٢ ) ، « فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ . » ( هود ١٠٦ – ١٠٨ ) .

وقدر رجاء الآخرة عظيم لا ينسب في شيء الى آمال الناس العاجلة .





ذلك ان نعيم الجنة أعظم من كل ما يألف الناس او يتصورون ، وقد بشر الله منه بصور كثيرة يصورها القرآن بمثل ما يقدر المؤمنون في دنياهم ، ثم اخفى لهم من قرة الاعين مالا يعلمون : عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما اطلعتهم عليه » ، ( البخاري ) .

ولو قايسنا نعيم الآخرة الى نعيم الدنيا ألفيناه خيراً من كل وجه . فخير شأن المؤمن مع ربه في الدنيا تزلف وشوق لا يسعد منه الا ببعض المعرفة من خلال آياته في الطبيعة والشريعة او ببعض القربى يستشعرها في العبادة والمناجاة ، ثم هو مبتلى في ذلك يصارع فتنة النفس والشيطان التي تكتنف حياته بذكر ربه فتلهيه ويسارع اليه فتثقله . أما في الآخرة فترفع الحجب المؤمنين حتى يروا ربهم ويرضى عنهم ويرضون ويجعل لهم وداً فيسعدون ، وينقطع الابتلاء فلا شاغل بعد عن الله بل يطمئن المؤمن ويسكن الى جنب ربه . ولا ينعم المؤمن في دنياه من سائر المؤمنين الا بإخاء يشوبه كدر كثير مما يقوم بين البشر من نكر وتباعد وفي نفوسهم من شح وحسد ، وانما يجاهد المؤمنون انفسهم جهاداً لتصلح ذات البين وتنقشع دواعي القطيعة . أما في الآخرة فيلحق المؤمنون بالمؤمنين ويتعارفون وينزع ما في نفوسهم من غل فيصفو لهم الود الحميم ويلتذ المؤمن من صحبة اخوانه لذة مخلصة لم يتذوقها لحياته الأولى . ولا يكاد يطيب للمؤمن في الدنيا متاع ، فإن قضاء رغائبه فيها يكلفه التكاليف اذ تندر عليه الطيبات فلا تتوافر بأقدار كافية وتستعصي فلا يتيسر نيلها الا بجهد جهيد ويكتنف الانتفاع بها مضار كثيرة يهتدي إليها بالعقل والشرع فهو يحاذر ويقدر في الأخذ بها لئلا يسرف او يظلم ويقاوم في ذلك شهوته الجانحة المهومة . أما في الآخرة فتنقضي حاجاته وتتوافر حسب ما يشاء بلا نصب ولا لغوب ، وترفع عنه احكام الابتلاء والتكليف وتسلم له الطيبات من كل سوء ، فلا يشوش متاعه قلق ولا محاذرة . وانما يرجو المؤمن في آخرته نعيما خالداً لا يخترمه الموت من دونه ولا تعتريه الغِيَر بل هي قرة عين دائمة

ولذة باقية في دار الامن والخلود ، فلا خوف بعد لقـــاء الله من التباعد عنه بالذنب او الاحتجاب بالكفر ، ولا خـوف على ذات بين المؤمنين من الشقاق بعد الوفاق ، ولا خوف من ان ينقطع مدد النعيم او تنفد خزائن الله : « إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين . » ( الحجر ٤٥ – ٤٨ ) ، « وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنـــا الحزن ان ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب . » ( فاطر ٣٤–٣٥ ) ، « وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة . » ( القيامة ٢٢ – ٢٣ ) .

فالإيمان بالبعث والجزاء من أكبر شعاب العقيدة خطرا وأشدها أثرا في حياة الناس لأن الآخرة هي دار الجزاء الأوفى والأبقى وهي الحيوان لايتناهى سعدها ولا ينقضي مداها . ووعد الآخرة هو الذي يدفع المؤمن بما يقذف في خاطره من مشاعر الرجاء والخوف إلى بذل أقصى طاقة تسعفه واستغلال كل إمكان يتاح له ليتقدم في حساب الآخرة ولا يتأخر . فلا يقنع المؤمن بأن يبلغ رغائب الدنيا ويحصل شهواتها ، ولا بأن يسلم من حرمانها وشقائها ، بل يتجاوز ذلك بجهاد دائب كبير ينجو به من العـــذاب الأكبر ويتطلع إلى النعيم العظيم .

وإذا كان الناس يتنافسون ويتفاضلون في درجات الدنيا فإن المؤمنين أشد منافسة من أجل الآخرة حيث التفاوت أكبر وأبعد مدى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لهـــا سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . » ( الإسراء ١٨ – ٢١ ) . وبروح من هذا التنافس ينبذ المؤمن





إلى الكافرين بالتحدي – ان يعمل كل على شاكلته حتى يفصل بينهم الله ويمتاز الفائز من الخاسر في الدنيا ثم في الآخرة : « ... لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . » ( المائدة ٤٨ ) . وكذلك يتسابق الذين تضمهم حلبة الإيمان ويتنافسون ايهم احسن عملا : « إن الأبرار لفي نعيم ... وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . » ( المطففين ٢٢ – ٢٩ ) وهم بذلك لا يتحاسدون لان فضل الله يسعهم جميعا ويجيز الله المقتصد كما يجيز السابق بالخيرات وكلا وعد الله الحسنى .

فالمؤمن كلما تعلق رجاؤه بنعيم الآخرة تأمل في درجاتها العالية فشحذ همه وضاعف جهده ليزاحم في ارفع مراتب الجنة واقرب المقامات الى الله : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت الذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضـــل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . » ( الحديد ٢١ ) . وقيم الدين تجعل وعد الآخرة هو الهدف الذي يتسابق اليه الناس وتجعل مآل المرء الاخير هو معيار الفوز ، وما دامت الدنيا هي شوط السباق فنصيب الآخرة انما يؤخذ من الدنيا وتفاضل الاجور بحكه ماسلف من تفاضل الاعمال ، هكذا يعظم الايمان قيمة التنافس في الاعمال : « وقل اعملوا فسيَرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . » (التوبة ١٠٥ ) .

• • •

وان رجاء الآخرة واجرها العظيم لهو سر امتياز المؤمنين من دون سائر الناس بالاستعداد للبذل والعطاء ، وهو سر فاعلية الإيمان في تجنيد طاقات البشر وتعبئتها بصورة هائلة كما نشاهد في تاريخ النهضات الدينية . ذلك ان عهد النهضة يستلزم الجود بالنفس والمال لاقصى الدرجات لان القومة الأولى بأوزار التخلف والخمول هي اثقل مراحل التقدم ، ويستلزم التغاضي عن

استيفاء الاجر كله لان ظروف المجتمع الناهض لا تجعـل امكانات الجزاء ميسورة ولا موفورة ، ولا مناص اذاً من ان يقع العبء الثقيل على جيل يهش للعطاء اكثر من الاخذ ويجد" ولا يدرك كل ثمرة جهده . وقد يقدم الناس على التضحية لشدة استشعارهم بالاتحاد مع الجماعة ، فلا يبالون بالشقاء لينعم من بعدهم ولا بالموت ليعز من خلفهم . ولذلك يجتهد القـادة امام النهضات والازمات في بث الوعي الجماعي ويكثفون حملات التربية والدعاية الضخمة لغرس حب القوم والوطن ولتشجيع الإقدام والفداء ويبعثون الشعور بالوحدة من اجل ان تقدر المصلحة العامة وتوقر الجماعـة من حيث هي وجود كلي ينتظم الافراد في عرض المجتمع وطول الاجيال ولئلا يحسب الافراد حساب العوض لاشخاصهم بل يبذلوا بسماحة وايثار امرهم في الجماعة كفرد واحد حسابه واحد لتكاليف الجهاد وربح الحصاد وليصبروا على الشدة والبـأس ويسقط لديهم الاعتبار لتخلف الجزاء عن العمل بالنظر الفردي المحدود .

لكن مهما بلغت ميول الفطرة الاجتماعية والعصبية للقوم والوطن والشعور بالتضامن والاتحاد بين الامة ومهما احتدت الحملات التربوية في تقوية هذه الميول والشعور فإن الدين يبلغ بالناس فوق ذلك جميعاً . فالدين – اولاً – يجعل رابطة العقيدة الواحدة قاعدة لوحدة انسانية رحبة تذوب فيها فردية الوجود عبر الزمان والمكان – يستشعر المؤمن انه جزء منتظم بموكب المؤمنين عبر الزمن من اول التاريخ الى قيام الساعة وموصول بصفهم عبر الفوارق الشعوبية والفواصل الارضيـة . وسنعود لهـذا المعنى في موضع آخر . ويتقوى تأثير عقيدة الإيمان ـ ثانياً ـ بفطرة الإنسان الاساسية وخلقه الاول : وهو الإقدام نحو المصلحة الذاتية والكف عن المضرة ، وبما ان مقتضى هذا الخلق المجبول أن الجزاء كلما كان مباشراً في مساسه بعين الفرد كان وقعه اقوى وآكد ، فإن اشد المؤثرات الدافعة للاجتهـاد ان يؤمن الفرد بأجر في الآخرة ثابت يصيب صاحب الجهد ذاته لا يضيع ولا يتفرق من حوله .

فمساني الفداء والتضحية التي يتواصى بها الناس اذا تحاضوا على العمـل





والمجاهدة معان يتجاوزها الإيمان لانه ـ فضلاً عن تربية الفرد على البذل ابتغاء وجه الله وعلى الاتحاد بشعوره مع سائر المؤمنين ـ يدفع المؤمن دفعاً للبـذل والعطاء من اجل الآخرين دون نظر لما يعود عليـه منهم لان ربه تكفل له بالجزاء وضمن له عن جهاده او موته دونهم خيراً من لذة الدعة وحب الحيـاة التي يؤثرها القاعد واعد له عوضاً عما ينفق او يفوت من مال اكثر مما يحصله ويكنزه الشحيح : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحيـاء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهـم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون . » ( آل عمران ١٦٩ – ١٧٠ ) ، « يا أيها الذين آمنوا هـل أدلكم على تجارة تنجيكم من عـذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهـدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خـير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنـات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عـدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين . » ( الصف ١٠ – ١٢ ) ، « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهـدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجـة وكلا وعَدَ الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . »( النساء ٩٦ ) ، « ان الله اشترى من المؤمنـين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقـاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعـداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . » ( التوبة ١١١ ) .

• • •

واذا كان الكفر بالآخرة باطلاً في اصله فإنه بأثره يسلب الدين كثيراً من فاعليته في حياة الناس لانه ـ من وجه ـ يهدم قاعدة الاحكام الخلقية ومن وجه آخر يضعف الدوافع الايجابية في المؤمنين ويكاد يميتهـا . ولعله لا يتم تقدير الاثر الخطير للايمـان بالآخرة الا اذا قورن جزاؤها بالنظام الجزائي

الذي ينفذه البشر في سياق الحياة الاجتماعيـة او تطبقه السلطة الحـاكمة . وليست تلك مقارنة بين الدين والنظم الوضعية ، فان في الدين ايضاً ـ وفي الاسلام خاصة ـ احكاماوآدابا وتعـاليم تنظم الجزاء الاجتماعي الذي يسود في المجتمع المؤمن . وانما هي مقايسة بين عقيدة الآخرة والنظام الاجتماعي من حيث مضمون الجزاء واثره ، وهمـا أمران متكاملان ويتساندان في دين الاسلام بينما يتخلف الاول في النظم غير الدينية .

لعل اكبر ما يحفز الراجي الى الاقدام ثقته في ثبوت الجزاء المنشود ، وأجر الآخرة في ذلك حافز فعال لانه في اعتقاد المؤمن وعد حق ، لا يخلف الله وعده ولا يضيع لأحـد اجراً ، فمن جعـل اجره على الله اطمأن أتمّ الاطمئنان ان سيصيب نصيبه يوم الدين : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطوون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عـدو نيلا الا كتب لهم بـه عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقـة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون . » ( التوبة ١٢٠ ـ ١٢١ ) ، « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات انـا لا نضيـع اجر من احسن عملا . » ( الكهف ٣٠ ) ، « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون . » ( الانبياء ٩٤ ) .

أما في الدنيا فقـد يخيب الرجاء ويضيع الاجر الموعود ، وما اكثر من يبذلون جهـداً عظيماً طمعاً في أجر ينالونه ـ مالا كان او جاهاً او ذكراً طيباً ـ ثم يخيب رجاؤهم ولا يلقون الا النكران والحرمان ، وذلك مما يزهد العاملين للدنيا في كثير من مجالات الخير ويحصر جهدهم في مجـالات الاجر او الربح المضمون . ولكن المؤمن الحق لا ينكص عن فضائل الاعمال مهما كانت التكاليف ليقينه بأن جزاءه كله محفوظ في الآخرة ان فاته بعضذلك



في الدنيا بل لانه يقصد الآخرة رأساً بأعماله الجليلة فإن ناله شيء في الدنيا فمن فضل الله .

ثم ان جزاء الدنيـا مهما تحقق لا يمكن ان يفي بالعمل اذا جلّ قدره . فالمجتمع الذي يندب أفراده إلى اضخم الجهود لا يستطيع ان يسعهم بإمكاناته المحدودة بل يؤدي إليهم ما تيسر ويخليهم فيما وراء ذلك الى عاطفة الإيثار الاجتماعي . أما المؤمن فإنه يؤثر حباً لربه ثم لمجتمعه ، بينما يرجو ايضاً أجراً لا تنفـد مصادره ولا ينقطع مداه وحساباً يضاعف الجزاء اضعافاً كثيرة . وما دام حجم الرجاء هو الذي يحدو الانسان للإقدام فان العمل ابتغاء الآخرة يتعاظم بنسبة تعاظم السخاء في الجزاء ، فلا يكاد الانسان يعطـل شيئاً من رأسماله في الحيـاة ـ ماله وجهده ووقته ـ ما دام الربح على استثماره هو التضعيف عشرة امثاله او مئات ـ ذلك قدر لا توفره بهذا الضمان تجارة الدنيا ولا يفي به متاعها المحدود : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبصط وإليـه ترجعون . » ( البقرة ٢٤٥ ) ، « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . » ( البقرة ٢٦١ ) ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . » ( النساء ٤٠ ) ، « من جاء بالحسنة فلـه عشر أمثالهـا ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون . » ( الانعام ١٦٠ ) ، « ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . » ( النحل ٧٦ ) ، « ... ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخـلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . » ( غافر ٤٠ ) .

ومن نقائص الجزاء الارضي ان موازين التقدير البشري لا يمكن ان تُعدل مطلقاً في الجزاء فتنسبه الى قدر العمل على وجه الضبط والقسطاس . وعدالة الجزاء تؤثر في الاستجابة لنداء العمل أثراً واضحاً لأن العامل يصاعد جهده

لحد الطاقة مـا ضمن تصعيد الجزاء بنسبة مضطردة للأداء . لكن ليس للبشر الا علم محدود بتقدير الجهد ومقياس غير منضبط لمقارنة الجهود المختلفة وقسمة الجزاء بحسبها . وحتى لو توافر قصد العدالة والعـلم بموازينها فان المجتمع بامكاناته المحدودة مضطر الى مجانبة المقارنات النسبية المطلقة ليضمن حـداً أدنى من الاجر لكل فرد ولو عجز ان يوفي للسابقين نسبة استحقاقهم . ذلك ان الفوارق الفاحشة تحدث مفسدة تضارع خسارة المجتمع بعدم تشجيع ذوي الهمم والطاقات العالية . أما عند الله فان العدل موفور ، لا يظلم الله السابقين مثقـال ذرة من سبقهم ويعطي كل ذي فضل فضله ، وهو أسرع الحاسبين يحيط بعلم كل شيء ، وهو مالك الملك كله يداه مبسوطتان بعطاء غير محدود يرضى أهل جنته ولا يبقي في صدورهم غلا بين فاضل ومفضول : « إنّ المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سُرر متقابلين . » ( الحجر ٤٥ — ٤٧ ) ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقـال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . » ( الانبياء ٤٧ ) « يا بني إنها إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . » ( لقمان ١٦ ) .

ويتصل بما تقدم ان الله المقسط الحسيب لا يغفل — سبحانه — ولا يعجز عن وجه من وجوه التقدير فلا يقيس العمـل بالمقاييس الظاهرية المضطردة كالنتيجة التي أثمرهـا العمل او الزمن الذي استغرقه ، وانما ينسب ذلك الى اتساع قدرة العـامل وإمكاناته والى درجة المعاسرة والمياسرة في الظروف المحيطة بعمله — ذلك لئلا يقف القادرون على المزيد عنـد حدود المعايير الموضوعة لعامة الناس ويقنعوا بالأداء المعهود ، ولئـلا يشعر الذين لا يبلغون المستوى الاوسط — لعجز لا قبل لهم به ولا ذنب لهم فيه — أنهم مظلومون بعدما بذلوا من جهد الطاقة فيدعوهم ذلك للانخذال : « ... وان الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجـابوا لله والرسول من بعدمـا أصابهم القرح للذين





أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . » ( آل عمران ١٧١ — ١٧٢ ) ، « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجـدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . » ( التوبة ٧٩ ) ، « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . » ( التوبة ١١٧ ) ، « ... لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير . » ( الحديد ١٠ ) ، « العمل في الهرج كهجرة اليّ » ( مسلم ) ، « إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً » ( البخاري ) .

ومن وجوه القصور في المجازاة عند البشر أنها لا ترتب على النيات والأسرار ما ترتب على الظاهر من الاعمال . بيد ان اعمال النفس جديرة بالمكافأة لانها تضيف شيئاً الى إلف النفس للاحسان وتربيتهـا عليـه ، والنفس مصدر الإرادات إذا صلحت وزكت فاضت في الواقع خيراً كثيراً وعملا صالحا كلما واتتها الظروف . وإنما لا يعطي البشر على النية الصالحة لانهم لا يملكون تقدير النيات ، ولو أعطي النـاس بدعواهم لانفتح باب عريض للغش والرياء . فاذا همّ الفرد بالخير ثم كفّ لا يكاد يجزى في الدنيا بشيء ، واذا أفرغ جهده ولم يوفق لتمام العمل او لم يبد للناس ذلك لا يصيب من الاجر في المعتاد الا شيئاً قليـلا من كلمة طيبة او ذكر بخير . ولكن الله عليم بـذات النفوس لا يغيب عنه شيء : « وهو الله في السماوات وفي الارض يعـلم سرّكم وجهركم ويعـلم ما تكسبون . » ( الانعام ٣ ) . فهو يجزى على الموقف النفسي ثم يجزى من بعد على الصورة العملية التي ينجلي بها ذلك الموقف في واقع الحياة — ظاهرها أو سرها ، ويجزي على الهم بالعمل الخير بعض ما يجزى عنه اذا أنفذ صاحبه عزمه ، ويجزى على العمل الذي يتجه اليـه المرء بكل طاقتـه اذا أخفق في اتمامه بعارض خارجي : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . » ( البقرة ٢٧٤ ) ،

« ... ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً . » ( النساء ١٠٠ ) ، « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك . فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فان هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة . ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فان هو هم بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة » ( البخاري ) .

ومن صفات الجزاء الدنيوي انه لا يؤسس كله على الاستحقاق الفردي ، فقد يقع الاجر لغير الذي صدر منه العمل . ذلك ان البشر لا يحيطون بعلم ما يقع كله وقد يخطئون في نسبة الاعمال لاصحابها ، بل انهم يعجزون تماماً ان يتتبعوا جملة الاسباب فيردوا كل سهم من الفضل الى صاحبه الاول ، فكثيراً ما يمضي أناس بالشكر والسمعة الطيبة أو المكافأة المادية عن اعمال لم يكن لهم فيها نصيب . ولو كان الامر كله لجزاء اهل الدنيا لأغري الذين يتمكنون دائماً من سرقة ثمرات جهد الغير بالتحلل من واجبات العمل والتحيل في سلب حقوق الآخرين ولثبطت همة العاملين المغمورين الذين يسمون جنوداً مجهولين لانهم يعملون بلا مقابل ولا شهرة . ثم ان اعتبارات اجتماعية وعملية كثيرة تقتضي ان يشرك الجماعة احياناً في ثمرة جهد الواحد او ان تقسم الثمرة دون نظر لنسبة الإسهام في اكتسابها ، وهذا كله قد يكون حسناً باعتباره ولكنه لا يراعي حرص الإنسان على الاختصاص بالاجر المقابل لعمله الخاص .

أما وان الله يعلم كل خافية ويحصي كل حساب وان رحمته تسع كل شيء فإن المساواة بين يديه فردية والجزاء فردي — لا يؤجر المرء الا بعمله ولا يفوته حقه الى غيره . والله كذلك يقدر كل الاسباب — يحيط بآثار العمل ولو امتدت كثيراً بواسطة الآخرين ويجزي بها دون ان ينقص من اجور الذين اخذوا عن السبب الاول . وهذا المبدأ فيه بشرى جد حافزة لهم العاملين للآخرة : « فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون الا ما كنتم تعملون . »





( يس ٥٤ ) ، « وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى . » ( النجم ٣٩ — ٤١ ) .

وختام القول ان اجر الآخرة يفضل اجر الدنيا بكل وجه وان نظام الجزاء الاخروي بما يستثير من الرجاء في نفوس المؤمنين يحفزهم الى المجاهدات العظيمة التي لا يقاربها شيء مما يؤديه الناس قصداً للدنيا . ولكن اكثر الناس يؤثرون دنياهم استحباباً للعاجلة على الآجلة فلا يكتب لهم في الآخرة نصيب بل يحرمون دنياهم ذاتها من بركات رجاء الآخرة وآثارها العظيمة — يخسرون بذلك أولاً وآخراً وذلك هو الخسران المبين . الا المؤمنين فانهم يوقنون بالآخرة ولا يشرون الدنيا بها أبدا فيكرمهم ربهم بالحسنى في اول امرهم وآخره . بل إن المؤمن ايقن باستيفاء حقه الآجل لأن أجر الآخرة موكول الى الله ووعد الله لا يتخلف وأجله لا يحيد بيننا يوكل جزاء الدنيا الى البشر . ومهما كان رجاء الدنيا موثوقاً فإن المؤمن لا يفتأ يذكر الموت هادم اللذات وقاطع الآمال . والمؤمن لا يستبعد أجل الآخرة وأجرها فما بينه وبينه الا الموت الذي يحذر هجومه في كل لحظة او ان تأتي الساعة بغتة ، فهو من الشفقة من دنو أجله وانتهاء عمله مشغول عن الالتهاء ببعد الاجل وطول الامل ، بل همه ان ينتهز فرصة العمر ويستثمر الوقت مسابقة لاجل لا يدري متى يدركه مسارعاً الى الخيرات فاراً الى ربه : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين . قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . » ( يونس ٤٨ — ٤٩ ) ، « ... وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد . » ( الشورى ١٧ — ١٨ ) .

## خاتمــة

### ( عمل المؤمن : مداه وجناه )

**١ – الشمول والتكامل :**

لا يستقيم الإيمان بالله حتى يفرده المؤمن بالتعبد لا يشرك به شيئاً ولايتخذ غاية من غيره ولا من دونه . وهـذا التوحيـد الخالص يقتضي من المؤمن ان يسلم سعيه وحياته كلها لرب العالمين فيلتزم صراطه المستقيم الذي دل عليه الرسول ﷺ ولا يحيد عنه بشيء من عمله مجرداً وجوه سعيه جميعاً نحوالقبلة الواحدة التي تنتهي الى الله . وبذلك يجتمع شمل حياة المؤمن ولا يتفرق مع الاهواء . فليست الدنيا والآخرة عند المؤمن وجهين للحياة ، وانما هما خط واحد ينبني آخره على اوله ، وليست الشئون الشخصية الخاصة مجالاً منفصلاً عن الشئون العامة ، بل نواحي الحياة كلها عنـده موصولة واعماله جميعاً تعبيرات لمعنى واحد : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . » ( الانعام ١٦١ – ١٦٣ ) .

فالمؤمن مستغرق بعبادة الله في كل شئون حياته يندفع طارقاً كل ضروب النشاط والعمل ليعبر عن تلك العبـادة بأوفى واكمل مـا يسع . وكل فرد بالطبع محدود باستعداداته الفطرية وظروفه العملية – لا يتوخى بالعبادة الا



اعماله ولا يبلغ الا مداه . لكن معنى عبادة الله معنى كلي ، ولئن اخذ منه كل فرد بما تيسر فان المآخذ المختلفة لجملة الافراد تتوارد حتى تتكامل في اطار المجتمع فتنبسط آثار الإيمان في كل زوايا الحياة البشرية . وقد تدعو الحاجـة الظرفية ان يتوجه المجتمع بأسره الى جانب من الحياة يهتم بـه الهم الاكبر ، ولكن صور العبادة لا تجمد في قالب زمني او ظرفي بل يتوخى بهـا المؤمنون كل منحى يتاح لهم في الحياة المتجددة .

وحين يتمكن من الانسان الوعي بأن الحياة مسرح يبتليه فيه الله ويرصد اعماله فانه يظل مشدوداً الى ربه بفكره وعمله وبحياته عرضاً وطولاً لايفرط في لحظة ولا يغفل عن شيء مما يفعـل او يترك بل يرهن عمله كله وعمره في سبيـــل الله . فاذا تذكر المؤمن ان الله انعم عليه بالوجود ثم حاطه بشتى الافضال يمتحنه أيشكر ام يكفر وان كل لحظة من حياته اثر لرحمة الله حيثما تقلب يستخدم في كل حركة او سكون قوة ذاتيـــة لا واهب لها الا الله ولا قوام لها الا به ويسخر مادة الكون بما جعل الله له عليهـا من سلطان – اذا تذكر ذلك اندفع ينشر العبادة في كل وجه من حياته كما نشر الله عليه الرحمة . واذا كان المؤمن ينبعث الى العمل حباً لله وزلفى اليه وابتغـاء رضوانه فانه يحرص ان يحمل من كل عمل قربى والا يشرك في لحظة من حياته او عمل من اعماله تقديراً لغير ربه او تعبيراً عن حب لسواه ، بل تستولي عليه عاطفـة واحدة تنفي عنه كل تعلق باغراض الدنيا وعلائقها وتحـكم جميع تصرفاته وتضفي عليها معنى واحداً هو ابتغاء الوسيلة الى الرحيم الودود . واذا حسب المؤمن حساب جزائه يوم القيامـة فان عظم الرجاء في درجات نعيم الآخـرة يحدوه الى ان يحمل من كل عمل يتيممه حسنة تثقـل موازينه وان يكسب في كل لحظة خيراً يزين كتاب اعماله ، فهو لا يرضى ان يرى مجالاً من حياته غفلا من معنى العبادة او عملا سدى غير مرصود في حساب الآخرة .

ويلتمس المؤمن القربى لربه بكل عمل يدانيه مهما بدا قـدره صغيراً .

وقد لا يأبه الناس لحقرات الاعمال ، ولكن الحياة كل تتلازم فيها الشئون الكبيرة والصغيرة ولا يتم صلاحها الا بذلك . فصغار الامور تكتنف الامور الخطيرة وتكملها وتتكاثر فتتركب منها المصالح الجليلة ، فاذا غفل عنها الناس ضيعوا كثيراً من الخير . أما المؤمن فانه لا يستصغر امراً تهيأت له فيه فرصة التعبد لله بل ان نية العبادة تدخل العمل الصغير فترفع قدره وتوسع اثره لانه زيادة لإيمان فاعله وتربية له على اعتياد اعمال الخير : « الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا اله الا الله وادناها إماطة الأذى عن الطريق ، لا تحقرن من المعروف شيئاً » ( مسلم ) .

وبعض اعمال المؤمن عبادات خالصة متوجهة الى الله لا تتصل مباشرة بمقاصد الدنيا . ولكن لهذه العبادات المحضة اثراً خطيراً في صلاح الدنيا لأنها هي غذاء الإيمان ومدده . فاذا ضوى الإيمان من قلة التعهد والتزكية وهنت عزائم المرء في كل شان وضعفت فيه دواعي التوكل والجهاد وارتد ذلك عليه بالخسران في دنياه وآخرته . ففي شمول عمل المؤمن تكامل بين العبادات الخالصة وسائر الاعمال المتصلة باغراض عاجلة – الاولى تتجه اساساً لتنمية الإيمان وتفيض من وراء ذلك قوة دفاعه للعمل مؤثرة في الحياة ، والثانية تصلح شأن الحياة العاجل فاذا وصلها العامل بمقاصد الدين ونية العبادة زكى بها ايمانه وبورك اول حياته وآخرها .

• • •

وهذا الشمول في العمل الديني يتضمن معنى التوافق والاتساق لان عمل المؤمن على اتساع مداه واختلاف صوره ومجالاته ينبثق من معنى واحد – هو العبادة . أما حين يتسع نشاط الانسان من غير دافع ذاتي سوى ان الحاجات احاطت به واستدعته من كل جانب فان استجابته تكون عفوية تحتمل من المعنى ما اتفق لها حسب الظروف ، وقد يتخذ الفرد الواحد وجهة مختلفة لكل مجال من حياته ويمزق نفسه منجذباً بشيء منها إلى كل مذهب





ويصبح كل شق من حياته او وجه من عمله سلباً على الآخر ، وبذلك تتناقض نتائج سعيه وينمحق محصول كسبه مهما اتسع جهده وعظم : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . » ( الزمر ٢٩ ) .

اما المؤمن فإنه ينبعث في كل وجه من حياته من قاعدة واحدة ويؤدي اعماله كلها بروح واحدة ، فيكون كل عمل رياضة وتربية لأصل قوته وتثبيتاً لتلك الروح الواحدة ، كما تتظاهر وجوه سعيه ويتكامل كدحه ويعظم بأسه واثره في الحياة .

والشمول المتكامل الذي يلزم من معنى الايمان ينتج ايضاً من اتباع تعاليم الشريعة ، فقد وسمت بعباداتها واحكامها الفرعية جميع شئون الحياة واستوعبت حاجات الانسان كافة ووفقت بين مقاصده جميعاً ، وقد بنى عليها العلماء فقهاً غزيراً طرقوا به كل آفاق الفكر البشري ، واسس عليها المسلمون حضارة وارفة تشعبت مظاهرها وتمددت ابعادها وانتظمتها روح الدين الواحد .

### ٢ – الاكثار والاحسان :

لعل من نافلة القول ان نقرر ان عمل المؤمن اكثر وحياته اعمر من سائر الناس . وذلك اننا اسلفنا البيان بأن طريق العمل عنده ممهد مفتوح وأن الدوافع التي تبعثه للعمل شديدة الوقع عظيمة الاثر . فالمؤمن قد اهتدى بإيمانه الى طريق واحد في الحياة لا يتشعب ولا يعوج ينطلق سالكه على بينة من امره سعيه مستقيم مضطرد . فلا المؤمن يقف حائراً في اوائل الدروب ومفارقها لا يدري اي وجهة يولي ، ولا هو يبدد جهده المحدود على مختلف الاتجاهات لا يبلغ في اي منها إلا شوطاً قصيراً . ثم المؤمن ذو علم وبصيرة يستبين معالم طريقه ودقائق مناحيه ويصيب بمساعيه ام وجهته ويركز مراميه في صميم الهدف لا يضله الجهل الى شعاب الطرق فتذهب جهوده بدداً من حيث لا يشعر . والمؤمن – فضلاً عن ذلك – واثق من ان طريقه هو الحق الذي

شرعه الله وان منتهاه الى حيث يفوز السالك برضوان الله ويحظى بنعيم الجنان المقيم ، فهو لذلك مطمئن الى وجهته متوكل على ربه لا يلوي الى شيء ولا يبالي بشيء ، لا تغريه الدواعي النازعة ذات اليمين والشمال ولا يهاب المخاطر والعقبات بل يمضي قدماً . ثم ان مبدأ التوحيد يعصمه من ان تتيمه الطبيعة وتدهشه مظاهرها فيتورع من اقتحامها واستخدامها ، كما يعتقه من إسار المجتمع فيخرج من قوقعة العصبية الى براح الانسانية ويحط عن كاهله اوزار التقاليد التي تبطىء بسعيه نحو المثل العليا . وبالتوحيد يخرج كذلك من ذل التعبد للذوات البشرية الى مقام العزة الفردية حيث يتسنى له الجولان في باحة من الفكر الطليق ويفسح لطاقاته الحرية لينجز غاية ما هو ميسور له من العمل الصالح .

واذا تمهد للمؤمن طريقه بلا سدود ولا عوائق واستبانت له معالمه محجة بيضاء لا يغشاها لبس ولا جهالة ثم اعتصم بالتوكل وتهيأ للاقدام فإن بواعث العمل في عقيدته تدفعه دفعاً للسير في ذلك الطريق . ذلك ان المؤمن يعمل حباً لله فلا يبلغ مرحلة الا ترامت امامه مراحل قرب ادنى وتزايد ما يجده من روح المودة تسوقه الى درجات زلفى اوثق فيمضي لوجهه لا يقنع بمقامه ولا ينفك عن مسعاه . وهو كذلك يعمل شكراً لله ولكنه ينظرفيرى فيوض النعماء تغمره وتحيط به لا يحصيها عداً فكلما جال في مداها بفكره ونفذ الى اغوارها بعلمه تجلت له أبعاد ودقائق لا تكاد تتناهى فيزداد ادراكه لجلائل نعم الله وسعة رحمته ويزداد بذلك تقديراً لعظيم واجب الشكرفيعمل ما وسعه الجهد شكراً ووفاء بحق الله عليه . والمؤمن ايضاً يعمل رجاء لنعيم الآخرة فإذا قدر درجاتها المتفاضلة تعاظم رجاؤه وطمعه فينهض مكاثراً في الاعمال منافساً في اكتساب الحسنات مستبقاً للخيرات ليفوز بأعلى مقامات النعيم : « إن هذا لهو الفضل العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . » ( الصافات ٦٠ ـ ٦١ ) ؛ « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لا يظلمون . » ( الاحقاف ١٩ ) .





ولئن كان وجه الله هو الغاية التي يبتغيها المؤمن فإن الدين يضع له من دون ذلك مقاصد قريبة يدرجه بها ويهدي خطاه من حيث بدأ المسار . فقد يبدو لقاء الله بغية قصية للمبتدىء يكلّ دونها بصره وتنبهر همته ، ولكن تكاليف الدين مبنية على اليسر ورفع الحرج وتوجيهاته واقيسة ترعى ضعف البشر وحدود قدراتهم وتأخذ بهم برفق للتقدم في سبيل الله ، كل بقدر طاقته في السير حتى يبلغ مقامه المعلوم ، فمن المؤمنين ظالم لنفسه صحت وجهته على صراط الله ولكنه قصر في مسعاه كثيراً ، ومنهم مقتصد وفّى بواجباته الدنيا ولم يعظم حظه من فضائل الاعمال ، ومنهم سابق بالخيرات والقربات : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير . » ( فاطر ٣٢ ) .

ويقوم في كل مجتمع بشري نظام لجزاء العاملين لتقوى حوافز العمل وتتضاعف اقداره وثماره ولكن اثر هذا الجزاء لا يداني اثر الايمان بجزاء الآخرة . ذلك امر قدمنا فيه الكلام . لكن المؤمن يتعرض لتأثير الجزاء الدنيوي الذي ينظمه المجتمع على هدى من تعاليم الشرع ثم يندفع فوق ذلك بالتأثير العظيم الذي يحدثه رجاء الآخرة . فهو بجملة دوافعه يفضل الناس طراً في السبق الى الخيرات والإكثار من محاسن الاعمال . هذا ، وستتعرض في موضع آخر لأثر الوحدة الدينية في جمع شمل الافراد في صف واحد حتى يتظاهر عملهم وينضاف حصاد كسبهم في جملة حساب واحد كثير قدره كبير اثره ، كما سنتعرض لأخلاق المجتمع المؤمن وكيف تتكاثر ثمرات اعمال الافراد لأنها توفر جهودهم للانتاج وتحفظها من ان تتماحق وتتناقص بالاحتكاك والمضارة والاشتجار .

• • •

لا يقوّم العمل بالنظر الى حجمه وحسب وإنما الكيف اولى بالاعتبار من الكم ، ذلك هو خاصة معيار الدين : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو

اعجبك كثرة الخبث . . . » ( المائدة ١٠٠ ) . فالعمل المعتبر هو وحده الذي يعبر عن عبادة الله داخلاً بشكله في الأطر المقبولة شرعاً مندرجاً بقصده في ابتغاء وجه الله واستحباب اجره على المنفعة العاجلة ، وبذلك التكييف يكون العمل حسنة مقبولة في الدين .

فلا وزن اذاً في الدين لكثير العمل اذا خالف امر الله او ضل عن سبيله فخرج بذلك من معنى العبادة . فإنما خلق الإنسان ليعبد الله ويخضع له طوعاً كما تخضع سائر الاشياء كرهاً ، وإنما جعلت الحياة ابتلاء للناس ليتنافسوا في مراتب العبادة ويظهر ايهم احسن عملاً .

والإحسان في العمل هو ان يقارب شروطه المثلى – شأن الحسن في كل شيء ، واحسن العمل اقربه الى كال تحقيق المعيار الذي يقتضيه الدين ، وذلك – على وجه التفصيل – ان تكون النية الباعثة إليه هي عبادة الله – طاعته وابتغاء وجهه ورجاء وعده – ثم ان تكون وقائعه وإجراءاته موافقة للأحكام التي شرعها الله تعالى وبينها نبيه الكريم . وليس حسناً في حساب الدين ما سوى ذلك مما يعده الناس حسناً باعتبار المقاييس التي يتخذونها لتقويم الاعمال . فقد يرضى صاحب العمل عن مقاصده وهو ضال فيرى عمله زيناً وهو شين : « قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً . » ( الكهف ١٠٣ – ١٠٥ ) ، « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ... » ( فاطر ٨ ) . وقد يرضى الناس عن ظاهر العمل لما يلوح لهم من سماته وآثاره فيقدرونه حسناً وما هو بحسن : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . » ( البقرة ٢٠٤ ) ، « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين . » ( التوبة ٩٦ ) .





واذا توافرت في العمل شروط الإحسان فأثره الأعظم انه يجد الجزاء عليه في الآخرة بل بأحسن منه واقرب الى اكمل الجزاء مما كان العمل الى تمام الإحسان : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . » ( يونس ٢٦ ) ، « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ... » ( النحل ٣٠ ) ، « من جاء بالحسنة فله خير منها ... » ( القصص ٨٣ ) ، « ... ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور . » ( الشورى ٣٣ ) .

ولكن ما يعنينا ان نوضحه هو اثر الإحسان في عاجل الدنيا . وقد اقتضت رحمة الله وسنته ان يثمر الإحسان خيراً عاجلاً فاضلاً بين يدي خير الآخرة فمن آثاره – اولاً – اتقان الاداء وافراغ الجهد مراعاة لرقابة الله وطمعاً في احسن جزائه . أما العامل الذي لا يتعلق الا بجزاء الدنيا فقد يغنيه ان يكون عمله مرضياً في اعين الذين يقدرونه ويجزونه عليه مهما كان عائباً في حقيقته ، وقد يتكلف لظاهر الإحسان ويخفي الاساءة . وكثيراً ما تجوز على الناس مخبوءة السوء في عمل الافراد ، ولكن عاقبة الإساءة والنفاق تغدو ظاهرة عندما تحصل جملة الثمرات من عمل الجماعة . ثم ان احسان الطوية في العمل اذا اعتاده الانسان كان له تربية صالحة يزكي نفسه ويخصبها للصالحات وينمي استعداده لمزيد من حسنات الاعمال ، بينما تخبث نفس الانسان بالرياء والتظاهر ويمرض باطنه فلا يتمكن بعد الا من العمل الرديء المعيب الذي لا يغني في الحياة غناء يذكر . ويتضمن الاحسان كذلك الدقة والضبط في مراعاة المقاييس الخارجية التي تقتضيها احكام الشريعة وفي الالتزام بهدى الدين في تنظيم الحياة ، وذلك سمو نحو الكمال فيما قدمنا من استقامة جهد المؤمن واضطراده على نسق واحد وفي توافق جهد الجماعة حيث يعظم ناتج الجهد المجمل ويكاثر الخير .

١ ويبارك الله للمؤمنين المحسنين ثمرات اعمالهم في الحياة الدنيا بالأسباب

المتقدمة وبغيرها من سننه الخفية في تسيير الحياة وتكييف مصائر العباد :

« ... للذين أحسنوا في هـذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . » ( النحل ٣٠ ) ، « قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . » ( الزمر ١٠ ) .

**٣ – المثابرة والاضطراد :**

لقد ورد في سالف القول ان الايمان يهدي المرء لطريق الحياة القويم ويثبته عليـه ثم يفعم نفسه بمشاعر الولاء والوفاء لربه ويوقظ فيهـا الوعي بالمسئولية ويحضه على استغراق وقته بالعمل في سبيل الله شاملاً بعمله اوسع ما يتيسر له من نواحي الحياة بالغاً بـه اكثر ما تبلغ الطاقة ناحياً فيـه احسن ما تقتضيه شروط الصلاح . بيد ان الايمان ينطوي من وجه آخر على ضمان تكسب العمل صفة الاتصال والاستمرار وتحفظـه من ان ينبت مـدده وتنقطع بركته بأثر ما يعتور الحياة من صروف الخير والشر .

• • •

فمن ذلك معنى التوحيد ، اذ يسلم المؤمن حياته كلها لله يوجه وجهه الى نحو واحد ويركز عمله على منوال واحد ويجعل خطاه على درب واحد ، فيضطرد تقدمه نحو غايته شوطاً بعد شوط يحدوه وعيه بهدفه ويحثه شعور القرب منها بكل مرحلة . وإذا انخرطت اعمال المؤمن هكذا في سلك موصول بلغ بها مدى بعيداً من الرقي لحيـاته خلافاً للذي يركب الضلال ويخبط العشواء وينساق بلا هدى فتتبعثر جهوده وتتيه في شعاب الحياة .

• • •

ومن اجل المعاني التي تدعو المؤمن للدأب في الحياة الصبر . وقـد فصلنا الكلام عنه فيما سلف . ومجمل القـول انه موقف نفسي قوامه اليقين بأن صروف الحياة كلها قدر من الله وانها مناصب ابتلاء للمؤمن – ذلك هو مغزاها





سواء دارت بالخير أم بالشر . فواجب المؤمن ان تستقيم استجابته لتلك الغير مع معنى العبـادة لله ، فإذا اصابته السرّاء اولى شكرها الى العزيز الوهاب وراقبه فيما يعمل فيها لا يستخفه الغرور بكسبه ولا يأخـذه فيه الشح والطغيان ، واذا اصابته الضرّاء لم تسلمه فجيعتها الى اليأس ولم يتبرم بقضاء الله او يقنط من رحمته – فإذا كان أمراً منحسماً لا مرد له رضي المؤمن فيه بحكم الله فلله ما يعطي وما يأخذ ، وان كانت حالاً يمكن ان تحول سعى في تغييرها مراعياً في ذلك ربه سالكاً شريعته ، فهو لا يستسلم للقعود والانخذال ولا يجنح من فرط الحرص الى البغي والعدوان . فنهج المؤمن وسيرته واحدة يصابر ليثبت عليها ولئلا تزله عنها نزعات الفرح والجزع ، فإذا صدق الصبر استقام على قصد السبيل واستمر سيره في وجه صدمات الحياة واتصلت اعماله وتوالت جهوده حتى تتبارك ثمراتهـا الطيبة : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . » ( آل عمران ٢٠٠ ) .

• • •

– ومن شعاب الايمان التي تحصن المؤمن من التحير والتبلد والانتكاس وتجعل عمله موصولاً وسعيه دائماً : حسن الرجاء في رحمـة الله – مما ينفي عن نفس المؤمن دواعي اليأس والقنوط . فالمؤمن قـد يخطيء ويسرف في الخطايا فإذا تذكر وسوس اليه الشيطان فآيسه من رحمة الله وزين له التمادي ما دام طريداً تنسد امامه ابواب الانابة ، وبذلك تنقطع الأسباب بينه وبين العمل الصالح . ولكن رحمة الله لا تنحجب عن العبد التائب وأبوابه لا توصد في وجه المنيب ، بل يتعلم المؤمن من قصة خطأ آدم وتوبته المقبولة ان ابن آدم كله خطأ ومدعو لأن يكون أواباً ، فكلما انقطع عن عمـل الصالحات او حرفته سيئاته عن الصراط المستقيم كان له متى ما ادّكر ان يستغفر ربه نادماً على تفريطه تائباً عن ذنبه ويعود الى رشده وعهـده ليتصل عمله الصالح ويضطرد سعيه نحو ربه . والاستغفار الكثير مراجعة متوالية في مسيرة المؤمن يتخذها ليضمن

انه مستقيم على طريقه ، والتوبة أوبة بعد انفلات يعود بهـــا المؤمن الى خطه ووجهته . واذا علم المؤمن ان التوبة متاحة له ابداً برحمـــة الله وان التوبة الصادقة مقبولة بفضله لم يجد ما يدعوه لأن يعـــدل او يدبر عن ربه ويبطل سابقته في العمـــل الصالح : « وإني لغفـــار لمن تاب وآمن وعمـــل صالحاً ثم اهتدى . » ( طه ٨٢ ) .

ومعنى الرجاء في رحمة الله والأوبة الى طريق الجهاد والعمل الصالح كثير الورود في القرآن الكريم : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم . » ( النحل ١١٠ ) ، « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . » ( الزمر ٥٤ ) .

وقد يتطرق اليأس الى نفس الانسان من فرط شعوره بالقصور والاخفاق حين لا يبلغ الغايات التي وضعها لعمله ومسعاه ، فإذا يئس وضع السلاح وترك المجاهدة وقنع بالقعود . وهذه ظاهرة مألوفة اذ ليس من شأن الحياة ان يدرك كل ساع ما يروم . فإذا عكف المرء بهمه كله على غاية دنيوية وتوخاها بجهده كله ثم امتنعت عنه كان قابلاً لأن يغشاه القنوط فيرضى من دونها بالقريب الميسور ويقعد عن مشقات الجهاد بعد ذلك . ولكن المؤمن الحق لا يتطرق اليه اليأس من هذا الوجه لأنه مشدود الى غايات ربانية أخروية ليست رهناً بنتائج العمل بل باستقامة النية وصدق الجهد ومتى ما توافرت للعمـــل تلك الشروط كان حسنة مرصودة في حسنات المؤمن وليس جهداً ضائعاً . ففي عقيدة المؤمن ان الاجر مضمون لكل محاولة عمل جادة تنبني على قصد حسن ولو لم تنتج منها الثمرة العاجلة . فانحتام النتائج منوط بجملة اسباب لا يملك ناصيتها باطلاق إلا الله . وهذه العقيدة تجعل المؤمن اجرأ على اقتحام الأمور مهما كانت بعيدة الشأو وعسيرة المنال ، ييأس دون محاولتها سائر النـــاس ، ويتفق له بذلك أن ينال كثيراً مما يعجز عنه الآخرون . ثم إن هذه العقيدة تجعل المؤمن أصلب عزماً واثبت على مذهبه في الحياة لا يصرفه عنه استعصاء





النتائج واستعصام الغايات ولا يقعده عنه انتكاس الحظوظ او تأخر الثمرات.

ومن هذا المعنى في القرآن وصفُ الذين يحرصون في امرهم كله على المتعة القريبة : « لو كان عرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . » ( التوبة ٤٢ ) ، وذكر الذين اذا صدعتهم المشقات او افلت منهم الحظ العاجل انقلبوا على وجوههم منتكسين : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيـــا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . » ( الحج ١١ ) ، وشأنُ المؤمنين الصابرين الذين يحدوهم رجاء وطيد لا يتخلف مهما تعذرت الحظوظ الدنيا : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعـلون إن كنتم مؤمنين . » ( آل عمران ١٣٩ ) ، « ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجـــون وكان الله عليماً حكيماً . » ( النساء ١٠٤ ) .

ومن هذا المعنى أيضاً تسلية الرسول ﷺ عن شدة صدود الكفار برغم اجتهاده في الدعوة اذ ما كان عليه الا ان يفرغ جهده في التبليـغ ويمضي فيـه لا يبالي ولا ييأس فالله يتولى النتائج : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليـك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك إنما انت نذير والله على كل شيء وكيل . » ( هود ١٢ ) ، « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . » ( النحل ٨٢ )

• • •

واذا كان في الصبر وحسن الرجاء حصن يستعصم به المؤمن من أن يفقـد رشده حين يهجمـه الشر فإن في الشكر للمؤمن كذلك وقاية من أن يقع عليه الخـــير فيستطيره الفرح والغرور حتى يطغيه وينسيه . ولقـــد عرفنا معنى الشكر حادياً للعمـــل في سبيل الله ، فلننظر في معناه ضابطاً لجنوح النفس واستبدادها بالبطر والاختيال لئـلا تركن الى اوهامها وتنقطع عن العمـــل

الصالح ، وسنعود الى معنى الشكر في موضع قادم ناهياً عن الطغيان والعدوان.

فقد جُبل الانسان على قصر الهم والنظر اذا أدركه النجاح – وتمت له نعمة في الدنيا – امتلأ فرحاً ووطن نفسه على المتعة حتى يلتهي عن كل غاية وراء هـا وينسى سائر مقاصد الحيـاة الرشيدة وتراه غافلاً عن خوف زوال النعمة مغروراً بهـــا ، فإذا زالت عنه ارتد كما قدمنا الى القنوط واليأس. ولكن المؤمن واحد مذهبه موصول عمله عبر السرّاء والضرّاء فاذا مسّه الخير مهما كانت فجاءته وضخامته انضبط وفقاً لمعايير الايمان وقدر فيه معنى الفضل من الله والاستخـلاف والابتلاء فالتزم مقتضى الشكر واستقـام على طريقته لا ينتهي ولا ينحرف .

وهكذا يتحدث القرآن عن خلق الانسان بفطرته الأولية : « وإذا مسَّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه قاعداً أو قائماً فلمـا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا الى ضرّ مسّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . » (يونس ١٢) ، « ولئن أذقنا الانسان منّا رحمـة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء مسته ليقولن ذهب السـيئات عني انه لفرح فخور . الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير . » ( هود ٩ – ١١ ) ، « لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن السـاعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونآ بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض . » ( فصلت ٤٩ – ٥١ ) .

ويكرر القرآن الوصاة والتذكير للعباد ألا تغرهم الحياة الدنيا أو يلهيهم متاعها : « وما هذه الحيـاة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخـرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون . » ( العنكبوت ٦٤ ) ، « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالـكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . »





( المنافقون ٩ ) ، « ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . » ( التكاثر ١ – ٢ )

• • •

ويتقـوى الشكر بالخوف كما يتقوى الصبر بالرجاء ، فالذي يحفظ للمؤمن وقاره وثباته لدى السرّاء والذي لايجعل للدنيا سبيلاً الى استخفافه هو اليقين بأن متاعها عرض زائل مشوب بالنكد لايؤمن له بقاء ولا يطمأن اليه والعلم بأن متاع الآخرة خير وأبقى وأجدر بأن تستشرف اليه النفس وترجـوه وتتعلق بمناله : « ... وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحيـاة الدنيـا في الآخرة إلا قليل . » ( الرعـد ٢٦ ) ، « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور . » ( الحديد ٢٠ ) .

واذا رسخ الايمان بالآخرة والرجاء في نعيمها والحذر من نعيم الدنيا استقر المرء على نهج واحد واضطرد عمله على نمط واحـد وبلغ ابعد الأشـواط في مسعاه لأنه لايتوقف ولا يميل . اما اذا ركن الانسان الى آمال الدنيـا فإنه معرّض في كل حال للارتكاس والانتكاس من ضرّ يصيبه بالخيبة فيوئسه او نعماء تبطره فتثقله وتلهيه ، ثم يوهمه الشيطان شتى الأوهـام فيحسب ان الخير مستحق محتكر له بقدرته وعلمه ناسياً ان احوال الدنيا اقدار يداولها الله بأسباب حكيمة دقيقة ، ويمنيه الأماني فيظن الخير مضموناً له على وجه الخلود والحظ مواتياً له في مستقبله كما واتاه في حاضره ، وهكذا تؤدي به النعمة الى الضلال والاستغناء عن مواصلة العمل الصالح . ذلك هو شأن الانسان اذا اعوزه الايمان وفتنته النعيم : « ... ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم وما يعـدهم الشيطان إلا غروراً . » ( النساء ١١٩ – ١٢٠ ) ، « ذرهم يأكلـوا ويتمتعوا ويلههم الأمـل فسوف يعلمون . » ( الحجر ٣ ) ، « فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة

منـا قال إنما أوتيته على عـلم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . »
( الزمر ٤٩ ) .

وقد لا يسلم المؤمن من بعض دواعي الغرور تجره عليه نفس اعمال الطاعة التي يتعهدها ، فقد يخيل اليه انه قد أوفى العمل حقـه وأتم الاحسان وانه مستغن بعدها عن الدأب والسعي . ولكن دواعي الايمان تذكره دائماً بأن نعمة الله عليه أجـلّ من ان تحصى وشكره اكبر من ان يوفى فينهض مستأنفاً سعيه دائباً مجدّاً ليفي بأقصى ما يستطيع . فإذا صدق حبه لله تعاظم التذاذه بالعمل كلما تعاظم جهده المبذول ، وما توسوس له النفس بأن قد كدّس من الأجور ما يغنيه الا دفعه الحذر من عذاب الله . ولا يأمن القاعد من عذاب الله لأن الانسان ما يكف عن فعـل الحسنات الا كان اقرب الى اكتساب السيئات التي تعقبه حبطاً .

ولذلك يعلمنا القرآن ان العبد لا يبلغ الكمال ولو في العبودية وان اجـلّ اعماله الخيرة انما تقربه الى مثل الايمان تقريباً : « ... اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بمـا تعملون . » ( المائدة ٨ ) ، وكان الرسول ﷺ يجتهد في العبادة وقد غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر لعـله يفي بحق الشكر لربه ( البخاري ) .





# الفصل الثاني

## أثر الايمـان في نظـام الحيـاة

## ( أ ) تأسيس الجماعة المؤمنة

كنا نعالج في كلامنا المتقدم اثر الايمان في ترقية حياة الفرد ، والآن نعطف الكلام على فعل الايمان في تنظيم الحياة ، وننظر ابـدئه كيف تعمل العقيدة الدينية في تأسيس الجماعة وتوثق اسباب الوحدة بين المؤمنين ، حتى لا تختلف منازعهم الفكرية او تشتجر مسالكهم العملية فتتناسخ الاعمال وتذهب الجهود بدداً ، ومن اجل ان تتواكب جزئيات الكسب الفردي مندرجة في الوجهة الكلية وتتبارك على الصعيد العام فتبلغ اضخم الاقدار وتؤدي الى اعظم الثمرات ، ثم ليتمتع كل فرد في المجتمع بروح الوفاق الطيبة فتسعد نفسه ويسلم من شقاء الشقاق الماحق ويزكو معنى عضويته في المجتمع.

وانما تأتلف الجماعة المؤمنة لمواقف تقوم بنفوس المؤمنين تدعوهم للاخاء والتماثل والتوالي والاعتزاز بأمرهم المشترك . وينتصب من فوق ذلك هدف واحد للحياة الدينية يوحد شأن المؤمنين يتوخونه من حيث هم افراد ومن حيث هم جماعة . فالحياة عند المؤمن عبادة يرجو ان تلقيه ربه في نهاية المطاف فيدخل في رحمته . وليس غرض الجماعة إلا تمكين الافراد من احسان عبادة الله واعظامها . ثم تقوم الشريعة بين المؤمنين بياناً لنهج الحياة المعروف وفصلا فيما شجر بينهم بحكمة وعدالة .

وسنعرض اولاً لمعاني الايمان الداعية لتأسيس الجماعة ثم ننظر في علاقة

الفرد والجماعة في رحاب الايمان . اما ما يقتضيه الايمان من نظم عملية تكفل وحدة المؤمنين ومن ولاية عامة تصرف الشئون وتبسط السلطان نيابة عنهم فتفصيل امره في مواضع قادمة .

### ١ – الاخاء :

اول مشاعر القربى التي ينميها الايمان بين المؤمنين ينبعث من وحدة الرب المعبود ، فالمؤمنون يستشعرون إخاء عظيماً باتجاههم نحو محور واحد للعبادة : « إنما المؤمنون إخوة ... » ( الحجرات ١٠ ) . فعقيدة التوحيد ذات مغزى كبير في توحيد المؤمنين ، اذ حين يتخذ النـاس ارباباً متفرقين يورثهم ذلك احساساً بأنهم طوائف متباينة لكل حزب وجهـة هو موليها . ولا ينفك الناس بالطبع من معبود يتوجهون اليه ، فإذا جحدوا الايمان اتخذوا آلهة من الأرض وتفرقوا عليها بحكم التبـاين في ظروفهم الأرضية المحدودة ، وذلك يؤدي بهم الى شقاق بعيد يلفون الدواعي اليه في ذات وجدانهم لأن العبادة تستلزم فطرة وطبعاً معنى التجرد والاقتصار على المعبـود من دون الآلهة الآخرين , وما إله واحـد كأرباب متفرقين : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمرَ ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر النـاس لا يعلمون . » ( يوسف ٣٩ – ٤٠ ) . وحتى لو ان الناس استنكفوا عن الآلهة الغيبية كلها لاتخـذوا من اهوائهم الذاتية آلهة معبودة وقعوا في اسرها وتمزقوا بها كل ممزق ، وان اهواء الافراد لأشد الاشياء تبايناً واغراها بالشقاق واضراها فيه . فعقيدة التوحيـد هي عمود الايمان وهي في ذات الوقت ضمانة الاخاء الوثقى : « . . . ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . » ( الروم ٣١ – ٣٢ ) .

وفضلاً عن الاخاء الوطيد الذي يستشعره المؤمنون بالتوجه الى الله الواحد



فإنهم يحسون كذلك بالرفاقة الوثيقة بين البشر في اطوار الوجود واحـوال الحياة – انهم مهما فرقتهم اقاليم الأرض واوضاع الواقع سلالة من طينة واحدة ونسل من أب وأم طرحوا في مستقر مشترك ليحيوا حياة جوهرها واحـد هو الابتلاء والمتاع الى اجل ثم ينتهون عبر الموت الى نفس المصير – يجمعون بعد النشور في مقام الحشر والحساب ثم في مواقع الجزاء حيث يحشر المؤمنون وفدا واحدا الى جنة المدن ويساق المجرمون وردا واحدا الى الجحيم والعذاب المقيم . وتلك المعاني هى الحلقات الأساسية في قصة الوجود الانساني يستيقنها المؤمن فلا يرى الناس على اختلافهم الظاهر الا ابناء اصل واحـد صنعوا من ذات المادة وانحدروا من نفس السلالة وانزلوا اجمعين في قطر الوجود الارض واقيموا على مفترق نجدين في الحياة – إما ان يستجيبوا لميثاق الإيمـان في فطرتهم فتسعفهم الرسالات وتثبتهم الملائكة او ينقضوا عهـد الله فيضلوا بأهوائهم تؤزهم الشياطين أزا .

ويجد المؤمن نفسه اقرب نسبا الى المؤمنين لأنهم داخـل إطار الأخوة الطبيعية البشرية اختاروا طريق الإيمان فأسسوا بإرادتهم المختارة عقـد اخوة خاصة ينتظمون به في الدنيا في سلك واحد وينحازون به يوم الدين الى مقام واحد يوم تصدع الخلائق بين هالك وفائز .

ولا يعلم الناس بغير الإيمان الا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فوحدة الطبيعة في حسبانهم لا تتجاوز الوشائج الفطرية المباشرة كوحدة الإقليم أوالعرق او اللون ، ووحدة الرأي عندهم رهن باتفاق الأهواء المتقلبة . ولذلك لا تنبني اخوتهم الاساسية إلا في حدود فطرية ضيقة منعزلة لا مدخل فيهـا لسائر الناس ولا تتسع اذا عدلتها رحابة الوعي الا على قاعدة مضطربة اضطراب اهواء البشر .

ومن هنا وقع النـاس حيثما ضلوا عن الدين الصحيح في أسر العصبيات الطبيعية التي تمليها غريزة القطيع والتي ينحصر مداهـا في جماعات مقصورة بحكم الظروف الفطرية ولا تعرف لمن هم دون القطيع الا المجانبة والعداء . بل

ان الديانات التي غلب عليها الوضع او انطبعت بأثر من أهواء البشر انحدرت الى الغرور العنصري ( اليهودية) او الطائفية ( الهندوكية ) ، او التفرقة اللونية ( المسيحية ) . أما المؤمنون فتجمعهم طراً كلمة الايمان في أمة واحدة لايُنفى عنها مؤمن مهما شذ في وطنه او جبلته او وضعه ولا يلحق بهـا كافر مهما ناسب المؤمنين او واطنهم : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . » ( الأنعام ٥٢ ) ، « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . » ( التوبة ٢٣ )

فعنصر الاختيار الحر يميز رابطة الايمان بالرحابة لأن غالب العصبيات الطبيعية جامدة بحكم الحدود والاوضاع الطبيعية لا مجال فيها للحركة والاتساع بينما تستوعب جامعة الايمان كل مستجيب مهما كان اصله او ماضيه ولا تجعل دخوله مشروطاً بإذن الذين سبقوه بل الأمر بيده متى شاء : « ... فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين . . . » ( التوبة ١١ ) . فالإيمان يدعو للنظر الى سائر الناس نظرة عطف وتقبل تبسط اليهم اليد بالدعوة الحسنة فكلهم أهل لما يرجى فيهم ان يؤولوا الى صف المؤمنين ، بينما تدعوا العصبية لنبذ العداء الى الآخرين لأنهم جبلوا على خلاف لا يتبدل ولا يرجى منهم رجاء .

وبناء أخوة الايمان على الارادة يكسبها ايضاً قاعدة اوسع من مدى الاتفاقات المصلحية التي تربط بين الناس حينما تكون الغايات المادية هي مبلغ علمهم والأغراض العاجلة اكبر همهم . ذلك ان المصلحة لا تجمع بين جماعة الا لتنصبها في عداء مستحكم ضد آخرين لأن طيبات الدنيا لا تتسع لمطامع البشر اذا لم يروض شهوتهم الدين بما يعدل بينهم في الدنيا ويوجههم الى رغائب الآخرة : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين



قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم . » ( الانفال ٦٣ ) ، « والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . » ( الحشر ٩ ) ، « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ( البخاري ) .

ومما تختص به الرابطة الدينية ثباتها على تبدل ظروف الحياة : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . » ( الحشر ١٠ ) . فالعصبيات المغلقة عرضة لتبدل الظروف الفطرية الاولية التي انبنت عليها لأن تمايز الاجناس والألوان قد ينمحي بالتزاوج والاختلاط وتباين انماط العادات والاوضاع الاجتماعية يتبدل بتطور الحياة واستقلال الروح الاقليمية يتلاشى بالمهاجرة والمواصلة . اما الراوبط المصلحية المباشرة فهي كذلك تؤول الى انفصاض حالما تتبدل العناصر الظرفية التي وفقت لأول الامر بين المصالح .

• • •

ويدعو الدين الى الايمان بشريعة واحدة هي الهدى الذي شرعه الله لعباده والنهج الحق في الحياة كل ما بعدها ضلال . ولهذا الاعتقاد اثر عظيم في دعم مقومات الجماعة المؤمنة التي ترتكز الى سائر شعاب العقيدة . فإذا كانت الجماعة المؤمنة تستفيد من عقيدتها معنى الاخاء فإن الشريعة تؤكد ذلك المعنى بطبيعتها العامة ثم بمبادئها واحكامها الفرعية .

فالشريعة الدينية تعاليم صادرة عن الله تكسبها طبيعتها الربانية سلطاناً مطلقاً على النفوس فيعزز الإجماع عليها ما بين المؤمنين من وشيجة العقيدة . ولو كانت من وضع البشر لكانت صادرة عن اختلاف آرائهم وتناقض أهوائهم ولكانت قابلة للنقد والنقض ولم يسلّم لها جميع رعاياها بالرضى والإذعان . وإنما تصدر الشريعة عن رب فرد صمد وتقوم كلها ترجمة لمقتضى العبادة لله في

واقع حيـاة الإنسان ، فهي من ثم احكام شاملة متكاملة لا انثلام فيها ولا اختلاف ، والجماعة التي تهتدي بها مجموعة الشمل تتم وحدتها بوجه لا تكفـله ابدا المذاهب الوضعية ، فمذاهب البشر بطبع مصدرها تحمل في طياتها التناقض والاختلاف وبحكم جدودها لا تعالج الا بعض نواحي الحياة . فالمجتمع الوضعي في جمـلة كيانه قائم على تركيب من النقائض وتلفيق من شتات المذاهب – متنازعة المفارقات وتتشقق حياته فتتوتر منها علاقات افراده وتكون قلوبهم شتى وجهودهم مبعثرة

ثم إن الشريعة تؤيد داعية الإيمان للأخوة بأحكام فرعية مباشرة تندب المؤمنين الى التحابّ وتضع بينهم آداب العشرة التي تحفظ ودّهم وتنفي عنهم اسباب القطيعة ومكدرات ذات البين : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيـه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم . » ( الحجرات ١٠ – ١٢ ) ، « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » ( البخاري ) .

فإطباق المؤمنين على شريعة واحدة متحدة المعاني يورثهم وحـدة متينة لا تنتقض تتحد بها اتجاهات فكرهم وسعيهم في سلك واحد وتتحشد جهودهم في جهد واحد لأن الشريعة بينهم هي الدستور الذي يحدد خط الحياة ويحكم السلوك والعمل : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ... » ( آل عمران ١٠٣ ) . وقد ذكرنا قبلا كيف يؤدي الالتزام بصراط الشريعة المستقيم الى





اضطراد عمل الفرد حتى تربو ثمرات جهـده وتتبارك الى اضخم الاقـدار ، فحين يُجمع الافراد قاطبة على ذات النهج ويوحدون جهدهم في كنف الجماعة يحصل من كسبهم المتوافق اثر جليل في الحيـاة . ثم ان المؤمنين فضلاً عن رقي الحياة ووفرة الخير فيها يجدون من هـذا التعاون والوفاق أثراً طيباً في نفوسهم إذ ينعكس فيها إخاء وودا يشتد كلما توثقت اسباب التعاون العملي ، ثم تعود تلك العاطفة فتضاعف دواعي التعاون والوفاق .

ولمـا كانت الشريعة محكمة خالدة لاتنتسخ مهما تغيرت الظروف فإن آثار التعاون والإخاء التي تحدثهـا تظـل باقية عـبر الأجيال بينما تلتئم وتنفض الجمـاعات المؤسسة على مذاهب البشر : « شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » ( الشورى ١٣ ) .

وسيكون لنا عود بإذن الله الى الخصائص التي تتميز بها رابطة العقيدة والشريعة عن سائر أنماط الاجتماع البشري .

٣ – المـوالاة :

من خصائص أخـوة الايمان أنها تدعو صاحبها الى شدة موالاة المؤمنين والى التجرد عن العلائق الأخرى . فنشأة الأخوة عن إرادة حرة تستتبـع اعتناء المرء بها واتخاذه منها موقف وعي وايجاب ، فتراه يعبر عنها بالموالاة الفعلية للمؤمنين وينشط للعمـل معهم ومن أجلهم ولا يكاد يكون في واقـع الحياة الا بهم كأنهم استكمال لذاته او بعض من ابعاد نفسه : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحـد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» «والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ( البخاري ) .

ويزدوج معنى الموالاة في أخوة الإيمان مع معنى التجرد عن كل ولاء آخر لأن معاني الإيمان تملأ النفس ولا تبقي فيها بقية . وقد اسلفنا الذكر في شأن

التوحيـد وأثره في تخليص النفس من شوائب الاشراك وتجريدها لعبودية الله وتسليمها من التشقق والمنازعة ، كما بينا صفة الشمــول التي تتخذها الآثار العمليـة للايمـان . فمن الواضح – مادام ذلك كذلك – ان أخـوة تبنى على الإيمان تمتاز بصفاء خالص لايلابسها ميل او هوى آخر . وإنما الإيمان الصادق أن يجعـل المرء ولاء الدين فوق كل نسب أو عصبية وحاكما لكل علاقـة : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آبائكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . » ( التوبة ٢٣ ) . فالمؤمن بما يحب ربه ويرجو مرضاته لايوالي عبدة الطاغوت الذين يحـق عليهم غضب الله ، وهو بمـا يشكر الله لايوالي من يكفره ، وبما يؤمن بلقـائه يوم البعث لايوالي من ينكر البعث والجزاء : « يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحـــاب القبـور . » ( الممتحنة ١٣ ) ، « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون . » ( المائدة ٨٠ – ٨١ ) . وإنما ولاء المؤمن لمن يماثلونه في نهج الحياة ، لايفتنه عن ولائهم أن يراهم على حال من المسكنة أو أن ينتفخ الكفار جاها وتعاظما: « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . » ( الكهف ٢٨ ) . وكلما تمكن الإيمـان من النفس تلاشت فيها وفنيت سائر الصلات والعلائق حتى إذا كمل الإيمان تبرأ الانسان من كل ولاء وسلم بكل عاطفة لاخوانه المؤمنين .

وقد لايتحرك أخو العصبية الفطرية بعاطفة فعالة ووعي إيجابي نحو إعمار علاقته بأهله لأن العلاقة بهم موضوعة عليه بحكم الطبيعـة ليس له فيها الا السلب والركون ، ولا يكاد يشذ عن ذلك الموقف الساكن الا اذا اشتـدت فيه روح العداء ضد الآخرين والدفاع عن وجود جنسه . أما التحزب المذهبي



فالغالب فيه أن يكون مقصوراً مداه قصور المذاهب البشرية ، وقد ذكرنا من قبل أن الفكر الوضعي كله محدود بحدود البيئة التي ينشأ فيها لأنه رد فعل الانسان على ظروف المكان والزمان .

ولا يكاد ولاء العصبية أو الحزبية يستغرق الانسان حتى يكفه عن كل ولاء آخر – لأن الأول كما قدمنا عاطفة أولية مبسطـة محدودة لاتشبـع تطلعات الانسان ولا تستولي على همومه عدا روح الغرور والعـــداء ، ولئن كان الثاني أوسع مجالا وأشمل لشئون الانسان فهو كما قدمنـا أيضاً لايشملها ولا يحتويها جميعا . ولذلك بينما يتعصب المرء ويتحزب بجانب تراه فيما سواه خاضعاً لشتى الولاءات . إلا المؤمن فإنه – متى استوعب معاني الايمان – يرى نفسه طرازاً مستقلا من دون الناس ويرى جماعته المؤمنة صنفاً متميزاً في كل شأن بأوسع الوجوه وأشملها ، فلا يملك بعد تميزه ذاك ان ينضـاف في شيء الى غير المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أوليـاء بعضهم أوليـاء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ان الله لايهدي القــوم الظالمين . » ( المائده ٥١) .

• • •

وتتأكد جامعة الولاء بين المؤمنين بوحدانية الشريعة التي يعتصمون بهـا متوجهين الى ذات المقاصد الشرعية متعاونين على تحقيقها : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . » ( المـائدة ٥٥ ) ، « والمؤمنون والمؤمنـات بعضهم أوليـــاء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم . » ( التوبة ٧١ ) . وأول ما يقتضيه الدين أن ينحـــاز المؤمنون الى صف متناصر دون الكافرين : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . » ( آل عمران ٥٢ ) . واول

التوحيـد وأثره في تخليص النفس من شوائب الاشراك وتجريدها لعبودية الله وتسليمها من التشقق والمنازعة ، كما بينا صفة الشمــول التي تتخذها الآثار العمليـة للايمـان . فمن الواضح – مادام ذلك كذلك – ان أخـوة تبنى على الإيمان تمتاز بصفاء خالص لايلابسها ميل او هوى آخر . وإنما الإيمان الصادق أن يحمـل المرء ولاء الدين فوق كل نسب أو عصبية وحاً كما لكل علاقـة : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آبائكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . » ( التوبة ٢٣ ) . فالمؤمن بما يحب ربه ويرجو مرضاته لايوالي عبدة الطاغوت الذين يحـق عليهم غضب الله ، وهو بمـا يشكر الله لايوالي من يكفره ، وبما يؤمن بلقـائه يوم البعث لايوالي من ينكر البعث والجزاء : « يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحـــاب القبـور . » ( الممتحنة ١٣ ) ، « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون . » ( المائدة ٨٠ – ٨١ ) . وإنما ولاء المؤمن لمن يماثلونه في نهج الحياة ، لايفتنه عن ولائهم أن يراهم على حال من المسكنة أو أن ينتفخ الكفار جاها وتعاظما: « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . » ( الكهف ٢٨ ) . وكلما تمكن الإيمـان من النفس تلاشت فيها وفنيت سائر الصلات والعلائق حتى إذا كمل الإيمان تبرأ الانسان من كل ولاء وسلم بكل عاطفة لاخوانه المؤمنين .

وقد لايتحرك أخو العصبية الفطرية بعاطفة فعالة ووعي إيجابي نحو إعمار علاقته بأهله لأن العلاقة بهم موضوعة عليه بحكم الطبيعـة ليس له فيها الا السلب والركون ، ولا يكاد يشذ عن ذلك الموقف الساكن الا اذا اشتـدت فيه روح العداء ضد الآخرين والدفاع عن وجود جنسه . أما التحزب المذهبي





فالغالب فيه أن يكون مقصوراً مداه قصور المذاهب البشرية ، ولقد ذكرنا من قبل أن الفكر الوضعي كله محدود بحدود البيئة التي ينشأ فيها لأنه رد فعل الانسان على ظروف المكان والزمان .

ولا يكاد ولاء العصبية أو الحزبية يستغرق الانسان حتى يكفته عن كل ولاء آخر – لأن الأول كما قدمنا عاطفة أولية مبسطـة محدودة لاتشبـع تطلعات الانسان ولا تستولي على همومه عدا روح الغرور والعـــداء ، ولئن كان الثاني أوسع مجالا وأشمل لشئون الانسان فهو كما قدمنـا أيضاً لايشملها ولا يحتويها جميعا . ولذلك بينما يتعصب المرء ويتحزب بجانب تراه فيما سواه خاضعاً لشتى الولاءات . إلا المؤمن فإنه – متى استوعب معاني الايمان – يرى نفسه طرازاً مستقلا من دون الناس ويرى جماعته المؤمنة صنفاً متميزاً في كل شأن بأوسع الوجوه وأشملها ، فلا يملك بعد تميزه ذاك ان ينضـاف في شيء الى غير المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أوليـاء بعضهم أوليـاء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ان الله لايهدي القـــوم الظالمين . » ( المائده ٥١ ) .

● ● ●

وتتأكد جامعة الولاء بين المؤمنين بوحدانية الشريعة التي يعتصمون بهـا متوجهين الى ذات المقاصد الشرعية متعاونين على تحقيقها : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . » ( المـائدة ٥٥ ) ، « والمؤمنون والمؤمنـات بعضهم أوليـــاء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم . » ( التوبة ٧١ ) . وأول ما يقتضيه الدين أن ينحـــاز المؤمنون الى صف متناصر دون الكافرين : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهـد بأنا مسـلمون . » ( آل عمران ٥٢ ) . واول

ما يقتضيه الإيمان على المؤمن في حياته العامة بعد ان يشهر كلمة العقيدة ان يبادر لتصديق ذلك بدخول فعلي في ولاء المؤمنين من اجل اقامة شأن الدين وتمكين الشريعة في واقع الحيـاة . ولعل احـق تعبير المؤمن عن الموالاة هو الهجرة او الانحيـاز – ينسلخ المؤمن من حيز الكفار وينخرط في جمـاعة المؤمنين – ثم الجهاد يجمع بأسه الى بأس المؤمنين في سبيل إحقاق الحق وإعلاء كلمة الله : « الذين آمنـوا وهاجروا وجاهدوا في سبيـل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم . » ( الأنفال ٧٤ ). ثم لاينبغي للمؤمن بعد ان يخرج على الجماعة او يشذ عن اجماعها ويتنكر لولائها : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً . »( النساء ١١٥ ) . فمن لم يستكمل ايمانه بموالاة الجماعة المؤمنة لم يكن له ان يستوفي حقه على الجمـاعة كاملاً : « ... والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ... » ( الأنفال ٧٢ ) .

فبأثر من الايمان ترسو عاطفة الموالاة الفعـالة في نفوس المؤمنـين فتقيم الشريعة على قاعدة منها صرح الجماعة بشتى الأحكام العملية – تؤسس النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة والتعبـدية وتفصل قواعـد السلوك التي تناسبها . فالجماعة المؤمنة مدعوة لان تقيم على شئونها العـامة ولاة يوحدون مركز ولائها السياسي ينتخبون بالبيعة العـامة ويحكمون بالشورى ، وهي مأمورة بأن تشيع الائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر ، واذا لزم الجهاد قاتلوا جميعاً كالصف المرصوص . واقتصاد المؤمنين يقـوم على الاشتراك في المرافق العامة ثم على انفاق المال وتوزيع الثروة ، فالفرد يعول من يليه بالنفقة الواجبة ، والجماعة تكفل للمحتاج حاجاته الاساسية وتتعاون في الوفاء بسائر حاجاته . بل إن العبادات التي يختص فيها المؤمن بالتوجه الى ربه ويزكي بها نفسه تتضمن في نظامها أعمالاً جماعية وتربية تؤكد التولي بين المؤمنين . ولا يكاد المرء يحصي توجيهـات الشريعة الفرعية التي تدعو الى التعاون والتناصر





وإلى اتقـاء الفرقـة ورفع الخصومات وتبين آداب التعامل والتزاوج والحوار واللقاء والكلام وغير ذلك من الشئون العامة .

٣ – المساواة :

يتماثل الناس في نظر الدين في مبدأ انسانيتهم لأنهم يصدرون في الخلق عن أصل واحد ويمثلون جميعاً في مقـام العبودية الطبيعية لله ، فهم سواء بعضهم من بعض لا فضل لاحد على احد من حيث جوهر وجودهم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ... » ( النساء ١ ) . وإنما يتمايز النـاس بعد ذلك بمواقفهم من عبودية الاختيار ، فمنهم من يؤمن بالله ويختار أن يحتكم إلى أوامره الشرعية طوعا فيما أتيح له من حرية المشيئة ، ومنهم من يكفر ويعدي الله في هـذا المجال وإن كان لايملك أن يخرج عن حكم أوامره الطبيعية الجبرية . فإنما بدأ الله الناس من قاعدة استواء ثم أقام موازين التفاضل حينما طرح أمامهم مراتب الرقي والانحطاط ووكل أمرهم في ذلك إلى اختيارهم ومشيئتهم الحرة : « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير . » ( الحجرات ١٣ ) .

هكذا تتميز موازين الاستواء والتفاضل في الدين عنها في التقدير الوضعي. فكثير من الناس لايعترف باستواء البشر في أصـل الوجود والطبيعة ، بل يتخذ معـايير التفاضل من أوضاع الطبيعة البشرية ذاتها صادراً عن عصبية اللـون او العرق او اللسان او سائر مقومات التعصب الفطري ، او يتخذها من خصائص الاجـتماع كقومية اللغة والوطن او من اوضـاع المجتمع كطبقية النبلاء والأغنياء والفقراء . وينعدم مجـال الاختيار والكسب في ذلك كله أو يضيق ، لأنهـا خصائص يولد عليهـا المرء او تغلبه فيها قوانين الحيـاة الاجتماعية . أما فوارق الطبع والميلاد فهي من خلق الله ، وحق الإنسان أن يتأمل منها وجه الحكمة والاعتبار لا أن يتخذها سبباً للغرور والفقر . وأما الأوضاع الاجتماعية فمهما يكن نصيب الكسب فيها انما تمثل بفوارقها على وجه

الضبط مقادير الكسب لا مزايا الخير ، وهي حظوظ دنيا يقسمها الله بأسباب معقدة وحكمة دقيقة وليس في بسط أنصبتها وتقديرها دليل التفاضل عنده تعالى سوى أنها عناصر ابتلاء تطرح أمام الناس ليتصرفوا فيها باختيار بناء على مواقفهم الكلية من قضية الإيمان ومقامات قربهم الى الله . وفي هذا الاختيار يقع التباري وعليه يترتب التفاضل : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون . » ( سبأ — ٣٧ ) . وفي قصة نوح مع قومه عبرة — إذ ارادوا أن يحاكموه فيمن اتبعه الى موازينهم هم للفضل وأراد ان يهديهم من قيم الجاهلية الى ميزان الحق : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . » ( الشعراء ١١١ — ١١٥ ) .

أما الذين آمنوا فأولئك تماثلوا واستووا طبعاً واختياراً — إذ هم أشقاء اعتقاد واحد يتكافؤون به — أحمرهم وأسودهم وعربيهم وعجميهم وشرقيهم وغربيهم وغنيهم وفقيرهم . وإنما يتفاوت المؤمنون في مراقي الإيمان من بعد هذا المبتدأ السوي ، فيسبق الذي هو أزكى نفسا وأقرب للتقوى . وقد يحتاج المؤمنون لاتخاذ المعايير الظاهرة لتمييز مراتب الصلاح الديني من أجل تطبيق الأحكام الشرعية او إجراء المعاملات والآداب التي يراعى فيها تفاضل درجات الدين . ولكن الدين في حقيقته امر باطني يقوم بالنفس لايعلم دقائقه ولا يقدر حسابه إلا الله ، ووجوه التدين الظاهرة قد لاتمثل تلك الحقيقة أو لاتدل على مدى التفاضل فيها ، ولذلك لاسبيل للبشر إلى الوقوف على أنصبة الناس الحقيقية من التقوى إلا حين توضع الموازين القسط يوم القيامة . فإذا اضطر المؤمنون في حياتهم الدنيا إلى تقدير مراتب دين الأفراد لتقرير الأهليات والحقوق ولتقديم بعضهم على بعض في الولايات والمعاملات فإنهم — مهما ضبطوا موازين الكسب الدنيوي من قوة وعلم — عاجزون عن سبر الأغوار الدينية للنفوس وقياس التفاضل بينها — ليس لهم بذلك سلطان .





« يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ... » ( الحجرات ١١ ) .

وفي عقيدة التوحيد معنى يعصم المؤمنين من ان تفشو فيهم دواعي التفاضل بغير حق . وذلك ان المؤمن إذا أسلم الربوبية لله واسند اليه وحده العظمة والكبرياء لايرى من بعد حقاً له في التعالي على احد هو نده في العبودية للعلي الكبير . كما انه لايرى لأحد سوى الله حقاً في الطغيان عليه ، ولئن ذلّ لإخوانه المؤمنين سماحة وإيثاراً فإنه لايذل خزيا ولا ضاعة ولا يفرّط في استيفاء حقوقه في الحياة بما يحفظ له كرامته الإنسانية وحريته في اتخاذ سبيله الى ربه والمنافسة فيها .

ولذلك تظل روح التكافؤ والاستواء بين المؤمنين مركوزة في وجدانهم مستصحبة في معاملاتهم سائدة في حياتهم . بل ان معايير الترجيح التقريبية الظاهرية التي تقام بين الأفراد لتقدير درجة الفضل يكون لها أثر عملي طيب في إشاعة المساواة والوئام لأنها ترمز الى مجالات التنافس المعتبرة في المجتمع المؤمن ، فإذا توجه المؤمنون الى التسابق فيها عظموا قدر العلم والصلاح والتقوى مما يثمر يوم الدين وزهدوا في المنافسات الشرسة على المال والجاه وسائر متاع الدنيا الذي يفرق الناس ويوغر صدورهم بالغل ويخرب حياتهم بالشقاق لأنه متاع محدود لايتسع لطامعيه جميعاً إلا ان يغريهم بالحسد والتظالم. وإنما شأن المؤمنين ان يتنافسوا على العلم والعمل الصالح وان يعيشوا في تحاب مستشعرين المساواة في الدين لأن حساب التفاضل مؤجل الى يوم القيامة مطرحين اعتبارات التفاوت في الرزق والجاه لأن متاع الآخرة خير وأبقى واكبر درجات وتفضيلا .

● ● ●

وتتأكد دواعي المساواة والتماثل بين المؤمنين بإجماعهم على شريعة واحدة فلا تجد طائفة منهم سبباً لادعاء الفضل في نهج منفصل تختص به دون اخرى.

ثم ان الطبيعة الربانية للشريعة ترفعها فوق أغراض البشر الجزئية ومصالحهم الفئوية . فغالب الشرائع الوضعية تستند الى الفئة الحاكمة في المجتمع وتمثل بالضرورة مذاهبها هي في العلاقات العامة . أما الشريعة الإلهية فإنها تنزع حق الحكومة من البشر المستغلين وترد الأمر الى الله فيستشعر أفراد المؤمنين إزاءها المساواة المطلقة والعدل الكامل لأنها ليست من بعض أهل الأرض اصحاب المصالح والأغراض بل هي من لدن رب العباد الذي يرعاهم جميعا ولا يحابي أو يظلم منهم احدا « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ... » ( الحديد ٢٥ ) . وفي ظل هذه الشريعة يسعد الناس بمعاني المساواة – رعية وولاة وضعافاً وأقوياء – ويطمئنون من انقطاع التظالم فيتم لهم حسن الظن وصفو الإخاء .

وترسي الشريعة بأحكامها الفرعية كذلك اصول المساواة ، إذ تربي المؤمن على استشعار الكرامة وتنهاه عن التعالي والسخر من الآخرين وتنظم العلاقات الاجتماعية بما يقطع أسباب الظلم وغمط الحقوق . فالناس سواسية مهما كانت اصولهم وأوضاعهم – يستوون من حيث هم بشر في حرمة انفسهم وفي حرية اختيار الدين وفي الأخذ بنصيب مما اتاح الله من رزق وفي المشاركة في الأمر السياسي وفي موقفهم بين يدي العدالة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... » ( المائدة ٤٥ ) ، « ... فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... » ( الكهف ٢٩ ) ، « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ... » ( النحل ٧١ ) ، « ... وأمرهم شورى بينهم ... » ( الشورى ٣٨ ) ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ... » ( النساء ٥٨ ) .

### ٤ – العزة :

بينما يستشعر المؤمنون المساواة فيما بينهم على اصل الايمان ويكلون التفاوت بعدها الى حساب الله يرون انفسهم بمقام الايمان فوق الناس جميعاً . فلئن كانوا





يردون البشر الى عنصر واحد ويسقطون تباين الاجناس والطباع واختلاف الاوضاع العرقية والاجتماعية ويعدون ذلك قسمة افقية يغلب فيها قدر الله ويصرفونها الى حكمة اجتماعية غير التفضيل المعنوي ، فإنهم يرون القيمة الحقيقية لمقامات الناس في تعبدهم لله طوعاً ويرون اقدارهم منوطة بمواقفهم من خيار الايمان والكفر . فأهل الايمان عندهم خير على الاطلاق من اهل الكفر ، اولئك يعبدون الله رفيع الدرجات بينما ينحط سائر الناس بشتى احزابهم وطوائفهم عاكفين على آلهة ارضية او على اهواء بشرية ، واين تلك التعلقات الهابطة من التطلع الى جناب الله والتوجه الى عليائه ؟ : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ... » ( فاطر ١٠ ) ، « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين . » ( الأنعام ٧١ ) .

وإذا نيط الترقي بالاختيار وقيست درجة الانسان بما يكسبه لنفسه او عليها فذلك كما قدمنا معيار انساني يمتاز بالرحابة والعدل – لانه يتيح مدارج الرقي لكل البشر على سواء – ويختص بالثبات والاستقامة لان اثره لا يبطل مهما تغيرت ظروف الطبيعة والمجتمع ولانه يضطرد فيميز اصل الايمان عن اصل الكفر ثم يميز من بعد درجات المؤمنين .

وهذا التصور الذي يجعل صفة الايمان مرتبة علو تسمو بالانسان فوق سطح التقسيمات والولاءات الاخرى – هذا التصور يورث المؤمن عزة واستقلالا . فالمؤمن يستنكف ان يوالي غير المؤمنين لأنه يتصور ذلك انحدارا من دركه الى دركهم : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً . » ( النساء ١٣٨ – ١٣٩ ) . وترى المؤمنين يتبرؤون من تقليد الكافرين ومضاهاتهم ولو

في محفزات الامور ، وتلفيهم اشد نفــورا من ان يذلوا لسلطانهم او يتبنوا ما يختص بهم من الاعراف والمذاهب : « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين . » ( آل عمران ١٤٨ ) .

بيد ان المؤمن لا يجرد الكافرين من مقتضى صفة البشرية التي يستوي بهـا بنو آدم جميعا ، ولا ينحو في ذلك نحو العصبيات الفطرية والمذهبية التي تكاد تسقط الاجنبي عنها من عداد الناس . فالمؤمن لا يضهد اخاه الانسان ولا يبلؤه بالعدوان ولا يحرمه حقوقه الاساسية . واذا وجد المؤمنون سبيلا على الكافرين عرفوا لهم كرامة الانسان وحقوقه وبسطوا اليهم يد العدل والبر ما استقام اولئك للمؤمنين ، لاسيما ان الناس كلهم اهل للدعوة والخطاب ليدخلوا مختارين في اخاء الايمان وعزته : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عـــداوة كأنه ولي حميم . » ( فصلت ٣٣ — ٣٤ ) ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . ( الممتحنة ٨ ) .

وهذه العزة هي مما يعصم اصحاب الدين من الانصهار والاندثار لأنهـــا لا تنفك عنهم مهما افتقروا واغتنى غيرهم او استضعفتهم قوته المادية القاهرة ، فأنفسهم عزيزة لا تنهضم ولا تنهزم ، تتحفز دائماً لرد التحدي وتحقيق معاني العزة والغلبة في واقع الحياة . ولو ان المؤمن انعزل وحده في مجتمع غريب واحاطت بـه الحياة الجاهلية لظل مستشعراً امتياز موقفه الديني معتزاً بـه عازماً على الاستمساك به بل تجـــده مجتهداً حتى تعلو كلمته وتسود قيمه . ذلك ان دعاة الهدى مسئولون عن سائر الناس وشهداء عليهم يوم القيامة : « وكذلك جعلنـــاكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على النـاس ويكون الرسول عليكم شهيداً . » ( البقرة ١٨٣ ) ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... » ( آل عمران ١١٠ ) .

● ● ●



وإذا نظر المؤمنون في طبيعة شريعتهم وقاسوها الى شرائع الناس ومللهم وجدوا هذه قاطبة — مهما كانت أسماؤها ومعانيها — من نتاج عقل وضعي منقوص وألفوا انفسهم على هدى من الله ، وكان لهم هذا الوجدان مبعث عزة عظيمة لأنه تحرير مطلق للإنسان من ان يطيع أمر بشر مثله وتكريم له من ان يركن الى بنات فكر البشر الحبـــالى بالنقائض والنقائص والتي تحدها ظروف البيئة وتطبعها الغرائز والأهواء . فالمؤمن يعتز بأنه حر كريم ويزهو بأنه مستمسك بحبل من الله بينما ينحط من دونه سائر الناس في ضلال هابط . ولئن اعجب كل ذي مذهب بمذهبه وبالغ في مزاياه وزعم له الكمال فإن ذلك كله لا يبلغ اعتزاز المؤمن بشريعته التي يرفعهـا فوق مراتب الفكر البشري كافة ويصلها إلى علـم الله وكماله : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون . » ( الجاثية ١٨ ) .

ويؤسس المؤمنون بالشريعة أمـة عزيزة يمثلون في نظام حياتهـــا معاني الشريعة التي تتميز وتعلو على كل نظام ويمنعونها بالقوة الصادقة من عـدوان العادين ، ويعود عليهم واقعهم المجيد بمزيد من مشاعر الاعتزاز . ومهما دالت الدولة للكفار وتقلبوا في الارض وبسطوا سلطان القوة والمـال فإن المؤمنين يوقنون باستعلاء شأنهم فينهضون لتحقيق ذلك في واقع الحياة مؤمنين ان الجهاد والانتصار للدين هو قدرهم في الابتلاء واثقين انهم متى ثبتـوا وصبروا كتب الله لهم العاقبة ومكن لهم دينهم ، فإن العزة لله ينصر من ينصره وإن جنـده لهم الغالبون : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعمـــلوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . » ( النور ٥٥ ) .

● ● ●

ولا عزة للمؤمن تجاه اخيه المؤمن فإنهم سواسية في ميزان الايمان لا تنحسم

منافساتهم في العمل الصالح او ينجلي تفاضلهم إلا في خاتمة الحساب يوم القيامة ، أما في الدنيا فالمؤمن مدعو بواجب الإخاء ان يذل لأخيه ويوطيء له كنفه . ولكن الذي يلازم المؤمن من معاني العزة في علاقته بالمؤمنين هو استشعار مسئوليته الفردية . فكل مؤمن على صلة خاصة بربه ليس عليه فيها حفيظ ولا يخضع فيها لسلطان غير الله ، وعليه كذلك مسئولية فردية امام ربه ينبني على ما يليه من تكاليف بقدر ما قسم الله من طاقة وفهم ليس له في ذلك من شفيع ولا يزر وزره احد . فالمؤمن له نوع استقلال بإيمانه وعمله .

ولقد بينا في موضع سابق اثر اختصاص المؤمن بمسئوليته في اطلاق حرية العمل والنهضة بلا مراعاة للمتثاقلين او اتكال على الآخرين ، كما بينا اثره في دوافع العمل لدى الحديث عن فردية الأجر في الآخرة . اما اثره على رابطة الجماعة فإنه لا يزيدها الا توثيقاً — إذ تتباين انصبة المؤمنين من العمل ومواقفهم في المجتمع ثم لا يتفاخرون بذلك بل يعدونه تكاملاً وتكافلاً كل يؤدي دوراً ويقوم على ثغرة ، وتتألف من جهود الجماعة حقيقة الدين الكلية في واقع الحياة ، ويوكل الى الله تقدير التفاضل وقسمة الجزاء عند لقائه .

### ٥ — الفرد والجماعة :

**تكريم الفرد :** يجعل الدين للانسان من حيث هو فرد قدراً كريماً يؤهله لمكانة معتبرة في كنف الجماعة ففي اصول الايمان ما يحفظ للانسان حريته الذاتية ويقدر له وضعه المعين وكسبه المتميز في الحياة ويضفي على وجوده الفردي مغزى مخصوصاً .

أما الحرية فإنها معنى اساسي في اعتبار الدين للانسان ، وذلك انه مخلوق فاضل على اشياء الكون المشهود — نفخ الله فيه من روحه فأكسبه قدرا من حرية المشيئة بينما ترزح الاشياء في وضع محتوم تحكمها فيه سنن لازمة ، وجعل له عقلاً وحاسة مدركة ليتمكن من تبين محيطه وتبصر عمله ولتتم له فضيلة الاختيار ، وهيأ له حياة ذات مغزى جليل لم يقدر لسواه — اذ نصبه في





مسرح الكون حراً ليبتليه أيهتدي الى ربه بالعمل عن علم ويتوجه إليه بعمله من إرادة أم يضلّ ويفسق ، وخاطبه بالتكليف المنزل ليسأله في مآل امره عما اكتسب لحياته الدنيا . فلا ينبغي للإنسان بعد هذا الوضع المكرم والقدر المخصوص ان يمتهن كامتهان الأشياء ، بل ان رعاية حرية الإنسان شرط كمال في تحقيق الحكمة المقدرة في خلقه .

وليس التدين بطبع يلقاه الإنسان جبرا من تلقاء الجبلة ولا حال تطرأ عليه من حيث لا يشعر او امر يوضع عليه كرها ، وإنما هو موقف يتخذه عن وعي ومذهب يسلكه بمشيئته الحرة . ولئن كانت دواعي الايمان تحيط بالإنسان من قبل فطرته التي أودع الله فيها اسباب الهدى وعقله الذي يكتشف دلالة الكون على خالقه ومن تلقاء الرسل الذين يبعثهم الله هادين ومنذرين ومبشرين ، فإن الهدى والعلم والتنزيل مهما تداعت عليه ورجحت عنده حجة الدين لا تقهره قهراً ولا تجتاح مشيئته — لأن من قدر الله ان يستبقي للانسان من حرية الإرادة ما يؤهله لاحتمال التكليف والابتلاء حتى يحق عليه المساءلة والجزاء . فإذا كان في اصل الفطرة داعية الى الوفاء بميثاق العبودية لله فذلك ميثاق أسس على الرضى لا على القسر ، وإن في الفطرة ايضاً لغرائز وشهوات ملحة تتجه بالإنسان للتعبد لهواه واتباع الشيطان والضلال عن سبيل الله : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . » ( الشمس٧-٨ ) . وفي الكون آيات بينة تدل على الله ولكن الإنسان قد يمر عليها غافلاً عن عبرتها فلا يرى لجزئيات الكون المنبثة معنى كليا ولا يسبر لصفحته الظاهرة غورا : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . » (يوسف ١٠٥) ، فليس في علم الطبيعة ولا في المنطق والنظر المجرد ما يلجيء الإنسان الى الايمان وان كان فيه بذلك سلطان مبين . وان الرجال الذين يصطفيهم الله لرسالته لحريون بالتصديق كما ان في كتابه المنزل بيانا وحكمة وبشارة ونذارة وحجة بالغة وإعجازا ، ولكن الناس قاموا بين مصدق ومكذب في دعوة الرسل الكرام : « وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . » ( يوسف ١٠٢ ) .

وان الله لقادر على ان يودع في الانسان ما يجبره على الايمـان وان يؤيد الرسل بمعجزات تخضع لها اعناق البشر : « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . » ( الشعراء ٤ ) . ولكنه لم يشأ ان يكره الناس بل ارسلهم احرارا وبين لهم الآيات وأرخى لهم فمن شاء آمن ومن شاء نقض ميثاق الله وغفل عن داعيـة الخير في نفسه واتبع شيطانه وهواه على درب الشر : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... » ( الكهف ٢٩ ) . وان شاء الإنسان عرف نعمة الله وآياته في الكون فكفرها واعرض عنهـا : « يعرفون نعم الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون . » ( النحل ٨٣ ) ، او شاء سمع دعوة الرسل واستيقن حقهـا ثم جحدها وكابر حتى انكر المعجزات الواضحة : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعـلوا ... » ( النحل ١٣ - ١٤ ) . بل ان من سنن الله ان ييسر للانسان وجهته حيثما اختار ان يتجـه ليستكمل له حريتـه ويتم عليه الحجة والمسئولية ، فهو يزيد المهتدي هـدى والضال ضلالاً ويجعل في العلم الكوني مايورث المؤمن اطمئنانا وما يزيد للكافر الحـاده في ذات الله او في أوامره وينزل من الآيات ما يهدي المتقين ولا يزيد الكافرين إلا خسارا : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضلّ من يشـاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون . » ( النحـل ٩٣ ) ، « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . » ( الإسراء ٨٢ ) .

وما يكون لبشر ان يكره احداً في الدين مادام الله قد قـدر الحرية : « لا إكراه في الدين ... » ( البقرة ٢٥٦ ) - ليس ذلك لنبي مرسل ولا لحاكم مؤمن : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره النـاس حتى يكونوا مؤمنين . » ( يونس ٩٩ ) ، « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . » ( الغاشية ٢١ - ٢٢ ) . وكيف يكره احد في دينه مادام الله لايقبل إلا الدين الخالص ويجعل جزاء المنافقين أشد من الكافرين.





فخلاصة القول أن الدين ليس طبعاً جبريا يجري على الإنسان ولا حالاً تمليه من حيث لايعي ولا أمرا يكره عليه ، وإنما هو تكليف مسئول عنه ومنوط أولاً : بسلامة عقل المرء ليدرك دواعي الايمان بالله واليوم الآخر والرسالات ويقدر مقتضيات التكليف الشرعي ، وثانياً : بحرية مشيئته ليختـار موقفه بين الاستجابة والإعراض : « إنا خلقنا الانسان من نطفـة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعـاً بصيراً . إنا هدينـاه السبيـل إما شاكراً وإما كفوراً . » ( الإنسان ٢ - ٣ ) . وأيما امرىء أصابته علة فأذهبت عقله رفعت عنه المسئولية لأنه فقد أهلية التكليف ، او فقدت حريته فاضطر الى موقف بغير اختيار لم يكن لذلك حساب في ميزان الدين : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمـان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . » ( النحل ١٠٦ ) .

● ● ●

وفي معنى التكليف الديني وفي مناطه ما يجعل للإنسان من حيث هو فرد قدرا معتبرا وخصوصا يمتاز به عن سائر النـاس . فلئن كان الدين تكليفاً عاما يخاطب البشر كافة فإن لكل فرد دينه العيني - أو قل حظه من الدين يحصل من جملة التعاليم التي تعنيه في ضوء الواقع الظرفي الذي يكتنفه منسوبة إلى طاقته واستمداده الفطري . فحياة الناس في اختلاف كبير - لكل منهم نصيب مقدر من أحوال الوجود - إذ يوجد كل انسان في إطار اوضـاع طبيعية واجتماعية مخصوصة ، ويتمتع بقسمة معينة من الطاقة العقلية والبدنية ومن التركيب النفسي ، ويوافي كسبا مقـدرا من حظوظ الرزق والجـاه ، وتصادفه في مسار الحياة وقائع شتى من صروف الخير والشر . ولايتفق لاثنين أبدا ان يتماثل أمرهم كله لأن الأحوال التي يمكن ان تكتنف الإنسان لاتكاد تحصى فهي تتكاثر كلما تعقدت الحيـاة وتتركب وجوه لاتتناهى وتتفاوت تفاوتا كبيراً من حيث عظم القـدر وشدة الوقع وطـول المكث لاسيما إذا

نسبناها الى اثرها المباشر على كل انسان بما أوتي من مقومات جسد وعقـل ونفس وبما يطرأ عليه من تطور في مقومات الذات .

فإذا ثبت لكل شخص وجـود معين متميز استتبـع ذلك ان يكون له نصيب مقسوم من التكليف الديني ، وذلك التكليف خطـاب من الله الذي يحيط بدقائق الوجود ويعلم خفـايا الإنسان ويحصي كل حساب . ولئن كان البشر في التكليف الذي يتواضعونه لايعتبرون الا التوسـط والعموم لأنهم لايحصون الأحداث ولا يقدرون الأحوال إلا قليلا ، فإن الله تعالى لايكلف نفساً إلا وسعها وما آتاهـا : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. » ( البقرة ٢٨٦ ) ، « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً . » ( الطلاق ٧ ) .

• • •

والعبادة كذلك معنى شخصي يقوم فيه العبد لربه بصلة مخلصة لايشرك فيها معبوداً سوى الله ولا يتخذ من دونه وسيطاً يقربه إليه زلفى . فالعبادة التامة تقتضي التوحيد الخالص ، وذلك يجرد الإنسان بوجه ما من كل العلائق ويجعل لوجوده الفردي قدراً معتبرا . وقد سلف بيـان مستفيض لتحرر المؤمن من أن تستعبده ظروف المجتمـع فتفقده وجـوه خصوصيته وتطمس فرديته في التوجه الى الله . فلا ينبغي للمؤمن ان يفني نفسه في جماعة بحـكم دواعي الموالاة الفطرية فينقطع بها عن ربه ، ولا يجوز له أن يذوب نفسه في بشر آخـر يحجبه عن ربه فإن البشر لايملك من قدسية الله شيئاً ولا من تصريف الضر والنفع حولا ولا قوة إلا بالله .

وأخطر ما يقتضي معنى العبادة الخالصة أن الأعمال إنما تقوم بالنيات المتوجهة الى الله والمطوية في النفس لايطلع عليها سوى الله . فبالنية يعقد العبد علاقة عبودية مع الله لا شأن فيها لطرف ثالث . وذلك ان الناس مهما





راقبوا ظاهر عمل الإنسان او ضبطوه عاجزون عن الاطلاع على نيته — صادق هو أم منافق ؟ — وهم أعجز عن إدراك التضاعيف التي قد تحتويها النية فيتضاعف بها قدر العبادة في العمل الواحد . فمهما اتحدت أعمال الناس وتشابهت في ظاهرها تخارجوا منها بأنصباء متميزة في حساب العبادة لأن التكليف منسوب الى وسع كل فرد والتحصيل رهن بأبعاد نيته .

• • •

وإذا كان للعبد مشيئته الذاتية الحرة ونصيبه المعين من التكليف تكيفه أحواله المخصوصة وله كسبه من العبادة تكونـه المواقف والأعمال التي يتخذها للوفاء بذلك التكليف مقدرة بحسب الخلوص في نياته ـ اذا كان ذلك كذلك فلا غرو من ان تكون المساءلة التي يقوم لها الناس بين يدي الله يوم الدين مساءلة فردية ـ تحصي لكل فرد جملة عبادته ويعرض عليه كتابه وتقام عليه الأشهاد ثم لا يشاركه أحد في حسابه فليس له الا ما سعى ولا تزر وازرة وزر أخرى . وقد يقع العمل في الدنيا جماعياً يشترك فيه الناس أو يتبع فيه بعضهم بعضاً ، ولكنهم يوم القيامة يلقون نصيبهم من حسابه أفراداً لايجديهم اعتذار ولا ملاومة تتقاذف فيها التبعة . وقد يتقارب الناس في الدنيا أو يتشابهون بأعمالهم ، ولكنهم يتفرقون يوم الفصل ويمتاز كل بما قدم من دين خالص في الأيام السالفة ، فلا شفاعة الا باذن الله ولا يضار احد بما كسب غيره ، ولا يقارب لهم الحساب كما يجزي أهل الأرض على العمل المتشابه في ظاهره : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً . » ( الإسراء ١٣ — ١٥ ) ، « من عمل صالحـاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون . » ( الجاثية ١٥ ) ، « ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى . » ( النجم ٣٨ — ٤١ ) .

**تأليف الجماعة** : حينما تؤسس الجماعة بما تمليه الوحدة في ظروف الحياة الطبيعية او في أوضاع المجتمع البشري من عصبية عرق او موطن او حمية طبقة اجتماعية — حينئذ يتجه الهم الأعظم في الحياة نحو إعلاء الشأن العام تمكينا لمعنى وجود الجماعة الذي تتحوز به من دون سائر الناس — فإما اقتصر ذلك على إعزاز قومية الجماعة واظهار قوتها على الغير ، او تعلق بمثل عليا في تنظيم العلاقات الاجتماعية فيها . وفي مثل تلك الحالات يزدهر شأن الفرد وتذهب الجماعة بكل التقدير لأن الأغراض المنشودة في حياتها لاتعني إلا الكافة ولأن تحقيقها لا يستدعي الا تدبيرات ظاهرية عامة ، فليس للفرد كثير مما يختص به بل قصارى أمره ان يكون واحدا في غمار جملة الأفراد المجندين لخدمة الجماعة . ويضطرد ذلك المبدأ التأسيسي فيترتب عليه نظام عملي تطغى فيه الجماعة على حرمات الانسان من حيث هو فرد ويشح عليها هو بالتجاوب الصادق ، أو تكون تلك هي السمة الغالبة في النظام — اذ ليس من طبع الانسان أن يتجرد لمعنى واحد في أصول حياته الاجتماعية ، بل قد يشيع في المجتمع اتباع شهوات الذات واهوائها ويكون هم الفرد كله في تسخير علاقاته الاجتماعية لمنافعه الشخصية ، فحينما يكون ذلك كذلك تتعطل المصالح العامة ويعتل النظام ، وقد يفوز المتمكنون في المجتمع بالنصيب الأوفى من خيراته اختصاصاً من حق المستضعفين ولكن نيل الجماعة في جملته لابد أن يتضاءل بسبب ذلك الاعتلال .

ولكن الدين كما قلنا يعلم الانسان أنه مخلوق فاضل ذو إرادة وانه مكلف ومسئول ينبغي عليه ان يتحرر من اسر الظروف التي تكتنفه ويتخذ العبودية الطوعية لله معنى أكبر يقوم به حياته ويؤسس على مقتضاه أوضاع اجتماعه . فأصل الجماعة في الدين من مشيئة الانسان الفرد المؤمن . وذلك ان الإيمان بإله واحد وشريعة واحدة — او توحيد الغاية والطريق — يورث المؤمنين شعورا بالتماثل والإخاء والعز والانحياز من دون الناس ، فينشأ بينهم بمقتضى إرادة الايمان رابطة ولاء وتضامن . فقوام الجماعة المؤمنة



إنما هو بتوارد ارادات المؤمنين حيث يسلم كل لله فينتمي من تلقاء ذلك الى إخوانه في الإسلام ويهاجر سائرَ الناس ليوالي المؤمنين ويدمج امره في أمرهم من أجل عبادة الله وعلى هدي من شريعته .

فليست الجماعة المؤمنة إصرا على الفرد ولا غريما يشادّه ويسلب حريته لأنها ثمرة من ثمرات اختياره ورضاه . ولا يكون نظامها إلا طوعياً يحفظ للفرد قدره ويرعى حرماته متميزا عن نظام الجماعات التي ينضم فيها الفرد قسراً وربما غلب من ثم على سائر أمره في الحياة . ولا يعني بناؤها على المشيئة الحرة أن يستبد فيها الفرد بهواه ماشاء ، فان حرية الانسان لاتقدر في الدين لذاتها بل لأنها شرط أهلية لاحتمال قدره في الابتلاء وإدراك غايته في الاهتداء الى ربه ، وليس وخي الكمال في أن يتسع الفرد في ممارسة حرمته عدوانا على حريات الآخرين أو تجاوزا الحدود طريقه الى الله ، وإنما يتوخى المؤمنون الكمال في تعاونهم على عبادة الله وتناصرهم لاعلاء كلمة الله ، فبينهم عهد ولاء متين يقوم قاعدة لسلطان الجماعة ويتمثل في نفس كل فرد تقبلا لتكاليف الحياة العامة وطواعية لأولياء الأمور .

وفي معنى العبادة وجه آخر للمواءمة بين شأن الفرد والجماعة . فلئن كانت العبادة في مبدأ مدلولها معنى شخصياً يتضمن علاقة مخصوصة بين العبد والرب قوامها التكليف فالعمل ثم الحساب ، فإن ذلك لايعني أن مناط المسئولية لكل عبد منعزل عن الآخرين لأن الناس يشتبكون في حياة واحدة وما حياة أحدهم الا تعامل مع الآخرين أو تكاليف عامة يؤديها معهم تعاونا واشتراكا ، فهو لايجد الأسباب لعبادة الله — لحبه وشكره ورجاءه وخشيته — إلا في أثناء حياته الاجتماعية . ثم ان الجماعة معوان للفرد في سعيه نحو غاياته الدينية لأن في اجتماع المؤمنين وتناصرهم ماترتقي به أوضاع حياتهم المادية وفي ذلك الرقي سبب لاتساع قدرة الإنسان وتضاعف حريته ، فإذا استثمر المؤمنون ذلك في تعظيم أقدار العبادة رجع كل منهم

بحظ أوفى عند الله . فموالاة المؤمن لاخوانه تعبير عن الولاء لله وممارسة لعبادته وطلب للاستزادة فيها بالتعاون على البر والتقوى . ومن هـذا المعنى تستمد الجماعة سلطانها في توجيه الفرد حتى يوافق مقتضى عبـادة الله ويمكن الآخرين من ذلك . بيد ان معنى العبادة يؤول كما قدمنا الى خصوصية بين العبد والرب فيحفظ له من حيث هو فرد قدره ووضعه في إطار الجماعة ، وليس هو كبعض الأغراض الجماعية التي لا تعني الفرد بوجه مباشر . ومهما تعـاون الأفراد في جماعـة للترقي بأقدار العبادة او اشتركوا على عمل عبادي واحد فإن لكل منهم نصيبه يتفرد به من دون الآخرين ومبلغه من مقامات العبادة ينافس فيها غيره . وأغراض الحياة الاجتماعية لذلك معروفة في الدين تتمخض عنها واجبات كفائية مشاعة وأخرى عينية ولكن مرجوعها في حساب العبادة إنما يفرد للأفراد كل بتقدير مخصوص . فمعنى العبادة لا ينفي قيام الجماعة ولا يستحقر شأنها العام بل يقتضي نظامها ويبرر سلطانها ولكنه يحفظ للفرد قسمة معلومة ومكاناً مقدراً .

وتقوم الشريعة — من بعد مقتضى الحرية والعبادة — ميزاناً يحقق المعدلة بين الجماعة والفرد — تضمن سيادة النظام العام وتحرسه من جنوح الاهواء الفردية ، كما تصون حرمة الفرد وحقوقه من الطغيان الجماعي . وتفصّل الشريعة الواجبات والحقوق وتنظم علاقات الحياة العامة بالعدل والاتزان . ففي مجـال السياسة تقيم الشريعة ولاية عامة لأمر الجماعة تحكم بمقتضى الشرع وإجماع الأمة وتلزم الفرد بحجة غالبة ليس له بعدها الخروج والعصيان ، ولكنها تجعـل الحكم شورى ومناصحة وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، فلكل مؤمن نصيب في توجيه الامور وله من اجل ذلك حقه في حرية الرأي والاجتهاد والعمل . وفي مجال الاقتصاد يتمتع كل فرد بحرية الكسب والمتاع المشروع والتجارة عن تراض وتكفل له حاجاته الضرورية في المعاش من قبـل الجماعة ، كما تضع عليه الشريعة واجب الإنفاق وتجعـل للجماعة ان تأخـذ من امواله وتوجه سلوكه وتضبط شذوذه . وكذلك شأن الشريعة في سائر مجـالات الحياة —



حتى في اعمـال التعبد الخالصة كالصلاة والصوم والحج . فلئن كانت تلك العبادات المحضة موضوعة في المكان الأول لتوثيق صلة العبد بربه وتزكية معاني الإيمان في نفسه فإنها تتضمن صور أداء جماعية فيها تربية على المعاني التي تقوم الجماعة كالإخاء والموالاة والنظام والطاعة . ولكل عمـل يأتيه الفرد المؤمن في اثناء حياته العامة اعتبار مزدوج : فهو من حيث بواعثه وخفاياه يخص شأنه مع ربه فيحسب له او عليه في موازين المسئولية الربانيـة ، وهو من حيث عناصره الظاهرة يندرج ايضاً في علاقاته ومسئوليته الاجتماعية يستحسنه إخوانه أو ينكرونه او تأخذه به سلطات القضاء والحكم .

وهكذا يوحد الدين امر الفرد والجماعة ولا ينصبهما على طرفي نقيض بل يوفق بينهما بمبدأ الرضى في تأسيس الجماعة وبمعنى العبادة في تقويم حيـاة الإنسان وعلاقاته ثم يعدل بينهما بميزان الشريعة فينحاز الفرد باعتبار لتزكو نفسه بأثر الإيمـان وتطيب خاصة امره عاجلاً وآجلاً ، ويندرج في جماعته باعتبار ثان ليتكامل سعي جملة الأفراد في تزكية نفوسهم جميعاً وإصلاح أحوالهم في الدنيا على وجه العموم وفي الإعداد لحسن العاقبة في الدار الآخرة.

## (ب) قيد السلوك ونظامه

**( توطئة ) ضوابط السلوك الاجتماعية :**

ينطوي الإنسان على غرائز مركوزة في فطرته تتفجر منها شهوات ملحة تميل به ميلا الى نيل متاع الحياة . ومـا يتطلب أحد النـاس إشباع رغائبه الغريزية ويطاوع هائجة الشهوة العارمة إلا ارتطم في سعيه بالآخرين ـ ذلك ان البشر نفسه بعض مادة الطبيعة التي تتعلق بها الشهوات ، وأن الطيبـات المتاحة لا تفي بإشباع كل الشهوات المنهومة في ذات الوقت ولا يحوزها فرد إلا انحرم الآخرون . وإنما يعيش البشر في جماعة ، فإذا أطلق كل فرد لشهواته العنان متبعاً نفسه هواها صار الناس بين طاغ يستلب حقوق غيره ويتسلط على رقابهم ومستضعف واقع تحت طغيان الآخرين وحالت العلاقات الاجتماعية العامة مصطرعاً رهيباً بين المطامع . وقد يكفكف من هـذا الصراع ان الإنسان بطبعه ايضاً ذو لب يعقله ويعظه ويهديه إلى ان التباغي يؤدي بجميع الناس إلى عاقبـة وخيمة تخيّب لهم كل رجاء وتجلب لهم عوضاً عنه شراً مستطيراً وان التواؤم يحصل منه في جملة التقدير نفع أكبر يعود لكل إنسان. ثم إن الإنسان مدني بطبعه فهو فيما يحرص على حظ نفسه يحتوي فيها بشعوره بعضاً من رفاقه في الحياة على مدى معين وعلى درجات من قوة الشعور بالاتحاد





معهم ـ بحيث يتداخـل الأفراد بأبعاد شعورهم الاجتماعي وتسري بينهم دواعي الوفاق .

ولكن ضوابط عقل الفرد وسماحة عاطفته الاجتماعية لا تكفي للهيمنة على ضراوة الغرائز وشدة إغرائها بالعدوان ولا تحفظ علاقات الناس من الشرور التي تفجرها الشهوات . ولذلك تنشأ طائفـة من القيم والأحكام يتواطأ عليها الناس ويرضونها موازين لتقدير المطالب والمنشودات الفردية ولضبط انمـاط السلوك ، وذلك لـكي تتــوافق مصالح الأفراد وتتناسب مقاصدهم وتتسق مسالكهم ويسود بينهم السلام . وتتولى المؤسسات الاجتماعية وظيفـة إشاعة الأخلاق بتربية الأفراد على هديها فينشأ الأطفال على فطم الشهوات وترويض الغرائز ويظل الفرد طوال عمره مطوقاً بشتى وسائل التوجيه ليستقيم مع أمر الجمـاعة .

وتقيم الجماعة رقابة وثيقة على الفرد حيثما تقلب في حياته العامة ، وتضع عليه المؤثرات المناسبة لكيما يلتزم الأخـلاق المعروفة فيقف عند حدودها وينساق مع أوامرها ، وذلك بتعريض الفرد المتمرد عليها للإنكار والملام وربما للعزل والمقاطعة وبتشجيع المتأدبين بعرف الجماعة بحسن الاعتبار والذكر الجميل وغير ذلك من وسائل الترغيب .

وقد ترسخ قيم الجماعة واخلاقها في جمهور افرادها حتى يصبح الالتزام بها عادة ينبعث إليها الفرد طوعاً من تلقاء نفسه ومن وراء وعيه المباشر . ولكن ظواهر شذوذ الأفراد عن عرف الجماعة لا تنقطع البتة ويلزم الجماعة لذلك أن تقيم علاوة على اخلاقها نظاماً ادق في احكامه واشد في جزاءاته .

فحيثما ينتظم المجتمع على الصعيد السياسي تقوم فيه سلطة حاكمة من اخطر وظائفها ان تتولى تقرير انماط العلاقات اللازمة بأحكام قانونية تحدد قواعـد السلوك وضوابط المعـاملة يترتب على مخالفتها جزاءات مناسبة ويوكل أمر تطبيقها لأجهزة الدولة . وقد يتجاوز القانون مجال الأخلاق لأنه ينظم كثيراً

من الشئون الإدارية التي لا يرد فيهـا اعتبار أخلاقي ولكن جانباً كبيراً منه يتطابق معها ويدخل في حرمها ويتقوى بتأثير النظـام الأخلاقي ثم يستقل بإجراءاته وجزاءاته الرسمية .

فالضوابط الاجتماعية كل تتكامل فيه قواعد الأخلاق والقوانين . وهي في المجتمعات غـير الدينية احكام وضعية قوامها السنن التي تنشأ عن العرف الاجتماعي والأوامر التي يتخذها أولو الأمر والنفوذ .

وسنجرد للضوابط الاجتماعيـة التي تنشأ بمعزل عن الدين حديثاً مفصلا نصوب فيـه النظر إلى حدودها العلمية ونبرز قصورها عن الوفاء بحاجات المجتمع في وقاية الحياة من شرور البغي والإضرار وعلاج الخصومات الناشئة بحكمة وعدالة .

بيد ان الهدى الديني في مجـال الأخلاق لم ينفك قط عن البشرية . ولئن خوت بعض الديانات القديمة – كالهندوكية – من مضمونها الأخلاقي او وهت أصول التدين عند اصحاب الملل الحديثة فإن الإيمان لا يزال هو أصلب قاعدة يقوم عليها الالتزام الأخلاقي عند البشر ، ولا تزال كثير من القيم الأخلاقية تصاغ من معاني الدين وإرشاداته ، بل لا تزال القوانين تنطوي على أوامر واحـكام اقتبست من تعاليمه . فالواقع البشري إجمالاً لا يخلو من اثر الدين القديم وإن كانت معالمه في غالبها قد خطها فكر البشر متفاعلا مع ظروف الحياة لاسيما ان أكثر الدين الحاضر إنما هو ذاته بقية مأثورة من أصول تطاول عليها العهد وترا كمت عليها ابتداعات وضعية اتحدت معها وبدلت خصائصها الربانية .

• • •

ولنقبل على الدين الحق الذي لا نعني إلا به – نتأمل اثره في قيد سلوك الإنسان وتنظيمه . ولنـذكر لمبتدأ الأمر طرفاً من اثر النظام الاجتماعي الديني في ضبط السلوك . وذلك ان الدين لا يقتصر على تزكية النفس بالإيمان



الوازع من الشر بل يتعهـد الإنسان في وجوده الاجتماعي بضوابط خارجية تترتب مما يقع على الفرد من تكليف ورقابة ومسئولية في سياق حياته وعلاقاته العامة على نحو ما يجري في كل مجتمع بشري . سوى ان المصدر الذي تستنبط منه تلك الضوابط هو نصوص الشريعة التي تقرر طائفة من الأحكام والمبادىء الكلية وتجعل لكل جماعة مؤمنة – على هدى من قيم الدين وتعاليمه وبناء على ظروفها الواقعة – ان تستكمل تنظيم حياتها بشتى القواعد الفرعية يقترحها علماء الأمة وفقهاؤها اجتهاداً ثم تنفذ في واقع الحياة عندما تتبناها الجماعة ، فمنها ما يعتمده ولاة الأمر السياسي فيصبح قانوناً لازماً ، وما يتلقاه الناس بالقبول العام فيصبح عرفاً سائداً يضبط قواعد الأخلاق والآداب .

وتستند قوة هذه القوانين والقواعد لمدى كبير إلى إذعان الفرد لهـا من تلقاء نفسه ، وقد يقوم ذلك الموقف بنفس الفرد بسبب القناعة بوجه الحكمة فيها او الفطرة المدنيـة التى تؤلفه إلى مجتمعه ، ولكن سلطان الأحكام الاجتماعية على المؤمن إنما يتقوى فوق ذلك بمعاني العقيدة التي تقوم بنفسه – بتصوراته للحياة وتعظيمه لشأن إخوانه وبحبه للتقوى وتقـديره للمسئولية الدينية التي تشمل كل حكم متفرع عن أصول الشريعة . سوى ان تلك الأحكام تتأكد كذلك بنظام اجتماعي للجزاءات – منها ما تحـدده الشريعة ومنها ما تضعه الدولة بقوانينها وفق إجراءات منضبطة وشروط دقيقـة ، ومنها ما يسري في اثنـاء العلاقات الاجتماعية شتيتا من الضغوط على سلوك الفرد تتفاوت آثارها وصورها .

فالشريعة الإسلامية تستلزم إقامة ولاية عامة للدولة تهتم بشئون الرعية ويكون من وظائفها ان ترعى الأمن والعدل في علاقات المجتمع وتقرر القوانين المناسبة وتطبق احكامها وتنفذ الجزاءات المترتبة على العدوان عليها بتطبيـق الحدود الشرعية وإيقاع عقوبات التعزيز المختلفة والفصل في الخصومات من اجل رد المظالم وتعويض الأضرار . وعليها كذلك ان تبسط القـوة المادية مالزم

ذلك لحفظ حدود الله وحقوق الناس ، ثم عليها فيما عدا الحكم بالقانون ان تتخذ سياسات تربية وتوجيه هادفة تغرس في الأفراد دواعي الاعتصام بالقيم المثلى وبالمعاملات الفضلى وتأمرهم وتدعوهم الى محاسن الاخلاق وتعظهم وتنهاهم عن منكراتها .

وتقيم الشريعة من أمة المؤمنين مجتمعاً شديد الوعي بمعاني العدل والتقوى وفضائل الاخلاق يطبق منهاجاً كاملاً من قواعد السلوك منظوماً من الأحكام الشرعية المأثورة وما يتفرع عنهـا من الأعراف والآداب التي يتواضع عليها المجتمع . وتنظم الشريعة شتى الوسائل تأميناً لمراعاة قواعد الأخلاق ، فتسن للناس أدباً ومناهج لحراسة المجتمع من الجنوح الى الشر والظـلم ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأداء النصيحة وقول الحق ، وتغيير المنكر أو إنكاره ، والثناء على اهل التقوى ، وإصلاح ذات البين وتسوية الخصومات ، واهتجار الجاني ونصرة المظلوم .

وترتب الشريعـة اوضاع السياسة والاقتصاد والاجتماع بما يكفل للفـرد ضروراته ويعدل له في علاقاته لئـلا تحفزه الحاجة الى الشر او يستفزه الظلم الى ان يذهب لينتقم لنفسه فيتجاوز ويطغى .

● ● ●

وليس القصد من هذا الوصف المقتضب لنظام الضوابط الاجتماعية الدينية إلا الاشارة الى بعض ابعـاده ليكتمل التصور لمنظومـة الضوابط التي تتوارد بالتـأثير على الفرد من ذات نفسه ومن قبـل مجتمعه الذي يعيش فيه . أما تفصيل النظم والأحكام الشرعية المتصلة بالمعاملات فليس من شأن هذا البحث الذي نقتصر فيه على أثر الإيمان في الحياة .

ولنخلص الآن الى أثر الإيمـان في تعزيز المسئوليـة الاجتماعية التي تنظمها الشريعة وفي تأكيد ضبط السلوك البشري الجانح نحو الشر والبغي وينبغي التنبه الى ان السلوك الاجتماعي ما هو في الدين الا فرع من نظام السلوك كله وان الدين



نهج كامل للحياة لا يعالج شأن الإنسان إلا بوجه شامل . فإذا عرفنـا للدين هذه الخصيصة التي تميزه عن مذاهب البشر الوضعية تسنى لنا ان نقدر مدى تطويق الدين لدواعي الشر وإحاطته بمسالك البغي وفاعليته في تهـذيب الإنسان وتأديبه .

وإنما يعود فعل الايمان في تهذيب الإنسان الى شعاب العقيـدة التي تقوم بنفس المؤمن فتورثه تصوراً معيناً لمتاع الدنيا ولعلاقات البشر ترتاض به غرائزه فلا تتجه به نحو الشرور والآثام . وتنشأ قوة الوازع الديني لدى المؤمن من حبه للفضيلة وبغضه للشر ومن وعيه الدائم بمسئوليته بين يدي الله يقوم اعتبارها لديه رادعاً عن ميل الهوى العادي ودافعاً الى طيب المخالقة للناس .

### ١ – التصور الايماني لمادة الحياة :

في فطرة الانسان غرائز تزين له حب الشهوات من متـاع الدنيا ، فحيثما قدر مصلحته نازعه نحوها نازع من الحرص والشح وحب الخير لنفسه ، ولو كان ذلك اختصاما من مصالح الآخرين المشروعة . وفي الفطرة كذلك ميل للانفعـال بدواعي الغضب والشهوة فكلما هاجت من ذلك هائجة دفع المرء للاستشفاء منها فربما جره ذلك للإضرار بنفسه أو العدوان على الآخرين .

وليس مثل الإيمان توجيهاً لرغائب الإنسان نحو الخير وترويضا لغرائزه بما يحفظ له نفسه ويصون علاقات الحيـاة الاجتماعية من غائلة الهوى الجامح . ولقد سبق لنا كلام مستفيض في شعاب الإيمان وأرسلنا الكلام إرسالاً في آثارها الجليلة من حيث دفع المؤمن الى طريق الجهاد والعمل الصالح . فحسبنا هنـا ان نشير باقتضاب الى وجوه أثرها في كف الإنسان عن طريق الشر والفساد .

فأساس الإيمان إسلام النفس وإخلاص العقيدة لله وحده . فالمؤمن متوجه نحو ربه بأشواق ملحة نازع الى مرضاته بعزيمة قوية يتحرر في سبيل ذلك من التعبد لهواه والاستجابة لدواعيه الجامحة نحو الشر والعدوان : « ... وما عند

الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم متوكلون . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا مـا غضبوا هم يغفرون . » ( الشورى ٣٦ – ٣٧ ) ، « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميـة حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً . » ( الفتح ٢٦ ) . ومن آثار عقيدة التوحيد انها تصون الإنسان من دواعي الشرّ التي ترد عليه من محيطه الاجتماعي ، فتوحيـد الله يستتبع التحرر من التعلق بالذوات البشرية او متابعة الجماعة تباعة عمياء . فهو يجعـل حق الله عليه في الطاعة أولى من حق البشر ، وان يطيع المؤمن الله فيما ينهى أحب إليه من ان يأتمر بأمر كبير ، وان يرعى محارم الله احب من ان يجامل الناس ويوقر أعرافهم المعروفة . ويقدر المؤمن حسابه عند ربه مطرحاً في جنب ذلك ما قد يقع عليه من تلقاء البشر ، فلا يساير الناس الى معاصي الله حذرا أن ينكروا عليه مخالفتهم الى الخير او طمعاً ان يجد القبول لديهم إذا وافقهم على البـاطل ، وما هو بإمعة يرشد برشد قومه ويغوى بغوايتهم لأنه يرجو لقاء ربه إذ يتعين عليه عنده حساب يفرد له إفراداً فلا يزر وزره وازر: « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي وآتاني منه رحمته فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير . » ( هود ٦٣ ) .

ومن خُلق الإيمان الصبر على نهج واحد وموقف ثابت لا تزعزعه صروف الحياة . وذلك خلق يورثه المؤمن من يقينه بأن الحياة مجـال ابتلاء تتعاقب عليه فيها وقائع الخير والشرّ امتحاناً لقوة عزمـه في التزام مقتضى العبادة ، فإذا زينت له نفسه لأول وهـلة ان يستسلم للغضب او يميـل مع الشهوة ويستجيب لهواه رده وازع من ضميره المؤمن الى توخي الرشد في أمره والنظر في موقفه على ضوء من شرع الله فيملك نفسه من ان يأخذها الغضب فيوقعها في العدوان أو تنساق مع الشهوة فتتعدى حدود الله أو يضلها الهوى فيرديها : « . . . ولا يجرمنـكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعـدوان واتقوا الله إن الله



شديد العقـاب » . ( المائـدة ٢ ) « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » ( البخاري ) .

ومن شعاب الإيمان العلم – يجد المؤمن داعية اليـه من شدة حرصه على استبانة الطريق الى الله وحذره من أن يحيد عنها شيئاً ، ويتعلمه بنية الالتزام الفعلي لا لمعرفة نظرية لاتنهى صاحبها عن منكر ولا تأمره بمعروف .

• • •

ولئن كان في فطرة الانسان ما يتجـه به نحو الشر فإن الفطرة كذلك قابلة لان تنفعل بالدين . فإذا تمكنت شعاب الإيمـان وتصورات العقيدة من النفس ألهمتها تقويماً لمتاع الدنيا غير الذي تمثله الغريزة الآبدة وموقفا منه غير الذي تمليه الشهوة السادرة . ولما كان ذلك المتاع هو المادة التي يتنافس الناس دونها ويتنازعون فإن علاقاتهم تتأثر تأثراً واضحاً بذلك التقـدير الذي يحدثه الإيمان .

فإذا اتخذنا مثلاً من المال والحيـاة وشهواتها مدعاة لكثير من التخاصم والإجرام ، فإن عقيدة المؤمن في ذلك أنه كله ملك لله في الاصل يدور بين الناس بمقتضى أقدار ربانية دقيقة ويليه المالك على وجـه الهبة منه تعالى . والناس يردون مايظهر لهم من تلك الأقدار الى أسبـاب التحصيل المعتادة ، ويضيفون مايغيب عنهم منهـا الى مصادفات البخت . لكن الأمر في حقيقته لله، جماعه بيده يصرفه بقانون نعلم بعض وجوهه ولا نعلم إلا قليلا، وما سعى المرء في الأسبـاب المعلومة إلا بحول من الله ، وما توفيقه لتحصيل ما يبتغي إلا به تعالى . فليس في تصـور المؤمن مايدعوه للفخر والاختيال بما يجد لأنه يرد الأمر لله ولا يرى الفضل فيه لكسبه الذاتي الخالص . وليس في التمكن من المال والسلطان ما يوهم المؤمن بأن ذلك المتاع مضمون على وجه الخلود ، بل هو في تقديره وديعة مستردة يستخلف الناس فيه ويتعاقبون عليه بالقدر النافذ الذي لايرده احتياط ولا يغني فيه حرص . فالله يبسط الرزق ويقدره

ويبنزع الملك ويؤتيه . ولو حفظ للمرء حظه من الدنيا فإنه هو شخصه لايدوم إذ يوشك الموت أن يباغته في كل حين : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . » ( آل عمران ٢٦ ) .

فللمؤمن مع المال شأن غير شأن الكافر . إذ لايقدر هذا في أسباب الكسب إلا علماً أوتيه وحظاً واتاه فلا يرى المكتسبات إلا تجسيداً للخواص التي يمتاز بها ، ويعي نفسه بأن بينه وبين تلك المكتسبات تلازماً يضمن له دوامها بلا نهاية ، ومادام يراها بعداً من أبعاد ذاته ووجوده فإنه يلتذ ويفخر بها ويؤسس على استيلائه عليها حقوق الحيازة والاحتكار وحرية التصرف والاستبداد : « وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ... » ( الكهف ٣٤ — ٣٥ ) ، « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة اذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لايحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . » ( القصص ٧٦ — ٧٨ ) .

ذلك بينما يرى المؤمن أن الله لم يستودعه المال على وجه التفويض يحوزه دون الآخرين ويستبد دونهم بالتصرف فيه ، بل هي أمانة يتحملها مصحوبة بميثاق ـ أن يؤدي فيها حق الله الذي يهبها وإليه تؤول . فهو لايطاوع في المال شح نفسه وطغواها بل يسخره في عبادة الله موقناً أنه مسئول عن ذلك كما يسأل عن كل أمانات الله التي أوليها ـ إدراكه وطاقاته الجسدية ، سلطته على عناصر الطبيعة وظروفها ، أوقات عمره المتاح : « ... وهو الذي





جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم . » ( الأنعام ١٦٥ ) .

وعلى هذا الفرق في التصور ينبني تباين المواقف العملية بين المؤمن والكافر ازاء المال والسلطان . فالمؤمن لايرى نجاحه في الاكتساب امتيازا لذاته ولا ضخامة نصيبه من متاع الدنيا سبباً للتفضل على الآخرين ، لأن الله هو الذي قسم الأرزاق والحظوظ ، ولأنه تعالى إنما جعلها أسباباً للابتلاء ولم يقمها دليلا على أنصبة الافراد من رحمته ولم ينسبها إلى قسمتهم من حبه لهم ومرضاته عنهم ، فليس حظ المال أو الجاه ميزان التفاضل في المجتمع المؤمن : « فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . » ( القصص ٧٩ — ٨٠ ) ، « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون .» ( سبأ ٣٦ — ٣٧ ) . ويترتب على ماتقدم أن المؤمن الحظي لايفاخر بما لديه ولا يهيج شعور إخوانه بالحرمان أو يلقي في أنفسهم الغل والحسد ، بل إن المحروم من جانبه لا يجد داعية للحسد مادام الله هو الرازق القاسم ومادامت خزائنه لا تنفد وإنما يرضى بقسم الله ويسأله من فضله الواسع . وإذا طرح المجتمع المؤمن ميزان التفاضل بالحظوظ الدنيا فإن ذلك يمكن منهم شعور المساواة الاجتماعية ويوجههم إلى التسابق في صالحات الاعمال لنيل الدرجات في الآخرة ويطهرهم من دواعي الصراع على تلك الحظوظ ومن مظاهر الشر الناتجة عن ذلك .

ومن آثار التصور الديني أن كاسب المال أو ولي الملك إذا ردّ الحق فيه الى الله علم أن عباد الله جميعاً مستوون عليه وما هو فيه الا وكيل يصرفه

لمصلحتهم جميعاً لاسيما أنه قد حمـــل هذه الوكالة ليمتحن في أداء شروطها : « والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق فما الـذين فضـلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمـانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون . » ( النحل ٧١ ) . فهو يتحرى ماعهد إليه ربه في شأن أمانة المـال وما شرط عليه في تصريفها ثم يلتزمه عبادة لله ورغبا ورهبا — يقــدر ضآلة متـاع الدنيا وفناءه فلا يشتريه بمتاع الآخرة الذي هو خير وأبقى : « واعلموا انما أموالـكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم . » ( الأنفال ٢٨ ) ، « المال والبنون زينـة الحياة الدنيــا والباقيات الصالحات خــير عند ربك ثوابا وخير أمـلاً . » ( الكهف ٤٦ ) ، « آمنوا بالله ورسوله وأنفقـوا مما جعلـكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقـوالهم أجر كبير . » (الحديد٧) . وإذا فات المؤمن مال الدنيا وجاهها فإنه يسلو برجاء الآخرة ويحمد لله ما أعطى وما أخذ : « ولنبلونـكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . » ( البقرة ١٥٥ ) . ويطمئن المؤمن بأن الناس كلهم مسئول وكل حال مسئول عنه ، فلا ضير ان كان نصيبـه هو من المسئولية أن يتقي الله في اقامته على المسكنة وصبره عليها وفي سعيه لنيل رغائب الدنيا بينما يسأل غيره عن ماله وجاهه كيف فعل به . ولا يفتتن المؤمن بما يرى من سعة المال والجاه عند الذي لايتقي الله ، فلا خير في متاع لايزداد به صاحبـه إلا خسارا : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنمـــا يريد الله ليعذبهم بهـا في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون . » ( التوبة ٥٥ ) .

فالإيمـان يزرع في نفس الانسان معـــاني تروض الفطرة البشرية وتضبط الشهوات المنبعثة عنها وتكيف انعكاسها في العلاقات الاجتماعية . فإذا أشرب المؤمنون معاني الإيمان اشبعت نفوسهم بمشاعر الإخاء والاستواء فلا يتجافى احدهم عن اخوانه صلفا واستكباراً ولا حسداً وانكسارا نظراً لما آتاه الله أو حرمه . واذا استذكروها التزموا تقوى الله في مواقفهم تجـــاه حظوظ الدنيا ورعوا مقتضى مسئوليتهم فيها — فمن كان ذا مال وسلطـان لم يتشبث





به حرصا وشحا ولم يصرفه في البغي والظلم ، ومن كان يسعى لتحصيل ذلك لم يتوسل إليه بالباطل والعدوان . واذا استصحبوا تلك المعـــاني كذلك لم يكن ذلك المتـاع أكبر همهم ولم يلتهـوا به أو من أجـله عن سائر مايصلح دنياهم او يزودهم منها للآخرة .

وخلاصة القول ان الدين يبقي على غرائز الانسان لأنها فطرة ركبها فيه الله تزوده بدوافع التفاعل مع معطيات الطبيعة اعمـارا للحيـاة ومختبرا في ذات الوقت لموقفه من عبادة الله ، ولكن الدين يربي دواعي الإيمان في ذات الفطرة ليضبط بها ذلك التفاعل ويحكمها في تلك الحياة ويضمن له الفـوز في ذلك الاختبار . وتعجز الأفكار الوضعية — سواء في ذلك المذاهب العقلية والتصورات الغيبية المنسوبة للدين — ان تحفظ لنفس الانسان تمادلها وتهديها سواء السبيل . ففي إطار الثقافة المادية يطلق الناس لشهواتهم العنان حينا ، فإذا عربدت وافسدت ارتدوا عليها حينا آخر بالضوابط القهرية . وفي اطار رد الفعـل على شرور المـادة يتوجه بعض النـاس الى إماتة الغرائز وكبت الشهوات والى الزهد في عمارة الدنيا .

• • •

وفضلاً عن تأثر المؤمن بالتصورات الصحيحة لمتاع الدنيا ولمـادة التباغي والتظالم فإن استقامة السلوك وانضباطه تتأكد لديه بأثر من تصوره لعلاقات الناس ، وذلك امر قد فصلنا القول فيه عند الحديث في علاقات الجماعة المؤمنة وما يسودها من معاني الإخاء والمساواة والموالاة ، فتلك المعاني ناهية للمؤمنين أن يصاعر احدهم خده لأخيه او يطغي على حقوقه فينال منه ظلماً بغير وجه مشروع وآمرة للمؤمن ان يؤدي واجبه في التكافل الاجتماعي وفي حفظ ذات البين الطيبة بين المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم . »

( الحجرات — ١٢ ) ، « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » ( البخاري ) ، فالمؤمن لايتصور الحياة صراعاً ينتهب متاعها من أخيه وينتصر فيها اختصاماً من حسابه ، ولا مواجهة طبقات تتحشد تبعاً لدرجات الوضع المادي فيضرب بعضها بعضاً او طوائف تتألف بالعصبية السياسية فتقتتل في سبيل السلطان .

فبالإيمان تتكامل تصورات مناسبة لمعطيات مادة الحياة التي ينجذب الإنسان للتفاعل معها بشهوته ولعلاقاته بالبشر الذين يلتقي بهم رفاقاً في مسرح الحياة ويتعامل معهم تنافساً وتعاوناً في سياق استغلاله لمادتها وظروفها. ويترتب على ذلك موقف نفسي قويم معتدل يتجه بأهل الإيمان الى ان يقيموا حياة عامرة وذات بين صالحة .

٢ — حب التقوى وبغض المآثم :

من شعاب الإيمان التي تحكم سلوك الفرد وتزعه عن البغي والعدوان الحب والشكر لله . وقد عرفنا هذين المعنيين من حيث هما دافعان للعمل الجليل والنهضة الى المجاهدات العظيمة ، ولا حاجة بنا للعود الى شرح موجبات حب الله وشكره لدى المؤمنين وأوجه تأثيرهما عليه او نسبتهما الى عامل المسئولية والجزاء الذي يتوارد معهما في ذلك التأثير ، وحسبنا ان نذكر أثر الحب والشكر في ضبط المؤمن وكفه عن عمل الشر وعصمته عن العدوان على حقوق العباد .

فالحب — بما يدعو صاحبه للتزلف الى ربه والحرص على استرضائه — يحمله حملاً على التزام الحدود الشرعية التي فرضها الله على العباد ومراعاة الحقوق التي فصلها بينهم لأن في انتهاكها مجلبة لغضب الرب وسبباً للبعد عن جنابه والحرمان من الأنس بقربه . وكذلك يدعو الشكر الى وقوف المؤمن





عند حدود الله واستغلال القدرات التي اسبغها تعالى بالوجوه التي يهدي اليها شرعه ، لأن من أبشع كفر النعمة وضعها في غير ماوضعت له والتقوي بها على معصية الرازق الوهاب وتسخيرها للفسوق عن أوامره : « قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين . » ( القصص ١٧ ) . ومن لم يرده واعظ نفسه عن بشاعة الكفران فإن الله يبين له عاقبة أمره عظة ورهبة : « ... ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب . » ( البقرة ٢١٠ ) ، « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار . » ( إبراهيم ٢٨ — ٢٩ ) .

فالحب والشكر داعيان قويان للتحري عن حكم الله في كل حال ليظهر وجه التقرب فيها من الله وابتغاء مرضاته والنفور من سخطه والمنظر في كل نعمة موهوبة ليستبين شرط الله في استعمالها . فإذا فقه المؤمن التزم حدود الله حيثما كان ، يضبط قدراته لديها فيكف اللسان ويغض البصر ويصرف السمع ويمسك اليد عن محارم الله ويوجه امكاناته وفقا لها مصرفا ماله وسلطته في طاعة الله .

ومن أجل هذا يرغب القرآن في مخالقة الناس بخلق حسن مرجياً بحب الله كما ينهى عن سيئه محذراً بالبعد عن الله والتعرض لسخطه : « ... ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين . » ( البقرة ١٩٠ ) ، « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . » ( آل عمران ٧٦ ) ، « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . » آل عمران ١٣١ ) ، « ... إن الله لايحب من كان مختالاً فخوراً . » ( النساء ٣٦ ) ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لايحب من كان خوانا أثيما . » ( النساء ١٠٧ ) ، « لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً . » ( النساء ١٤٨ ) ، « ... وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين . » ( المائدة ٤٢ ) ، « ... وكلوا

واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . » ( الأعراف ٣١ ) ، « ... ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . » ( القصص ٧٧ ) .

• • •

وتتجسد كراهية المؤمن للشر في بغضه لإبليس شيطان الجن . فذلك مخلوق غيبي مرد على عصيان الله ، وكان فاتحة تمرده ان اتيحت له حرية المشيئة مثل الإنسان ، فلما خلق الله الإنسان وسواه ونفخ فيه من روحه وألهمه من علمه أمر إبليس كما أمر الملائكة ان يسجدوا لآدم تكريماً للبشرية ، فأبى ابليس استكبارا وحسدا وآلى هو وقبيلـه أن يلازم الإنسان ليغريه بمعصية الله ويكون عوناً له فيها حتى يستويا على المعصية وفي الطرد من رحمة الله وتبطل كرامة ابن آدم عليه . وبذلك انتصب الشيطان عدوا للإنسان وداعيـة الى الشر ، فالمؤمن يتبرأ من موالاته ويجاهد إغراءاتـه لئلا يزيغ عن أمر الله : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون . » ( البقرة ١٦٨ — ١٦٩ ) ، « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . » ( الأعراف ٢٠٠ ) ، « وإذ قلنـا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا . » ( الكهف ٥٠ ) .

**٣ — المسئولية الدينية :**

لا يستقيم تصور المؤمن لمتاع الدنيا ولعلاقاته بالبشر ولا تكتمل صلته بربه إلا بالإيمان أنه مبتلى في الحياة الدنيا ومقبل بالموت على لقـاء ربه ليسأله عما قدمت يداه ويجزيه حسناً عن الإحسان وسوءاً عن الإساءة : « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . » ( الأعراف ٦ ) .

ولقد قدمنا كلاماً في الإيمان بالجزاء من حيث أثره في دفع المرء للعمل والجهاد وإنما يعنينا في المقام الحاضر أثره في ضبط الميل الى الشر وكف السلوك





المادي على نظام الحياة وما يتضمنه من حدود الله وحقوق البشر [illegible] ما قدمنا في السياق الماضي من بيان لأصول المسئولية الدينية ولموجبات الإيمان بالجزاء ووجوه تأثيره على سلوك المؤمن .

وإذا كان لرجاء الجزاء بالحسنى الأثر الاوضح في دفع المؤمن للعمل الصالح الجليل فإن الخوف هو الذي يتبادر إلى المرء لأول وهـلة وازعاً عن قصد الشر ومانعاً من الإقدام عليه — لأن الذي يهم بالعدوان إنما تحثه شهوة ملحة يريد ان يقضيها او غضب هائج يريد ان يشتفي منه ، فإذا عرض له اعتبار العذاب الذي يستقبله جزاء وفاقاً أحدث له خوفاً يغلب الشهوة والغضب ويرجع عنده اتقاء الموقف الذي كان يتهيأ له . والحقيقة أن ما يبدو لنا من ذلك إنما ينبني على ما نألفه من نظم الجزاء الاجتماعية . فالعهد بالمجتمع حين يعجز عن الافتداء من الشر بأن يعطي كل فرد يهم بالعدوان أو يعـده حتى يرضيه ليثنيه عن همـه — ان يلجأ لتسليط الخوف ليرتدع طالب الشر ويرهب مغبـة عمله ، ولكن الله يبسط الوعود الوافيـة من خزائنه الكافية التي لا تنفد كما يبسط المواعيد بعذاب محيط .

فالرجاء والخوف يتشاطران في التأثير على المؤمن حتى يصبح تقيا — يصرفه الرجاء عن الشر لأن في الأجر الموعود عوضا جميلا عما يتطلبه بطريق العدوان فهو من رجائه يشتري الآخرة بالدنيا ويصبر عن قضاء شهوته العاجلة طمعاً في آجلة أوفى وأبقى ، ويردعه الخوف لأن النفـع المرجو اختصاماً من حقوق الآخرين او تعدياً لحدود الله يقابله في العاقبة عذاب شديد إذا قدره الخائف وطرحه من حساب المتعـة العاجلة كان حاصل أمره خسراناً مبيناً . ولكن رحمة الله أغلب من غضبه وأجره اوسع من عذابه ، فهو يجزي المؤمن حسنة كلما كف نفسه عن السوء ويجـزل له العطاء بقدر ما تعظم الفتنة فيغلبها بالصبر والتقوى ، ولكنه العفو فلا يعاقبه على بوادره اليسيرة المستكرهة إلا إذا وقع في الحرام . فرجاء الرحمة ينفرد بالتأثير داعياً للمرء الى جلائل الأعمال كما ينفرد نادباً الى ما دون ذلك من فضائل ومرغباً عن المكروه ، ثم تشاطره

رهبة العذاب في كف المرء من المحرمات : وهي المناهي التي يشكل ارتكابها تقصيرا كبيرا في قيم الدين وموازينه .

ويسعف المؤمن المسيء رجاؤه في رحمة الله فيدعوه لاستغفار ربه والتوبة إليه من قريب لينكف عن مقام السوء قبل ان تعتاده النفس فلا يتيسر لها منه انفكاك بعد . ومهما يسرف المؤمن في ظلم نفسه فإن باب التوبة لا ينسد في وجهه متى شاء ان يؤوب الى ربه . ولولا رجاء المؤمن المسرف في سعة حلم الله لأدركه القنوط فزين له التمادي في الاثم مدحوراً مخذولاً . وما يقلع المؤمن عن السوء نادماً لما فرط في جنب ربه عازماً على صدق الاستقامة فيما يستقبل إلا كانت له توبته زيادة قرب الى الله يزداد بأثرها صحة في دينه وكمالاً في تقواه : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . » ( النساء ١١٠ ) ، « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم . » ( الأعراف ١٥٣ ) ، « قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم . » ( الزمر ٥٣ ) .

فالرجاء يرفع المؤمن الى مقامات علية في التقوى لأنه يرغبه في فضائل الورع ودقائقه التي لا يخشى المرء في تركها عقاباً من ربه ولا عتاباً من الناس ولأنه يسعفه كلما وقع في مواطن السوء فيهيىء له متاباً الى حال تقواه بل يرتقي به الى خير منها .

ويكثر في القرآن من أجل ذلك ترغيب المؤمنين بالجزاء الكريم ـ يقدم لهم أو يؤخر ما اجتنبوا كبائر ما ينهون عنه ـ وتبشير المتقين بالحسنى لأنهم أحسنوا مراقبة الله في كل كبيرة وصغيرة : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً . » (النساء ٣١) ، «إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . » ( الحجر ٤٥ ـ ٤٦ ) ، « . . . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً . ذلك أمر الله أنزله



إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً . » ( الطلاق ٤ ـ ٥ ) .

بيد أن المؤمن مهما يكن رجاؤه لا يأمن أبدا من عذاب الله ويحيا مشدوداً بين الرجاء والخوف ـ كما ذكرنا في حديثنا السالف عن الجزاء . ويتلازم الخوف والرجاء في وعي المؤمن ويكتنفانه فينتشلانه من سيء الأخلاق ويكفانه عن محارم الله ، ويتحدان في وجدان المؤمن احساساً مرهفاً بالمسئولية في كل حال فيقيم المؤمن على التقوى ويلزم الورع حيث كان .

ولما كان جل الكلام فيما مضى دائرا على الرجاء فإن من المناسب ان نعطف هنا على عامل الخوف لنوفيه حقه فيكتمل الكلام في شعبتي الجزاء .

● ● ●

إذا نظرنا الى الجزاء الديني من وجه العقاب فإنا نلاحظ فيه ذات السمات التي وصفناها من قبل بصدد الكلام عن الرجاء وتبرز فيه كذلك نفس الخصائص التي يتميز بها عن نظام الجزاء الاجتماعي الدنيوي .

فمن ذلك ان الذي يهم بالسوء يخاف عذاب ربه في عاجل أمره وآجله ، فهو لا يأمن أن يباغته الله في الدنيا قبل الآخرة ومن حيث لا يحتسب فيهلكه أو يصب عليه سوط عذاب جزاء بما قدمت يداه . وذلك مصير كثيرا ما ينذر به القرآن الظالمين ويقص فيه من أمثال الماضين ما فيه الموعظة البالغة لمن يعتبر : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . » ( النمل ١١٢ ) ، « كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . » ( الزمر ٢٥ ـ ٢٦ ) ، « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذاباً نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . » ( الطلاق ٨ ـ ٩ ) .

ولقد رأينا من قبل ان فيما يعجل من الجزاء موعظة للمؤمن ليقلع عن التمادي في الاثم ويتنبه عن الالتهاء بطول الأمل ، وفيما يؤجل منه فرصة تتاح للتوبة قبل الممات . غير ان ما يقع بالإنسان في الدنيا من مساءة ـ كما يقع به من حسنى ـ لا يكون كله بمعنى الجزاء ، فقد يقدره الله من قبيل الابتلاء ـ ذلك أن الدنيا هي في المكان الأول دار عمل وأن الله لو عجل للناس العذاب بما ظلموا ما ترك على ظهرها من دابة : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا . » ( فاطر ٤٥ ) . وقد يقدم الله من ذلك شيئاً للمؤمنين كفارة تحجب عنهم من جزاء الآخرة ، وللظالمين خزياً معجلا لا يعفيهم من مؤجله ، ولكنه قد يمد للظالم في متاع الدنيا يستنفد له جزاء الآخرة ، وللظالمين خزيا معجلا لا يعفيهم من مؤجله ، ولكنه قد يمد للظالم في متاع الدنيا يستنفد له جزاء إحسانه القليل ويبتليه بذلك . فإذا كان يوم القيامة فذلك يوم الجزاء الأوفى : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . » ( الأنعام ٤٤ ) .

ويشمل الجزاء الرباني صورا من العذاب المعنوي والمادي تبعث في الإنسان كل وجوه الخوف وترهب كل الناس بشتى طبائعهم وأمزجتهم . فمنه ما يؤلم الظالم في جسده أو يفضحه في عرضه أو يؤذيه في نفسه أو يشقيه في علاقاته : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . » ( آل عمران ٧٧ ) ، « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . » ( الحج ١٩ ـ ٢٢ ) ، « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . » ( الزخرف ٦٧ ) ، « هل أتاك حديث الغاشية .





وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع . » ( الغاشيه ١ ـ ٧ ) .

وحساب الله وعد صادق محتوم وقدر واقع ـ لا مناص من مواقف الجزاء يوم القيامه ولا يغني المرء بين يدى سؤال الله ما قد يغنيه مع الناس . فلا يجدي التخفي في العمل ولا الفرار من العقاب ، ولا ينفع الافتداء والتشفع والاستظهار بذوي القوة كما هو معهود في الدنيا ، ولا يفلت المستكبر الذي تحمله قوته بمفازة من المسئولية الاجتماعية : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . » ( البقرة ٤٨ ) ، « إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . » ( المائدة ٣٦ ) ، « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون . » ( الأنعام ٩٤ ) ، « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . » ( فصلت ٢٠ ) ، « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه . » ( الحاقه ٢٥ ـ ٢٩ ) .

وتقوم يوم القيامة العدالة المطلقة وتوضع الموازين القسط ، فلا إجمال في الحساب ولا تقريب ، وإنما يجزى الجاني بكل ذرة من سيئات الأعمال في كل جانب من حياته ، وينسب العقاب ميزاناً دقيقاً إلى درجات الإساءة والظلم ـ لأن علم الله يحيط بكل عوامل التيسير والتعسير التي تكتنف الأعمال ولأن تقديره ألطف التقدير وحسابه أسرع الحساب . فحساب الله يشمل كبائر الإثم وصغائره : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا

ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا . » ( الكهف ٤٩ ) . ورقابته تعـالى تحيط بالظواهر والسرائر: «لله ما في السموات وما في الأرض وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير .» ( البقرة ٢٨٤ ) ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .» ( غافر ١٩ ) ، « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عمـلوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد . ألم تر أن الله يعـلم ما في السموات ومـا في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثـة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم . » ( المجادلة ٦ – ٧ ) ، « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبـير . » ( الملك ١٣ – ١٤ ) . بل إن الجزاء ينبني على حسب النيات والمقاصد في الأعمال لأن نية الإنسان هي كسبه المختار وتحصيله الحر بينما يقع عمـله الخارجي متأثراً بالظروف المواتية ، فإذا تعلق السؤال بالنية تكون المسئولية عدلاً وفاقاً للحرية المتـاحة ويكون الخوف الذي تبعثه بين يدي العمل وافياً في قدره بالتأثير على قصد العامل .

وكثيراً ما يحدث في قضاء الناس ان توضع المسئولية على غير الجاني أو يضاف إليه الجزاء . فمن أمثـلة ذلك التضامن في غرم التعويض عن الضرر ، ومنه – بوجه ما – بعض العقوبات التي تمتد آثارها إلى عيال الجاني كالسجن والغرامة . ولكن جزاء الله ينصب على الشخص الجـاني ولا يتجاوزه إلا لشريك أو معين بقدر نصيبه من المسئولية . ويستقل الناس موقفاً يوم القيامة فكل يأتي فرداً مستوياً ليحمل وزره لا يزره عنه وازر : « وكلهم آتيه يوم القيامـة فرداً . » ( مريم ٩٥ ) ، « ... ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ... » ( الأنعام ١٦٤ ) ، « ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى . . . » ( فاطر ١٨ ) . ويحمل الفرد لذلك نصيباً مقدراً من عقـاب كل سيئة دعا



إليها : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغـير علم ألا ساء ما يزرون » . ( النحل ٢٥ ) . فالخوف من الجزاء الإلهي ينشأ على وجه معتدل – يرتدع به الذي يهم بالسيئة لعلمه بأن الجزاء سيقع عليه عيناً لا يتحول ، ولا يتكلف البريء عنتا وحرجاً مما يجني الآخرون ما لم يسهم فيه إيجاباً أو سلباً .

وآخر القول في الخوف من الله أنه عظيم الوقـع على النفوس المؤمنة شديد الأثر على الحياة لأن عذاب الله أشد هولا مما يعهدون من شقاء الحياة ولأنه قد يقيم على المرء أبدا لا يفتر عنـه ولا يكشف : « وأما الذين شقوا ففي النـار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . » ( هود ١٠٦ – ١٠٧ ) ، « وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون . » (النحل ٨٥ ) ، « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . » ( فاطر ٣٦ ) .

# خاتمــة

## الضوابط الدينية : وحدتها وأثرها

### ١ ـ تناظم الضوابط :

إذا أحصينا العوامل التي تتوارد في حيـاة المؤمن لتروض هائجة الشهوة فيه وتضبط عادية السلوك وتكفه عن البغي والعدوان على حدود الله وحقوق الآخرين ـ لو أحصيناها ألفيناها تتخذ وجوهاً شتى وتحـاصر المرء من كل وجه . فمنها قواعـد والتزامات ترده من تلقاء نفسه بسبب تصوره لحياتـه وعلاقاته وذكره المتصل لربه ووعيه الحاضر بمسئوليته الدينية ، ومنها قوانين وتوجيهات توضع عليه من تجاه السلطة الحاكمة وأعراف وآداب تحيط به من قبل الوسط الاجتماعي . وإذا سبرنا مداها وجدناها تشمل كل نواحي الحيـاة وأحوالها ـ تنتظم خاصة علاقات الفرد وحياته العامة ، وتحيط بالأفراد جميعاً حيثما كان موقفهم ووضعهم في المجتمع . وإذا قـدرنا فاعليتها لقينا لهـا وقعاً شديداً على المرء ـ لأن منها ما ينبع من أصول الدين فيتقوى باعتقـاد المؤمن بأن الأصل في الدنيا الابتلاء لا المتاع وفي علاقات الناس الإخاء لا العـداء وبمواقفه في عبادة ربه من حب وشكر وخوف ورجاء ، ومنها ما يصدر عن مؤسسات الدين الاجتماعية فيتأكد ـ بعد اعتباره الديني ـ بالرقابة والجزاءات التي تنظمها الدولة أو يتخذها المجتمع .

ولا ريب أن هذه العوامل بكثرتها وشمولهـا وفاعليتها ذات أثر بالغ في



الحياة . ومما يعظم ذلك الاثر انها بالوحدة التي تسري فيها من أصولها الدينية الواحـــدة تتوافق في اثرها وتشكل منظومة متسقة تفي وفاء كاملا بحاجة المجتمع في ضبط سلوك الافراد ليتوافر لهم الأمن والطمأنينة العامة ولتتواكب أعمالهم في نظم واحد لا تتبدد فيه الطاقات بالفوضى ولا تتعارض بالعدوان .

ولا يتم لمجتمـع غير ديني ان تتوافر فيه كل هذه الانمـــاط من ضوابط السلوك ـ لان غاية امره ان تسود فيه أعراف يتواضع عليها المجتمع وتدابير قانونية وسياسية من وضع السلطة الحاكمة ، فإذا طرأ عليه انهيار سيـاسي لم يبق له الا سلطان العرف ، واذا غشيته ازمة اخلاق لم ينتظم امره الا بقوة القانون . اما الدين فهو يرتفق بكل وسائل الضبط التي يتيحها القانون والعرف ثم يفضل عما سواه بالإيمان الذي يقرر طائفة واسعة المدى من قواعد السلوك ويركب في نفس الفرد عوامل فعالة تجعله يرعى حدود تلك القواعد طوعاً ولو غابت رقابة السلطان او تلاشت هيبته . فمعتاد الحال في المجتمـع الديني ان تنضاف ضوابط القـــانون والعرف الى مقتضيات الورع الذاتي لتحيط بالمرء وتحط عليه قوة تأثير جليلة .

• • •

وأيا كانت المؤثرات التي تتوارد على المؤمن وتضبط سلوكه فإنها في اطار الدين تنتظم في عقد واحد وتتصل بمنطق واحد الى سائر المعاني التي توجـه الحياة . فالحياة كلها عند المؤمن تندرج في معنى واحد هو عبادة الله الخالصة من شوائب الشرك ، والمنهج الذي يتحقق به هذا المعنى هو الدين الذي شرعه الله الفرد الصمد فهو لذلك الدين الواحد الذي لايعتريه التناقض والاختلاف . فالمبادىء الموجهة للحياة والدافعة للعمل والانتهاض ، والمبادىء المنظمـة للسلوك والداعية للالتزام والانضباط الاخلاقي ، والمبادىء التي ينبني عليها المنهج التأسيسي لنظم المجتمع وعلاقاته ـ كلها تنبثق عن اصل واحـد . وسنعود الى بسط الكلام في هذا المعنى الكلي ، ولكننا نعنى هنا بشعبة

منه — ذلك ان القيم التي تتوخاها قواعد السلوك في المجتمع المؤمن واحدة لاتتناقض مهما اختلفت صور الضوابط التي يتأثر بها الانسان لانها ترجع جميعاً الى مبادىء الشريعة واحكامها ومن ثم الى أصول عقيدة الإيمان .

فالتقوى التي يتكلفها الفرد المؤمن من نفسه إنما قوامها هدى الشريعة المأثور في أحكام المعاملة وما يفرّع المؤمن عنها من مواقف عملية مسترشداً بفقهه مستفتياً نفسه التي تمتلىء جوانحها بروح الدين . أما الضوابط التي يقيمها عليه المجتمع فهي ناتجة عن احكام قانونية تمثل نصوص الشريعة المباشرة واجتهادات الفقهاء المستنبطة قياساً عليها او استطراداً من حكمها ومقاصدها أو عن آداب اجتماعية تشمل — أولاً — سنن للسلوك الشرعية المأثورة وما لا يكون منها موضوعا للتنفيذ القضائي — بوجه خاص — وتشتمل في المكان الثاني على اعراف خاصة استمدت من حكم الشريعة ومعانيها وفاء بحاجات الواقع الاجتماعي وأحواله الظرفية المعينة . فالمرجع في ذلك كله هو الشريعة او هو العقيدة بحسب النظر تفصيلا الى مضمون قواعد السلوك او إجمالاً الى وجهة نظام السلوك ومغزاه .

ولا تكاد الدواعي المختلفة لانضباط السلوك وانتظام الحياة تتناسب في نسق وثيق وتكون لآثارها وجهة واحدة الا اذا قامت الحياة على الدين الصحيح . ذلك ان من السمات اللازمة للمناهج الوضعية الجزئية والاختلاف لانها كما ذكرنا كثيرا بنات فكر بشري ناشىء عن علم قاصر رهين بالظروف المحدودة أسير لميول النفوس واهوائها لايتناول الحياة الا ببعض وجوهها ولا يعالج مسائلها الا على التخمين ولا يحتكم الى اصول اجتماعية منضبطة . فالبناء الاجتماعي الوضعي يقوم لذلك على التلفيق والتوفيق بين مفهومات جزئية متباينة متبدلة تعكس اختلاف الظروف والآراء التي نشأت عليها .

أما المجتمع المؤمن فإنه يجمع على نهج فكري واحد ، فقيمه الاساسية مستمدة من العقيدة التي يدين بها كل فرد وهي لذلك مقبولة مرعية من





جمهور الناس لا يختلفون عليها لأنها حكم الله الذي لا يعتريه الباطل ولا يشوبه الظلم وليست في شيء من الأهواء والمصالح الفردية والطبقية والطائفية . ثم إن تلك القيم ذات الأصل الواحد متسقة الأثر مهما تعددت صور الضوابط السلوكية المستنبطة منها . فما يدعو إليه الضمير المؤمن وما يقتضيه القانون وما يستحسنه المجتمع من قواعد السلوك تتجه كلها بالحياة وجهة واحدة . فحيث تتطابق كلها في مجال من الحياة تتوافق ويؤكد بعضها بعضاً ، وحيث يختص كل بمجاله المناسب تتكامل ويقوى بعضها اثر بعض . وبينما تتحد القيم وتتماثل قواعد السلوك في ظل الدين تختلف القيم وتتناقض مقتضياتها العملية في المجتمع القائم على الأهواء الملفقة ، ويؤدي هذا الاختلاف إلى تناسخ القيم وتطارح الالتزامات الخلقية ، ولا يكاد المجتمع ينفك من الشعور بأزمة في أخلاقه لا يقر له معها قرار ولا يهدأ بال ويظل يخسر طاقات كثيرة بتعاكس مسالك أفراده واتجاهاتهم وعدوان بعضهم على بعض مما ينتقص جهده الجماعي ويثقل حركته ويضعف نهضته .

• • •

ويتصل بما تقدم أن قيم الدين في السلوك ثابتة لا تتقلب . ولا يعني ذلك بالطبع أن ضوابط السلوك التي تقتضيها تلك القيم تجمد بجذافيرها على هيئة واحدة . بل منها مايثبت عبر ظروف المكان والزمان — وذلك عنصر الدوام والوحده في مظاهر الحياة المؤمنة ، ومنها ما يتغير تبعاً لحاجات الواقع المتغير بينما يظل محكوماً بنفس القيم — وذلك هو عنصر المرونة — إذ يصوغ المؤمنون من قوالب السلوك ما يحقق قيمهم بأوفى الوجوه في واقع كل عصر ومكان لتبقى معاني الحياة الدينية ثابتة دائمة . أما المجتمعات الوضعية فمنها ما تضطرب فيه القيم من طور إلى طور حتى لا يبقى له من ماضيه قاعدة يؤسس عليها مستقبل حياته ، ومنها ما تجمد فيه مظاهر السلوك والحياة وتصبح مقدسة برسمها وشكلها ولو تبدل الواقع الذي استدعاها وغدت في الظروف الجديدة

مفرغة من مضمونها السالف أو مؤدية لغير مقصدها الأول معيقة للتقدم نحو المثل المعتمدة .

٢ – شمول التكليف :

مما يميز النظام الذي يقوم في المجتمع الديني لضبط السلوك أنه واسع المدى كامل الإحاطة بالإنسان . فالإنسان في طبعه المعتاد ذو شخصية موحدة هي القاعدة المشتركة لوجوه حياته كافة تجعلها وحدة لاتكاد تنفصم – عمل الجوارح ينبني على النية المطوية ، وعلانية المرء لا تنفك عن خاصته ، وخطواته المعنية تندرج في وجهته العامة . وكل محاولة لضبط جانب من حياة الإنسان دون الآخر هي خطة بتراء لا تحقق إلا أثرا منقوصاً . لكن ذلك هو شأن القانون – يكتفي مهما تكاثرت احكامه بقواعد معدودة عامة قاصرة على ظاهر السلوك لأن امكانات التشريع ووسائل الرقابة والجزاء المتاحة للسلطان لا تأذن بما وراء ذلك . وقد يكون العرف الاجتماعي من بعض الوجوه أدق أحكاماً وأوسع مدى ، ولكنه محدود بذات الحدود المذكورة . وكلا العرف والقانون مقيد بحدود المحيط الاجتماعي الذي نشأ في وسطه . أما الدين فإنه يخاطب الإنسان جملة واحدة بلا حدود ، فعندما تقف وسائل القانون والعرف يظل أثر الإيمان والمسئولية الدينية مصاحباً للإنسان لا ينفك عنه البتة . ولما كان العرف والقانون الديني مبنيين على هذه الخطة الشاملة فإنهما يكونان دائماً أوسع نظراً من الأعراف والقوانين الوضعية – يبدو ذلك في معالجتها لجميع شئون الحياة سياسة واقتصاداً واجتماعاً ، وفي وفرة المبادىء ودقة الأحكام وثراء الفقه ، وفي الموازين الإنسانية التي تسمو فوق العصبيات الأرضية والقومية الضيقة .

ومن طبائع الأشياء ان الضوابط الاجتماعية الشرعية على اتساعها واقفة بأثرها حيث تنتهي إمكانات التطبيق العملية لأن تنفيذها موكول إلى البشر من أئمة المؤمنين وعامتهم ، ولكن الله رقيب على كل شيء مهيمن على كل نفس





برهبة عذابه وبرجاء رحمته ومعاني ربوبيته حاضرة لدى المؤمن في كل حال تملؤه بدواعي الحب والشكر ، فأوامره جلّ شأنه لا تتقيد بحدود ولا تختص بجانب من الحياة :

• • •

إن دواعي التقوى في الدين تتجه إلى عمل الإنسان بجملته – أصوله النفسية وعناصره المحسوسة – فالتكليف ملازم للعمل منذ ان ينشأ حديثاً داخل النفس ثم يستوي نية وعزماً إلى ان يتجسد بحركة الجوارح في الظاهر فتتم آثاره في واقع الحياة . فبينما يقتصر التكليف الدنيوي على ذيول العمل الظاهرة للناس ، ينبني التكليف الديني على تقويم كامل للعمل موكول حسابه إلى الله الذي هو على كل شيء شهيد يرى خلجات النفس كما يراقب حركات الجوارح ، فإذا حدثت المرء نفسه بالسوء فصرف ذلك الهم أثابه الله وإذا أنفذ همه جازاه بما اجترح .

والحق أن أحكام السلوك فرع كلها عن معنى العبادة لله وهو معنى كلي يقتضي التوجه إليه تعالى بالحياة كلها لا يشرك معه فيها ولا يختص منها دونه ، فلا وجه لأن تقتصر طاعة الله على ظاهر الحياة دون باطنها ولا على المشهود منها دون المستور . ثم إن الدين يعوّل كثيراً على تربية النفس وتزكيتها باعتياد العبادة وصالح الأعمال وبالتجافي عن السيئات حتى يستأصل منها أصول الشر وتنطبع بالتقوى الصادقة ، فهو لذلك لا يكتفي من المرء بأن يكف جوارحه عن الشر ونفسه خائضة في أوحاله ، ولا يتحاشى في تكاليفه مستور الحياة لينصرف المرء عن الشر في مشهورها ويعكف عليه فيما وراء ذلك – لأن المرء حينئذ لا ينفك عن الشر ولا تزداد نفسه إلا إلفة لدواعيه :
« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » ( مسلم ) .

فالمؤمن يحيى حياة خالصة للخير في سبيل الله يصلح أصل نفسه بالخروج

من الكفر إلى الإيمان ثم تلازمه دواعي الإيمان في كل عمل ، فهو في حضرة الله أبدا وبين يدي كل موقف – يسلك مسلك التعبد والحب والشكر ويتجافى عن وجوه المعصية والكفر ويزن أمره بموازين ربه ، ويقدر حساب الجزاء فيه ليتوخى أسباب الأجر ويجتنب أسباب العذاب : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . » ( يونس ٦١ ) . والمؤمن – من يقينه بأن الله على كل شيء رقيب له على العبد حجة وبينة من ذات جوارحه – لا يلتزم في مشهده عن نفاق ورياء ، بل يصدق بسره وعلانيته وبما يختص به أو يشهره على الناس ، فتطيب أعماله ظاهراً وباطناً وأصلا وثمرة ويستزيد من كل موقف يهجر فيه الشر صقلا لنفسه وتمكيناً لمعاني الورع فيها ، فإذا وقع في الشر عاد على نفسه يقوّم عوجها بالتوبة والتربية .

فبالدين وحده تتصوب المؤثرات المصلحة إلى أصول النفس وتصاحبها في كل حال حتى ينحسم داء الشر من أصله . ذلك بينما ينشغل القانون بملاحقة الأعراض دون الأمراض فلا تنقطع لها شأفة بل تتجدد وتتضاعف بمختلف المواضع والأشكال ما دام أصلها يستوطن في النفس ./ وبالدين وحده تدرك الإنسانَ دواعي ترك الشر حيثما كان فلا تغادر مجالاً من الحياة إلا طهرته ، بينما يقنع القانون في خطابه بتنظيم مجال ويهمل ما سواه ويدرك بجزائه بعض الاعمال ويفوته غيرها ، وهكذا تجوز عليه أغلب أعمال البغي والشر وتذهب بالنظر إليه بغير جزاء لأنها تخرج من مدى التكليف المحدود أو لأن صاحبها يفلت بها من رقابة القانون أو من انطباق البينات المطلوبة او لانه يستقيم بشكل سلوكه مع حرف القاعدة القانونية ثم يلتوي بالحيل إلى مقاصده الشريرة . بل كلما تكاثف القانون لسد الذرائع والثغرات تفنن النـــاس في التدبيرات الماكرة وفي الإسرار بالمخالفات . وقد يتسنى المجتمع بتشديد رقابته وتدقيق احكامه ان يحاصر ظاهرة ما من الشر ، ولكن ذلك لا يغني في جملة الحياة إلا





غناء قليلا – إن لم تتولد عنه ذاته صنوف أخرى من الشرور ولا يزال هذا هو عهد المجتمعات بالقانون – لأنه يقف عند اصلاح الظاهر ولا يتوجه مباشرة لإصلاح النفس ، فهو لا يعاقب على الطوية السيئة ما دامت الافعال مشروعة في شكلها ، وهو لا يملك ان يثيب عن ترك السيئة بل لا يستبين إن كان ذلك عن غفلة او عجز ام عن نية خيرة ، ثم لأنه تبعاً لقصور رقابته لا يمس الا قشرة الحياة ولا يعالج الا شطراً منها فتستشري فيماوراء ذلك الشرور حتى تعود على بقية الحياة فتعديها .

• • •

وكما يحيط التكليف الديني بالأعمال من حيث اسطحها واعماقها ، يشملها أيضاً من حيث القدر والخطر دقائقها وجلائلها . فالتكليف الاجتماعي محدود لا يتيسر له ان يحتوي إلا قواعد معدودة يتوخى بهـــا أعم وجوه السلوك وأهمها ، ولكن صغائر الأعمال قد تبلغ بجملتها المضاعفــة ان تلحق ضرراً ملموساً بالمجتمع وأفراده ، ومحقرات الآثام قـــد تتكاثر على نفس الفرد فيتراكم عليها الرين حتى تتهيأ لكبائر الآثام وقـــد تشيع وتتكاثر حتى تحصل منها آفات مستعظمة . والدين وحـــده هو الذي يحوط الفرد والمجتمع من ذلك الخطر ، لأن الفرد بإيمانه يحرص ان يرهن حياته كلها لعبادة الله لا يستثني لحة منها ويقدر أنه مسئول عن كل صغيرة وكبيرة ويعلم ان الله عليم بلطائف الأمور يحصي عليه حساب أعماله ويوفيه جزاءها ذرة بذرة : « ومن يعمـــل مثقال ذرة شراً يره . » ( الزلزال ٨ ) .

لكن عدالة الله تنسب الجزاء إلى قدر الأعمال ، فلا يعذب الله عبـــاده بالمخالفات ذات الشأن الزهيد التي لا تحدث بأحد ضرراً يذكر ولا تعود على صاحبها بأثر ذي بال – ذلك ان الإنسان لا ينفك عن الإلمام بمثل ذلك بطبعه ، فلو سلط عليه الخوف من العذاب لوقع في حرج عظيم . وذلك من رحمة الله ، لكنه تعـــالى لا يرضى لعباده مقارفة اللمم بل يدعوهم الى مجانبتها لئلا ينال

المؤمن مثقال شعرة من حق اخيه او ينقاد من اعتيـاد الصغير الى الكبير ، وهو من اجل ذلك يعد المتنزهين عن اللمم جزاء حسناً ومزيداً من رضوانه ، فيحثهم ذلك الرجاء على التسابق في الفرار من الآثام وعلى التنافس نحـو مقامات الورع . وتنعكس حكمة هـذا النظام الجزائي في مرونة احكام التكليف الشرعية . فمن المنهي عنه مكروه وحرام ، وبين الحلال وحـدود الحرام القطعية يمتد مجال من الشبهات ، ومن الحرام ما هو صغيرة وكبيرة أو فاحشة ، بل إن في الشرك والكفر والظلم والفسق كبيرا وصغيرا . فالله واسع العلم سريع الحساب يرتب الجزاء وينسبه الى العمل فيقدر العـذاب على حسب الإثم — يتدلى به كلما صغر الإثم حتى يعفو ثم يعطي على هجر المأثم أجرا ويعظمه بمدى ما تشتد الفتنة فيتباعد المؤمن عن الإثم .

وقد يكون من مثل هذا شيء فيما يعهده النـاس من الجزاء الاجتماعي إذ يصعّد العقاب بقدر بشاعة الجريمة . ولكن لذلك مدى جدّ محدود ـ لأن عظم الجريمة يقدر بموازين شكلية لا تعـدل كل العدل ، ولأن المجتمع مضطر للاغضاء عن الجنـايات الصغيرة التي لا تبلغ من الإضرار بحقـه ما يستدعي العقاب الموضوع أو التي تعم بها البلوى حتى يتعسر فيها الإحصاء والمراقبـة ولا يملك المجتمع ان يزهد الناس فيها فيبسط عن تركها أجوراً وافية .

فتعاليم الدين التي تضبط السلوك تشكل بجملتها سياجاً واقياً يحـوط الإنسان من الشرور ويرسم له معـالم الصراط المستقيم بدقة متناهية . ذلك لأنها تشتمل على جملة صالحة من المبادىء العامة والقواعد الفرعية مقرونة بشتى درجات الطلب والنهي فمن الميسور على المؤمن على هـدي منها ان يفتي نفسه بالحـكم المناسب ويقدر مغزى عمله وعاقبته ديناً فينتهي عن المنكر ويتوخى المعروف .

• • •

ومن صفة الشمول في التكليف الديني أنه لا يقتصر على الأعمال الواقعـة



في حياة الإنسان العامة أو الدائرة بين الافراد بل يخاطب الفرد في شأن علاقته الخاصة بالله كما يخاطبه في شأن علاقته بالنـاس . وذلك أمر يتميز به التكليف الديني ميزة واضحة عن التكليف الاجتماعي الوضعي — لأن كل هم المجتمع في الحالة الأخيرة هو ضبط العلاقات العامة بما يمنع المضارة والتظالم بين الناس ولا يكترث لما يتكلف به الإنسان بناء على عقيدته من واجبـات يأخـذ بها نفسه او حقوق يرعاها لربه . ولكن أوامر الله لا تقتصر على السلوك الاجتماعي ولا على المشهور من حياة الإنسان دون الخافي ، لأن رقابة الله محيطة لا يخفى عليه شيء ، ولأن عبادتـه تقتضي إسلام النفس وخلوص التوجه إليه حيثما يكون الإنسان : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً . » ( النساء ١٠٨ ) .

ولا ريب أن أغراض الدين تنتظم الدنيا والآخرة ، فهو يقتضي لاجـل ذلك ما لا يقتضي قانون لا شأن له الا اصلاح أمر الدنيا . ولكن من الوهم ان نحسب الاعمال التي يتوجه بها المرء الى ربه متجرداً عن الناس أموراً خاصة تستهدف الآخرة وحدها ـ لا تعني المجتمع في شيء ولا تثمر في الدنيا خيراً ـ لأن الدنيا والآخرة خط واحد من الحياة ، ولئن كان آجل الحيـاة خيراً من عاجلها فإن ما يجتهد فيـه المرء لإصلاح آخرته تصلح به دنياه أيضاً فضلاً مضافاً . فأداء واجبات العبادة شرط لازم لتغذية أصول الإيمان ، وهو بالتالي سبب في كل الآثار الاجتماعية الطيبة التي نرجوها من الإيمان ، كما أن التفريط في العبـادات سبب في فوات تلك الآثار . وكذلك فإن قواعـد التكليف الديني التي تقتضي رعاية حدود الله ينبغي ان تحتسب في الدنيا وجوها لجلب الخير ودرء الشر لأنها تربية لشخصية ذات إحساس مرهف بالمسئولية الدينية وبالصـلة الوثيقة بالله — شخصية تنكف بتلك الدواعي عن كل الشرور والآثام .

والنظام الوضعي لايعرف من ذلك النحو الا وسائل التربية والتوجيه القاصرة التي تعالج الفرد ليرعى حدود الجماعة وقيمها من نفسه ، ولكنه نادراً ما يسخر من أجل ذلك الجزاءات القانونية الفعالة لأنه لايملك سلطانا على ضمائر الناس . بل لايباح للمجتمع الديني نفسه ان يحاول السيطرة بالقانون على ضمائر الناس وعقائدهم . ولكن الدين يدعو لأخذ النفس بحدود الله وحقوقه ولمحاسبتها قبل يوم الحساب ، ومن خلال استجابة المؤمن لداعية الدين واتقائه حرمات الله التعبدية تزكو نفسه فيتقي الله في علاقاته بالناس .

فمن ضوابط السلوك الدينية مايرعى حقوق الله — اذا تجاوزنا في هذه التسمية ان لله حقا في كل تكليف ديني مشيرين الى ماهو مجرد من حقوق البشر المباشرة ومنها ما يرعى حقوق البشر — وهذا من مثل مايرعاه القانون بالمدى المحدود الذي أوضحناه . ومن تلك الضوابط مايؤسس حقوقاً عامة قد لايترتب على الاخلال بها ضرر عيني مباشر ولكنها تضر او تحتمل الإضرار بحقوق الآخرين بوجه عام ، وذلك كأعمال النفاق والكذب التي قد لاتسلب حقا لأحد والتي لايجعل لها القانون اعتباراً كبيراً . فالدين إذاً يتسع في خطابه للفرد ويؤسس بتكاليفه كلها قاعدة نفسية متينة من التقوى والورع .

● ● ●

وبعد ان استعرضنا طائفة من وجوه تعلق التكليف الديني بجميع الاعمال بقي أن نقرر انه كذلك يشمل العاملين جميعاً ، فحيثما كان وضع المؤمن في الحياة كان مسئولاً عن جملة ما يليه من حدود الله وحقوق العباد — ذلك هو نصيبه من التكليف أمانة أسندت إليه بقدر الله ليحفظ شرطها ويوفي حقها : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته »





البخاري ) . ولاتسري موازين المسئولية بهذا الاطراد والاستواء إلا في الدين . فالمسئولية الاجتماعية الوضعية مهما بنيت على العدل لاتقع على الشريف كما تقع على الضعيف ولا تهيمن على أصحاب السلطان الموكول إليهم بتنفيذ جزاءاتها كما تهيمن على احد الرعية . وتقوم حدود المجتمع الوضعي حدوداً لسريان قوانينه وأعرافه فلا يجد الأجنبي اعتباراً سوياً فيها . لكن الدين ليس من هذا القبيل في شيء — لأن عدالة الله لاتفرق بين العباد ولا تعرف الحصانات والامتيازات ، ولأن نفاذها موكول الى ملائكته الغلاظ الشداد الذين لايغالبهم أحد ، فلا تغني من حساب الله قوة مال ولا سلطان .

فخطاب الدين لذلك يسري على الناس على سواء ايا كانت اوضاعهم الاجتماعية — أقوياء او ضعفاء ، ولاة او رعية . ولا غرو أن تمثل ذلك في احكام المسئولية الشرعية التي يقوم بها المجتمع المؤمن ، فكان ان عرفت البشرية الأحكام السلطانية او القانون الدستوري الذي يعلو فوق الحكام فيحدد سلطانهم ويضبط أعمالهم ، عرفته اول ماعرفته بأمر من الدين .

ثم إن الدين يخاطب الانسان بقواعد ثابتة حيثما كان وتجاه عباد الله جميعاً : « اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » ( الترمذي ) . فموازين الاخلاق فيه مطلقة لا تتقلب بأثر العصبيات الضيقة ولا تميز بين القريب والبعيد والمواطن والغريب : « ومن اهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . » ( آل عمران ٧٥ ) ، « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . » ( المائدة ٨ ) ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. » ( الممتحنة ٨ ). وقد يكون للقرابة والمواطنة ولوحدة الدين اعتبار في مضمون الواجبات

والحقوق التي تنشئها تلك العـــلاقة المخصوصة ، ولكن الحقوق والواجبات الاساسية مادة لازمة للعلاقـة بكل إنسان من حيث هو كذلك ، فلا يستباح دم الغريب ولا ماله ولا عرضه بالباطل ، ولا يجوز قول الزور أو الظـلم في القضاء تبعاً لأهواء العصبية .

وليس غريباً لذلك ان نشأت أحكام السير – أو القانون الدولي – التي تعلو فوق الدولة وتقرر الوفاء في علاقات الدولة والالتزام في معامـــلة الرعايا الاجانب ، نشأت أول عهدها في إطار الدين .

٣ – قوة الدواعي لالتزام التقوى :

لا يخفى – بعد النظر في وحدة الضوابط الاجتماعية الدينية وشمولها – مالها من أثر جليل في الحياة بيد ان ذلك لا يقدر حق قدره دون اعتبار لقوة فعلها في نفس الإنسان وشدة وقعها من ثم في حياته . وإنمـا يكتسب الدين هذه القوة من كثرة الوجوه التي يهيمن بها على نفس الإنسان ويتحد مع فطرته حتى تنصاغ شخصيته في قالب من الدين وتنطبع بسماته .

فالحدود والنواهي التي يشرعها الدين إنما تمثل مقتضى العقيدة التي تقبلهـا المؤمن إذ آمن ، فمن تلك التصورات التي انعقدت في نفس المؤمن لمعنى وجوده وصلته بربه وعلاقاته بالآخرين تنبثق الوجهة العملية لسلوكه في الحياة ، ومن هدى تلك الوجهة تبرز كليات التكليف الشرعي ثم تضبط فروعه واحكامه . فالمؤمن الواعي يجد نفسه وقافاً عند حدود الدين منتهياً عنـد حرماته لأن ذلك يلبي دواعي نفسه ويصادف اتجاهاتها .

فإذا انبعث من طبـــع الغريزة البشرية داعي الشهوة يحرك الإنسان إلى ركوب الشر ابتغاء لمتاع الحياة وعرض له الشيطان يزين له البـاطل ويمنيه انبعث داع آخر من فطرته التي زكت بالإيمان يصور له المتاع ابتلاء ويوجهه إلى ابتغاء وجه الله ، وإذا صدق الإيمـان كان المتصور الحق ساطعاً في نفس الإنسان ينخسف معه تزوير الشيطان وكان داعي العبادة غالباً ينحسر دونه





داعي الشهوة . وهكذا تنضبط جوارح المؤمن وتتحكم حركاته وفقاً لأوامر الله لأن ذلك ما يجـده من تلقاء نفسه على ذات النحو التلقائي الذي يتحرك به الكافر الذي انغمرت في فطرته منابت الإيمان وطغى نبت الغرائز حتى عربد به الشيطان وغدت نفسه أمارة بالسوء وجوارحه مطواعة يسارع في الشهوة كما تسارع البهائم .

ولا تقتصر العقيدة على ترسيخ معنى التقوى والتعبد لله حباً لذاته وشكراً على نعمائه ، وإنما تنطوي على الإيمان باليوم الآخر وبالجزاء . وإذا ركز الشعور بالمسئولية الدينية لدى الإنسان حدث انقلاب هائل في تقديره لوجوه المصالح فيما يفعل ويترك . فسعي الإنسان يكاد يكون كله رهناً بجلب المنـافع ودرء المضار ، وكلما ارتقى عقل الإنسان اتسع حسابه لجملة مصلحته واختط حياته بما يقدم البذل ويرجىء النفع القليل نظراً للعاقبة الفضلى . وإنما يبلغ الإنسان منتهى رقيه بالإيمان – إذ يحمل حساب حياته كلها أولى وأخرى ويستنكف عن متاع زهيد يلتمسه غيره في مراتع الحرام من أجل العوض العظيم في نعيم الآخرة ، ويصبر على شقاء قليـل يجلبه فوات الشهوة اتقاء اشقاء عظيم مقيم يوم القيامة .

واستشعار العبـادة والمسئولية الدينية لدى المؤمن هو أمتن أساس يقوم عليه الالتزام الاخلاقي وأقوى عامل يضبط سلوك البشر – يبدو ذلك واضحاً في النظر العقلي ، ويثبته واقع تاريخ الإنسان . فمعاني الدين ظلت أبدا خير ما يحتكم إليه الناس في موازين الاخـلاق ويتقبلون حكمه بإجماع ، وخير ما يبعث الدواعي القوية للالتزام بتلك الموازين التزاماً مخلصاً يسري على طوية المرء وعلانيته وكاملاً ينتظم دقائق شئون الحياة وجلائلها .

• • •

بيد ان اثر الدين لا يقف عند هذه المعاني وإنما يتقوى أيضاً بكل المعاني التي تحمل على مراعاة قواعد السلوك في الدنيا .

فقد يرعى الناس قيم الاخــلاق لأنها مقتضى المصلحة العامة . إذ حين تتكسر أطر السلوك يختل نظام المجتمع وتعطل من جراء ذلك مصالحه العامة ، وتضطرب علاقات الافراد فيفتقد كل منهم أمنـــه وطمأنينته ، بل يتعسر التعامل جميعه في مجتمع لا يستقيم أفراده على نمط من السلوك معلوم . وقــد لا تبدو للفرد أحياناً جدوى بعض القواعد الاخلاقية ووجه تحقيقها للمصالح المقدرة أو لا يقدر فيها مصلحة مباشرة ترجع إليه . ولكن الدين يقيم في الحيــاة نظاماً متكاملا تنتسب ضوابط أخلاقه نسبة وثيقة إلى دوافع نهضته وتبدو حدوده وقيوده شروطاً لازمة لتحرير حركته وسلامة تقدمه . ذلك بينما يقع في النظم الوضعية كثيراً ان يجمد النهج الاخلاقي وتتطور المصالح فيكون الحرص على ابتغائها خصما على توقير الاخلاق ونقصاً في مفعولها . ثم إن الدين يعقد للمؤمن سبباً مباشراً بين مصلحته العينية والتزامه التقوى – ذلك أنه يوسع تصوره لمصلحته فيرجو عاجلة خير ربما يجتنيها من حسن اخلاقه وعائدة خير مؤكدة لا بد ان توافيه في آخرته .

• وتستمد قيم السلوك قوة من تقادم العهد . يدرج الناس على فعل أو ترك معين ويقلد فيــه بعضهم بعضاً حتى يتعادوه ويصبح تقليداً متوارثاً وعرفاً موقراً . وحقائق الدين وقيمه أيضاً قديمة قدم الإنسان ، اودعت لأول العهد في فطرته قبل ان يكتمل العقل الواعي ، وتعاقبت بعد رسالات السماء تجدد أصل الدين الواحد وتصدق معانيه الأساسية الخالدة حتى ثبت بصورته الباقية بخاتمـــة الرسالات واستقرت من بعدها تعاليمه السلوكية وتمكنت في واقع المؤمنين سنة ماضية إلا ما يستحدث وفاقاً لها من تفاصيل ظرفية تتجدد هي وتبقى التقاليد الثابتة . ولكن سنن السلوك الدينية إذ تتقوى بطول العهد إنما ترجع إلى ضابط ثابت للخير والشر ، وذلك يعصم المؤمنين من ان تنشأ فيهم البدع الباطلة وتصبح بعد مدة تقليداً ماضياً : « وإذا فعــلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون . » ( الأعراف ٢٨ ) .





ويستمد الإنسان أصلاً للأخلاق من فطرته الاجتماعية . إذ يستشعر التحاماً في الشخصية مع أهله ومجتمعه ويندرج معهم في نطاق واحـــد من الوجود والعاطفة ، فيألف العادة التي يألفونها ويقدر القيم التي يقدرونها ويرى مصلحته في ذات مصلحتهم فلا يستأثر بحق أخيه ظلماً ولا يعتدي على حقه بغياً لأن أخاه امتداد له . سعده وألمه سعد له هو وألم . والدين أيضاً يبني أمة واحدة تقوم على الإخاء والولاء والاتحاد ، ويوحي للمؤمن تصوراً لعلاقاته بإخوانــه ويربي فيه عاطفة نحوهم يدعــوان للتراحم والإحسان وينهيان عن التبــاغض والعدوان . وإذا كان المجتمع من جانبه يؤكد سلطانه على أفراده برقابة وثيقة لضبط ظواهر الشذوذ عن النهج المعروف وبجزاءات شتى تعبر عن الاستحسان أو الاستهجان لسلوك الأفراد ، فإن المجتمع الديني ينطوي على مثل ذلك بل هو كما أشرنا سابقاً أبلغ في ذلك من غيره .

ويتلقى الإنسان قيمه أحياناً من الهيئة الحاكمة ويلبّي أمرها ونواهيها ثقة وانقياداً طوعياً ، ولكن السلطة الحاكمة تؤكد ذلك بإجراءات كثيفة لمراقبة السلوك وكشف المخالفات والتحري عن حقائقها من أجـــل إيقاع الجزاءات المناسبة ليرتدع الجناة عن التعدي على حقوق الأفراد وحقوق الجماعة . والدين كذلك ينظم قيام سلطة لولاية أمر المؤمنين يكون من وظائفها قيادتهم والقيام على أمنهم بملاحقة الجناة وتغريمهم عن الإضرار بالأفراد ومعاقبتهم عن الجرائم العامة .. الخ .

ولعل من الثابت أن كثيرا من انحرافات الأفراد إلى الشر مردها الى نظم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الظالمة التي لا تهيىء للفرد ما يفي بضروراته الملحة أو يكفكف من حدتها والتي تفرق بين النــاس فتملأ المهضوم غيظاً وحسداً وتسد في وجهه الأبواب المشروعة لنيل حاجاته واسترداد حقه على سواء فتدفعه دفعاً الى تعدي الحدود الموضوعة واقتحام الوسائل المحرمــة . والدين في الاحتياط لذلك أوفى وأحكم من كل مذهب ، فنظم الحكم التي يختطها

تجعل لكل فرد شركا في السلطة بانتخاب الولاة ومناصحتهم وتوطد ضمانات العدل والمساواة ، وعلاقاته الاقتصادية والاجتماعية تتيح للفرد متنفساً لحريته وحرماً لكرامته وماله وتكلّف المجتمع بأن يكفل له ضرورات الحياة وتؤمنه من الخوف والظلم والحرمان . ولقد يطيب المرء ان يستطرد ويستفيض في وصف النظم التي شرعها الدين ليتضح بجلاء كيف تفضل على أوضاع الجاهلية في سد ذرائع الشر وبث الأسباب الاجتماعية للظلم والاجرام وسوء الأخلاق . ولكن ذلك يتصل بالشريعة العملية التي لا تدخل في موضوعنا ، وحسبنا أن نقول انها شريعة رب يحيط بالناس رحمة وعلماً لنثبت أنها أكمل شيء في العدل وأتمه في رعاية حاجات الإنسان .

فبالدين تنضاف كل هذه العوامل المتقدمة الى عوامل الإيمان المباشرة بل تتحد معها في قاعدة متماسكة مدعّمة هي أصل الالتزام ، عليها ترتكز كل ضوابط السلوك سواء كانت حكماً قانونياً أو عرفاً اجتماعياً أو خلقاً تقتضيه نصوص الدين وروحه . وهذا التناصر بين شتى المؤثرات على السلوك لا يتم إلا في إطار الدين الشامل . فبغير الدين تتعطل العوامل الروحية جملة واحدة ، ويقع التعارض بين سائر العوامل من بعض الوجوه متناسخة بذلك آثارها . أما بالدين فتتحد في نفس المرء كل عوامل التقوى فتورثه قدرا جليلا من التورع عن الإثم والعدوان .

• • •

وينبسط في الحياة الدينية نظام للتربية كثيف الوسائل فعالها يذكر المؤمن بمعاني التقوى ويزرع شعابها في نفسه دعماً للقاعدة الأساسية التي يقوم عليها الالتزام الاخلاقي وترتكز عليها ضوابط السلوك . فمن ذلك جانب تتولاه الجماعة تربية للفرد على معاني الإيمان ومقتضياته في شأن العلاقات العامة . فالتدابير والاشكال التي يتخذها بناء المجتمع تذكر الفرد بالقيم الصحيحة التي ينبغي ان يقيم عليها هو علاقاته وينضبط وفقاً لها في سلوكه – تذكره مثلا





ان التفاضل ليس بالمال والجاه وإنما هو بالعلم والعمل الصالح وان تفاوت الحظوظ لا يستتبع اختلال علاقات الإخاء والاستواء بين المؤمنين . ثم ترعى الجماعة العضو فيها بالتربية المباشرة ، فهو محاط في صغره بأسرته تلقنه هدي الدين ثم في كبره ببقية إخوانه يعلمونه وينصحونه وبالدولة ترشده وتوجهه .

ولكن الفرد لا ينسى نفسه من التربية ، بل يتعهدها بالعبادات والآداب والأذكار المسنونة مما يعمق إيمانه بوجه عام ويبارك آثاره في حياته – يعصمه أصل الإيمان من الجنوح إلى الشر وترشده شعابه إلى بعض المعاني المباشرة في علاقاته بالناس . وإذا غلبته النفس ذات الشهوة الأمّارة بالسوء ذكر الله فاستغفر لذنبه وقوّم نفسه بالتوبة العاجلة لئلا يألف الشر فيتمادى فيه ويتعسر عليه بعدُ فطم شهوته .

وتزكو نفس الفرد بأثر التربية الاجتماعية والذاتية حتى يعتدل أمره ويسمو خلقه . فكلما يعرف ما يجوز له من تعلقات الشهوة ومطالب الغريزة فيقبل عليه ، يقرّ بواجباته نحو الله ونحو العباد فينضبط لديها ، وتتمكن منه التقوى حتى تغدو سنّة طوعية يميل إليها بحكم السجية ومن تلقاء النفس ولو لم تحضر في خاطره شتى التقديرات التي تدعو اليها . واذا كان من الذاكرين لازمه الطبع الميال الى الخير العزوف عن الشر وحضرته دواعي الإيمان ، فلا تنكف جارحته او ينضبط سلوكه الا عن نفس تقية ووعي صادق . ولا ينفك الذاكر يكتسب مزيداً من اعتياد الخير وتمكن الإيمان ، لان تقواه تتقوى بكل موقف يعرض فيه عن حديث النفس الامّارة ويكف جارحته بوعي وتقدير او يعاجل فيه بعد الخطأ الى الاستغفار والتوبة النصوح .

ومقام المؤمن من الورع بقدر ايمانه – يتنافس في ذلك المتنافسون ، فكلما عظم عند المؤمن شأن ربه وهان امر الدنيا وقدّر درجات الآخرة ودركاتها فرّ من مقام السيئات وتباعد عنه شوطاً بعد شوط يزداد فيها تقاة وقنوتاً . فإذا انحط درجة بخطيئة اكتسبها مضّه الندم وسارع في التوبة ليستدرك

تفريطه ويواصل معراجه الى ربه . فمن الأتقياء من يرهف حسّه لمعاني الايمان وتدق موازينه للأعمال حتى يغدو أشد محاذرة من المكروه والمشتبه من سائر المؤمنين للحرام وحتى يفزع من مقام الورع الذي يطمع فيه غيره ــ فحسنات الأبرار سيئات للمقربين. وإنما حـدود الشريعة الميسرة نهج واقعي اذا حصله المؤمن لم يقنط بعدُ من رحمة الله ، لكنه مندوب الى ان يجاهد حق الجهـاد ويتقي الله حق التقاة فهو ما يبرح يجهد جهده : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . » ( آل عمران ١٠٢ ) ، « سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنـــة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . » ( آل عمران ١٣٣ ) . وفي جنب المؤمن نفس لوّامة تلازمه بشعور التقصير عن المعيار الأمثل وتحضه لأن ينافس في سبيل الله ويسابق المؤمنين من أجل الآخرة ذات الدرجات العلى والفضل الكبير .

وإذا ما عمرت نفوس الافراد بمعاني الورع ولازمهم خلقه تجاه حدود الله وحقوق العباد وصاحبهم حيثما كانوا في خلوة أو ملأ وفي شأن حقير أو خطير ــ إذا استقام الافراد زالت ظواهر الشر والعدوان في المجتمع واصبح الخير سنته المعتادة وسعدت الجماعة بحياة طيبة آمنة مطمئنة .





# الفصل الثالث

## فضل الايمان في جوانب الحيـاة

## ( أ ) الحياة الاجتماعية

كان حديثنا المتقدم يتناول الإيمـــان من حيث أثره في الحياة عامة ، وانتهينا فيه الى ان الإيمان يمهد طريق الحياة للإنسان ويُحدث في نفسه حوافز النهضة لترقية حياته كما يقيم الإيمان جماعة متينة البناء قوامها الإخاء والاستواء والتضامن والولاء ثم يحقق صلاح ذات البين في المجتمع بإقامة موازين العدالة والاخلاق وتأسيس ضوابط السلوك الاجتماعي على قاعدة صلبـة تضمن حسن الالتزام . هذه هي بإجمال أفضال الإيمان التي تفيض في الحيـاة وتتجلى في جوانبها المختلفة . فلنعرض الآن لبعض تلك الجوانب لنفصل أثر الإيمان في إصلاحها وإعمارها بالخير الوافر .

**١ – تأليف المجتمع :**

لعل مما يستعسر على الإنسان في تجاربه الوضعية ان يؤسس مجتمعه فيهتدي فيه الى خطة عادلة بين أمر الفرد والجماعة ، فهو لا ينفك يتذبذب بين قطبي ذلك العدال . فمن المذاهب والنظم مالا يقدّر فيه وجود للفرد الا بالانتساب الى الجماعة ولا استكمال لذاته الا بالفناء فيها ، فيرجح الشأن العام على الخاص ، ويضحى الفرد ضعيفاً خسيفاً في كنف الجماعة يحترفه تيار المعتقدات السائدة فيها وتلوي به تقاليدها المعروفة وآمرتها الغالبـة وتنتهك حرماتـه وتهتضم

حقوقه . وإذا حرّجت الجماعة على الفرد شحت مبـادراته وتضاءلت نهضاته وقل كسبه وشركه في الأمر العام ، وإذا طغت الجماعة – وكثيراً ما يطغى فيها باسمها مستبد أو فئة ظالمة – ألقت في نفس الفرد أسباب الضغينـة من الشعور بالظلم فلا يتجاوب بعد بصدق مع داعيتها ولا ينصاع لنظامها ، وانما تضار بذلك المصالح المشتركة وتخسر الجماعة بأسرها . بيد ان أمر المجتمع يؤول ايضاً الى خسران اذا كان كفة نظامه مرجوحة من وهن بناء الجماعة او من جنوح الأفـــراد الى التفسخ والتفلت والتمرد طلباً للطلاقة والحرية المفرطة . وذلك ان المذهب او النظام اذا شطح في توقير ذات الفرد وتقدير حريته إنما يؤدي الى عموم الفوضى وانشلال وحدة الجماعة فـلا يتسنى لها ان تنال ما كان متاحاً لها باجتماع الشمل ، ويرتد ذلك على الافراد فلا يفوز أحد منهم الا بنصيب منقوص ، ثم ان العلاقات الاجتماعية هي قوام الفرد يستمد منها المادة لبناء ذاته وتعرف معاني وجـــوده ويعتمد عليها لتحصيل رزقه وحماية نفسه وكسبه ، فإذا انتقض حبكها أو وَهى أضير كل فرد في حياته وطمأنينته .

أما إذا أسس امر المجتمع على معاني الإيمان فإنه يقوم على عـدل واتزان تقدر فيه المصالح العامة والخاصة بسوية لا وكس فيها ولا شطط . ولقـــد سبق لنا بيان المعادلة الدقيقة التي ينصبهـا الدين في هـذا الأمر ميزاناً يحفظ للفرد كرامته الإنسانية ومدى حريتـه وخصوصيته ويحفظ للجماعة قدرهـا ومدى نظامها وسلطانها حتى يستقـيم امر المجتمـــع ويتبـارك سعي الأفراد متواكبين أعواناً نحو لقاء الله ليجد كل عنده الحسنى .

ولقد ذكرنا قبلا طرفاً من المواقف التي تقـوم بنفوس المؤمنـين فتدعوهم الى بناء الجماعة وتوثيق رابطتها والتوجيهات الشرعية العملية التي تؤكد تلك المواقف . وأوردنا في عدادها الإخـاء المنعقد بين المؤمنـين لوحـــدة الغـاية والطريق ، والمساواة التي يستشعرونها بتماثل شأنهم في العبودية لله ، والموالاة التي يتناصرون بها ويلتقون حول مركز وجود واحد ويبنون أمـة واحـدة




عزيزة من دون النـاس . وسنعرض فيما بعد للولاية السياسية التي تمثل وحدة الجماعة وتقوم على شأنها العام بوجه فعّال ولسائر النظم العامة التي تعصم الجماعة من أن يستبد فيهـا هوى الأفـــراد او تفتنها الطوائف المذهبيـة والطبقات الاقتصادية والعصبيات القومية .

ولقد تهيأ لنا كذلك ان نذكر كيف يقتضي الإيمـــان تخيير الإنسان في الدين تحريراً لوجدان المؤمن وتقديراً لخصوص شأنه مع ربه – إذ يتعين عليه تكليف خاص بحسب ظروفه المباشرة وبقدر وسعه ويثبت له حظه من الدين ومقامه في درج العبادة بقدر الاعمال التي اكتسبها ومدى الاخلاص والاحسان فيهـا ثم يوافى يوم القيـامة حسابه الفردي لايشاركه في الجـــزاء شريك . وأوضحنا ان ذلك يستتبع تكريم الفرد والعـدل له في نظام المجتمع ولكنه لاينافي قيام الجماعة على أساس متين . ذلك ان إيمـــان المؤمن لايتم إلا ألهمه مؤاخاة اخوانه في الدين وموالاتهم والاعـتزاز بهم ومبايعتهم على بنـاء صف واحد يتعاونون فيه على البرّ والتقوى وعبادة الله ، وذات البين التي تنشأ بين المؤمنين هي ذاتها مناط التكليفات التي تقع على المؤمن وأسباب المسئولية التي تترتب عليه ، فمن اخطر الوجوه التي يعبر بها الفرد عن عبادة ربه ان يلتزم تقواه في علاقاته الاجتماعية فيعظم واجبه في مراعاة حـــدود الله وحقوق البشر وحفظ نظام الجماعة وحسن الطاعة لإجماع المؤمنين .

وسنرى حين الحديث عن العلاقات السياسية والاقتصادية كيف تقـــوم الشريعة دليلا مفصلا لئلا يميل ميزان البنـاء الاجتماعي . فهي تصون للفرد حقه في أن يختص ببعض شأنه وان يدلي بدلوه في تصريف الشئون العـامة وان يجد في الجماعة الامن والعون والرعاية ، كما تصون للجماعة حقها على الفرد في أداء الواجبـات التي تليه والتزام الضوابط التي يقتضيها النظـام وسلطانها في ان تلزمه بذلك الزاماً .

فليس بين الفرد والجماعة سبب يدعو للتناقض والتجاذب ، لان في وحدة

الغاية الدينية واتخاذها عن رضى وقناعة مايؤلف بينها بأتم الوجـوه ، ولأن تلك الغاية تنصب بينها حكماً أعلى تستمد منه المعايير الضابطة حتى لايطغى الفرد أو تفرط عليه الجماعة . وهاتان ضمانتان لاتتوافران للجماعات التي تنشأ عن مجرد فطرة الإنسان المدنية او عصبيته الاجتماعية لأنها لاتحتكم من بعد الى ميزان يعصمها من الميل ولا للجماعات للتي تقوم على القهر لان أمرهـا مؤسس في أصله على الظلم .

• • •

وقد بانت لنا – عند الحديث عن مقومات الجماعـة المؤمنـة – خصائص تميز رابطة الإيمان عن سائر الروابط البشرية . فمنها انها رابطة رحبة الابعاد تتسع للناس جميعاً لأنها مؤسسة على الإرادة تجمع كل من شـاء ان يؤمن مهما كان أصله او وضعه ، ثم لان المؤمنـين في اعتصامهم بالله الواحـد لاتتعبدهم ظروف البيئة الفطرية ولا المصالح والاهواء البشرية ولا تفرقهم بعد ان وحدهم التوجه الى الله بل يتحررون من الولاءات الارضية ويهجرون الأطر الوضعية ليأتلفوا جميعاً إخوانا متوالين في رحاب الإيمان . ومنها ان جامعة الإيمان ثابتة تستقر بالمؤمنين مهما تقلبت الظروف وتجعل موكبهم موصولاً عبر الزمان ، وليس هي كبعض العلاقات المؤسسة على وحدة ظرفية ماتلبث ان تتبدل او على توافق طارىء في المصالح والآراء لاينعقـد بين البشر لزمن ما إلا لينتقض وتتشعب بعده الآراء وتتباين المصالح . ومنها كونها رابطة خاضعة لمبـدأ العبادة لله ، فليس في عزة المؤمنين وحمية الموالاة بينهم ولا في البأس الشديد الذي يؤتونه بنفوسهم المتوكلة وصفهم المتحـد – ليس في ذلك مايعميهـم ليصبحوا قوة هوجاء غير هادفة تنساق وراء كل ناعق وتتخبط بلا هدى او ما يطغيهم ليبطشوا في الارض جبارين ، بل هم قوة منضبطـة تحكمها معان أخلاقية سامية ، ثم منها اخيراً تأسيس الجماعة على هدي شريعة بينة تهـدي مسيرتها وتمكن في واقعها معـاني الدين الشـاملة كما تضبط علاقاتها الداخليـة بحكمة وعدالة . وبأثر من عقيدتهم وشريعتهم يقـوم المؤمنون لمن سـواهم من





البشر بالعدل ، فهم آلف الى الناس وأتقى في معاملتهم إذ يرونهم جميعاً أهلاً للدعوة الى الايمان والدخول في المؤمنين ويتقون فيهم الله رب العالمين .

• • •

ولنستعرض فيما يلي بعض أنماط من مذاهب البشر في تأليف المجتمع لنقايس بينها وبين خطة الدين في ذلك لنرى فضل العقيدة الدينية في هذا المجال من حياة الإنسان . والاجتماع البشري أخلاط من معان شتى لا يكاد يخلص فيه معنى واحد ، ولكننا لا نورد الا بعض هـــذه المعاني خاصين كلا منها بذكر منفصل طلباً للإبانة .

**ولاء العصبية :** جبل الإنسان ميالاً الى من تصله بهم قرابة في النسب أو المعشر او الموطن او من يماثلونه في اوضاع الحيـــاة ، فهو يسعهم بحبه لذاته ويمدهم امتداداً لوجوده ويجيش نحوهم بعاطفة الولاء والمحاباة . فإذا التفت طائفة من الناس بما بينهم من أواصر القرابة والمماثلة كان ذلك أدعى لتعـاظم تلك العاطفة لأن التحاوز يؤدي الى التناكر بين أصناف النـاس – يزدري بعضهم بعضاً وتغتر كل طائفة بأمرها وتحتصر علاقات التناصر فيما بينها وتكتفي بما ينشأ في بيئتها من تصورات وتجـارب مخصوصة حتى ينكفىء اهلها على أنفسهم من دون الناس ويحول ما بينهم من حب الموالاة والمشايعـة هوى طاغيا يعمي ويصم .

وحين يشرب الإنسان مثل هذه العصبية تنطبع بها قيمه ومعاييره فيعـد ما وافقها حقاً وما خالفها باطلا ، ويستوحيها في توجيه حياته فيقصر مساعيه كلها على ما يصلح ذوي عصبيته ، ويستمد منها مواقفه العملية فيتخذها حداً للمخالقة وقاعدة للتعامل مع الآخرين .

والعصبية مذهب غير مؤسس على الاختيار – اذ يلفى صاحبها نفسه مولوداً او موجوداً في إطارها مجروفاً بتيارهـا من غير ان يوجه مشيئته الى ذلك بقصد وإيجاب ، ويعسر على من لا تشمله ابعادها الطبيعية ان يدخل فيها ولو

صدقت إرادته . ثم هي حمية شعور ليست ذات مضمون فكري معين يعتنقه الانسان بوعي وعلم ويلتزم فيه بتكليف معين – الا الميل نحو أولياء العصبة وإيثارهم في كل شيء على الاجنبيين . وليست هي بمذهب كامل يرشد الانسان في حياته المختلفة لأنهـا عاطفة بسيطة تختص بالموالاة . بل لا تصلح اساساً لتوحيد بني الانسان لأنها – بحكم تعريفها – مقفلة لا تتسع لغير اهلها ولا مكان فيها للانسان من حيث هو كذلك ، ولا يكاد صاحبها يكنّ للآخرين غير العداوة والبغضاء لأنها تدعو لمناصرة الولي ظالماً او مظلوماً وتزين لاهلها ان حقهم في الوجود مطلق يطغى على كل حق لا دستور له ولا ضوابط ولا تسامح فيه ولا توفيق . ولما كانت العصبية عاطفة عميـاء فارغة فمن اليسير ان تستثار ثائرتها وتستغل لاي غرض يُلبس ثيابها ويصاح فيه باسمها . ولا غرو أن مثل هـذا المذهب يؤدي بأهله الى الجمود والهزال لانه يوصد من ابواب الاتصال والتعاون المثمر بين البشر . غير ان ظاهرة التعصب اغلب ما تكون سمـة لمرحلة تدعو ظروف الحياة فيها الى تعبئة الطاقات في إطار جماعة او طائفة محدودة لمواجهة تحديات العيش والدفاع . ومهما اشتدت العصبية فإنها رهينة بظروفها – اذ ما تتطور اوضاع الحياة الا تجاوزها الناس الى علاقات أرحب مدى واقرب للروح الانسانية – ذلك ان لم يكن مقتضى الظروف المتغيرة ان ينتكس الناس الى عصبية اضيق .

ومن انماط العصبية القائمة على حكم الواقع الطبيعي تلك التي تنشأ عن وحدة العرق والخصائص الموروثة – حيث يتمايز الناس نظراً الى لون البشرة او اعتباراً بالنسب الوثيق . وما تزال عصبية اللون والعنصر فاشية في العـالم يقوم عليها نظام للتفرقة والظلم يرعاه المجتمع في معاملة ذوي اللون المستهجن او تؤسسه الدولة بالقانون والسلطان فيؤدي الى كثير من الشرور في علاقات بني الانسان . وقد يكفكف من غلوها ان اسباب الاختلاط والتعامل تيسرت وتكثفت في العصر الحاضر كما فشا فيه الوعي العلمي والميل للتسامح والمساواة . أما القبلية فما تزال ايضاً تسود بعض المجتمعات تمزق وحدتها بالقطيعة وتبدد





طاقتها بالشقاق . وحيث تتسع القبلية تصبح شعوبية تجمع الى وحدة الأصل المزعوم ثقافة مشتركة . وقد تقـوم العصبية على اتحاد الاقليم او الموطن اذ يعجب كل اقليمي ببلده وينحاز الى اهـله ويلفق لهم الفضائل المختلقة . وما يزال العالم مصطرعا لشتيت من العصبيات القبلية واللونية والشعوبية واللغوية والاقليمية . ولعـل أشهر نمط من النعرات العصبية في عالم اليوم هو الدولة القومية التي تتضافر عناصر شتى في بنائها – منها الاصل الواحد – زعماً او حقيقة ، والانحياز الاقليمي ، والثقافة الواحدة لغة أو ديناً او تراثاً حضارياً ، والتاريخ المشترك – لاسيما معارك الدفاع عن الوجود القومي ومآثر السلف وعظيم فعالهم ، والولاية السياسية الموحدة . وربما لا يتوافر الا جزء من هذه العوامل او لا يتأكد الا بعضها في تقدير القوم ، ولكن ما تنشأ بينهم روح القومية حتى يتجهوا لاستكمال مقوماتها . ولعل للتأثير الأوربي نصيبا كبيرا في انتشار فكرة القومية وانتشار نظام الدولة المؤسسة عليها في أرجاء العالم . فقد توافقت ظروف فكرية وعمليـــة هيأت للدول القومية ان ترث الارض الاوربية بعد ان دالت الامبراطورية وضعف السلطان العالمي للنظام المسيحي . وذهبت تجربة اوربا شاهداً على فعل العصبية في حشد طاقات الأمة لتضطلع بأعباء النهضة وفي إغراء الحروب وتمكين القطيعة بين الأمم . وضربت أوربا كذلك أبشع الامثال لفعل العصبية في تجاربها النازية والفاشية . بيد ان أوربا اليوم تكاد تتخطى مرحلة الدولة القوميـة بأثر ظروف جديدة تقتضي صيغة انسانية ارحب في معالجة الحياة .

ثم من العصبية مـا هو مستمد من الواقع الاجتماعي – حيث يتمايز النـاس بأوضاعهم في المجتمع وبالاعمال التي يمتهنونها فتشكل منهم طبقـات متفاضلة حسب موازين للتقدير سائدة في المجتمع . وقد تجمد تلك الاوضاع الطبقية وتتقوى بحجة دينية موضوعة – كما هو الحال في الهندوكية . ولكن عصبية الطبقات عرضة للانحلال السريع متى انهـار ت قاعدة العـلاقات الاقتصادية الموروثة . واغلب ما يعهد في هذه العصبية ان يغلو بها الاغنياء لأنهم اصحاب

الامتياز والكلمة ، ولكن الفقراء في نزعتهم لبلوغ العدالة الاجتماعية كثيراً ما يجنحون الى التعصب ضد الظالمين . وفي عصرنا الراهن تجددت هـذه الظاهرة القديمة في صيغة جديدة هي عصبية العمال التي اتخذتها الفكرة الماركسية صيحة عالمية وخطة لصياغة نظام الحياة كلها ، واتسع خطابها من بعد ليشمل قطاعاً آخر من الفقراء هم الفلاحون . ولكنها لم تفلح الا حيث تفلح كل عصبية ، فقد استثارت في المهضومين حمية العداء فانقضوا على أوضاع الظلم حتى قوضوها في بعض البلاد . اما بعد فإنها أخفقت كما ينبغي لكل عصبية ، فلم تصلح اساساً لوحدة عالمية طوعية ولا خطة شاملة لتوجيه الحيـاة ، وان كان الذين تغلبوا على المجتمعات باسمها ما نشبوا يرفعون عقيرتهم بدعوتها ويلوحون برايتها ليجوّزوا على الناس سياسات واجتهادات ليست منها في شيء .

• • •

اما الدين فإن له شأناً آخر . فبما حبـا الله الإنسان من فضل على الطبيعة بروح نفخها فيه وعلم أودعه إياه جعل ارادته فوق الاوضاع الطبيعية والاجتماعية لا ينصاع لها كما تنصاع الاشياء او يأتلف كالحيوان وفقاً للأجنـاس والفصائل وحدها ، وانما يعول في الدين على اتجاه الإرادة الإنسانية الحرة . فالإيمان اختيار يتخذه الإنسان تعريفاً لذاته وتوجيهاً لحياته ، وبه يتم انتماؤه الى زمرة المؤمنين مهما كان مولده أو موطنه ، وليس للمؤمن بعد فضل على إخوانه الا باستزادته من الايمان . وبذلك يكون القـدر للإنسان من حيث هو كذلك ، وتسقط في جنبـه الألوان والأوطـان والانساب والاحساب ، ويكون له ما يختار وعليه ما يكتسب — فإذا هاجر الى المؤمنين سمي مهـاجراً ، وإذا نصرهم كان أنصارياً ، وإذا انتم قبلتهم اصبح في عداد الامة ، وإن أبى فـله ذلك لا يكره ولا يضام . والدعوة للإيمان من أجل ذلك دعوة عالمية أزليـة تخاطب الانسان حيثما كان وتنظم حياته بما يفتح الآفاق ويصل الأسباب بين البشر . وليس الايمان عاطفة جوفاء تذهب بأصحابها كل مذهب ، وإنما هو





منظومة كاملة من التعاليم والأحكام إذا ارتضاها المرء اصبحت ضابطاً دقيقاً لسلوكه ودستوراً محكماً لنظـام حياته فهو في كل حال على وعي من أمره وبينـة .

ولذلك يضيق أصحاب العصبية ذرعاً بالدين إذ ينكرون فيه خطـابه الشامل للعالمين ويستنكفون عما يدعوهم إليه من أخوة يستوي فيها الشريف والوضيع والأحمر والأسود والمواطن والغريب . ويشتد الكبراء في حملتهم على الدين باسم العصبيـة لانهم يلفون في جمودها حجـة لاستبقـاء امتيازاتهم وفي ظلامها واستبهامها مايمكنهم من استخفاف سواد الشعب وسوقه كيفما تقضي أهواؤهم : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم كافرون . » ( سبأ ٣٤ ) ، « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجـدنا آباءنا على أمـة وإنا على آثارهم مقتـدون . » ( الزخرف ٢٣ ) .

وبطآن ما تتلاشى العصبيات المتمكنة — فيما يعهد الناس ، ولكن الإيمان يقفز بالإنسان لفوره من أسر الواقع الطبيعي الاجتماعي الى باحة الإنسانية ، لأنه يستثير فيه إرادة نزاعة الى التحـرر ثم يرسي بعد ذلك قواعـد نظـام الحياة بما يوائم هذه الوجهة ويصفي كدورات العصبية الراسبـة . واذا محض المرء الإيمان وأخلص العبادة لربه كان أمر الله عنده هو الحق الفصل واستقامت سائر موازينه وفقاً لذلك قائماً في شأنه كله بالقسط لله ولو على نفسه . فهو يتطهر من أهواء الواقع الاجتماعي وتعلقاته فلا يكون ولاؤه إلا لله وللمؤمنين ، ويطرح العصبية للموروث لأن المبدأ الوراثي ليس أصلاً للحـق والباطل ، كما يتجرد من محاباة ذويه في القرابة والمواطنة وأصحـاب جنبه في الحياة ومن التحامل على الأباعد والأجانب : « يا أيها الذين آمنو كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والأقربين إن يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وإن تلووا او تعرضـوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . » ( النساء ١٣٥ ) . ولا يقتضي الإيمـان ألا يبر المرء الذين

يلونه ، فكل علاقة ناشئة عن أوضاع الحياة تستتبع في الدين تكاليف خاصة جديرة بالتوقير والرعاية ، فحب الأهل والوطن عاطفة كريمة تدعو الموالاة والتعاون على الخير ، ولكن الحق يظل في تقدير المؤمن هو القيمة السامية تعلو فوق كل اعتبار وتقاس إليه أقدار علاقات الحياة – أيها أولى – ويضبط به مداها – أيّ حق أو واجب تقتضي . فلا تجنح بالمؤمن أهواء العصبية حتى تطغيه أو تعميه ، إذ الحق عنده أولى وأحق ان يتبع .

وحين يصاب أصحاب الدين بعلة في اعتقادهم او عملهم يكونون عرضة لأن تعتريهم من جديد نوازع العصبية وتنعكس في واقع حياتهم فيتفرق أمرهم ويصبحون شيعاً بعد ان كانوا أمة واحدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون . » ( المؤمنون ٥٢ – ٥٣ ) . وذلك عين الذي جرى للمسلمين ، فقد قسموا أمرهم عدة أوطان وشعوب وطوائف دينية وطرق صوفية ومذاهب فقهية واحزاب وطبقات وعصبيات أخرى . وشأن المسلمين في ذلك شأن الملل الدينية الأخرى . سوى ان لهم في كتاب الله المحفوظ منابا ، وأول طريق الانابة – ان ارادوا – ان يعود الدين اختياراً واعياً وبيعة صادقة يعقدها الفرد مع ربه مدركا شروطها مدّكراً لمسئوليته عنها لا تراثاً منقولاً او اسماً مبهماً يتعصب له أهله كما يتعصب سائر الناس لموروثاتهم ولا يمنون منه بأكثر من ذلك .

**وفاق الاهواء :** قد تنشأ الجامعة بين الناس لما يرون فيها من صلاح مشترك لحياتهم الدنيا – اعتباراً بما تعلمهم التجارب من إدراك المصالح بالوحدة وفواتها بالفرقة ، أو إيماناً بمنهج دنيوي يتواضعون عليه فيوفق تقديراتهم لوجوه المصلحة ويوحد سعيهم في اجتلابها . وتقوم بنفوس الافراد من ذلك عاطفة تزكى فيها السماحة والإيثار ، فيحتوي بعضهم بعضاً في وجود وولاء موحد ، ويتخذون من مصلحتهم المشتركة هدفاً للحياة وميزاناً للعلاقات





وضابطاً للسلوك بينهم ، ويدعوهم ذلك كله الى الاختصاص بشأنهم المشترك والانحياز عن سائر الناس .

ولا تنعقد على أساس المصلحة الدنيوية جامعة متينة . ذلك ان ابتغاء المصلحة العاجلة واتخاذها هدفاً للحياة وقاعدة للاجتماع انما هو انفعال بمقتضى الهوى البشري . والهوى يحتوي في ثناياه كثيراً من دواعي الفرقة بين الناس . فهو اولاً تعلق بمتاع الدنيا المحدود الذي لا يتسع لمطامع الناس جميعاً ولا يؤدي تطلبه بحرص الا الى تربية دواعي الاثرة والاحتكار وإغراء الناس بالغل والحسد وجرهم الى الشقاق والنزاع ولا يتيح لهم خطة سواء يرضون بها أساساً جامعاً بل يقطعهم أفذاذاً أو طبقات وطوائف منكفئة على نفسها بالشح والأنانية . ولكن رحاب الايمان تسع الناس جميعاً لانه يرتفع بهممهم فوق عرض الدنيا ويعلق مقاصدهم بالآخرة فيتسمون بالسماحة والايثار ويرون الملك حقاً لله لا يحوزه الانسان الا استخلافاً يستوي في حق التمتع به عباد الله جميعاً : « وألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم . » ( الانفال ٦٣ ) .

ثم ان رأي البشر في اختلاف شديد – لا يتهيأ لهم ان يطبقوا على تقدير واحد للمصلحة ، وما من سبيل للفصل بينهم بوجه يورث الطمأنينة الى ان ذلك هو الحق الحاسم . وقد يُدّعى لرأي مّا أنه يمثل المصلحة العامة كما تراها الامة . ولكن الغالب في ذلك ان يكون الرأي لفئة او كثرة متغلبة وألا تكون المصلحة المزعومة الا مصلحتهم هم . لا سيما ان تقدير المصلحة العامة وتدبير الوسائل الكفيلة بتحقيقها وتفصيل النظم والاجراءات التي يقتضيها ذلك في كل شأن من شئون الحياة هي أمور معقدة لا يتيسر الاتفاق على كثير منها .

أما في الدين فإن الشريعة هي النهج الذي تجمع عليه الأمة وترد إليه اختلافها فيقوم حكماً بينهم يهديهم في كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتهم .

وما انزل الله الشريعة الا ليحسم الخلاف الذي يلازم البشر بطبعهم وتستشري بينهم آثاره كلما افتقدوا هـدى الله : « كان النـاس أمة واحـدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين النـاس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .» ( البقرة ٢١٣ ) ، « وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهـدى ورحمة لقوم يؤمنون » . ( النحل ٦٤ ) .
وانما يسلم الناس لحـكم الله بلا ريبة ولا حرج إيماناً بأن الله يعلم مالا يعلمون وأنه يرعاهم جميعاً بعدل لا ظلم فيه ولا محاباة . وليس لبشر بالغاً ما بلغ ان يتنزه عن الخطـأ ويتجرد عن الهوى فيكون حكماً مرضياً لا يرد حكمه احد أو يظن به الظنون – ذلك ان الخطأ والميل خلق بشري يستوي في اصله الناس جميعاً : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيـل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . » ( الأنعام ١١٥ – ١١٦ ) .

وشريعة الله بيان شامل مفصل اذا اعتصم به الناس اكسبهم وحدة حصينة يتواثقون فيها بكل معنى من معاني الحيـاة فلا يختلفون على امر الا ألفوا انفسهم متفقين في سائر الأمور . ولكن مذاهب البشر مهما اتسعت جزئية المحتوى بحكم نشأتها عما تبدي غيرَ الظروف من حاجات الحياة ، وما ينتقض الوفاق الذي كان معقوداً بمذهب بشري الا لتنفضّ الجماعة التي أسست عليه .
ولعل اوضح مثال لذلك في الروابط التي تنشأ حذراً من عدو مشترك يتهدد طوائف من الناس فتدعوهم حاجة الدفاع الى توحيد صفهم لرد غائلة العدوان، إذ ما يزول العدو الذي كان قائماً الا ينقشع الخوف وتتلاشى من بعده دواعي الوحدة وتتداعى اركانها .

• • •





ولا يرجى لرابطة تقوم على توافق المصالح ان تثبت وتتصل على مر الزمان . وذلك انها مؤسسة على هوى البشر – وهو حسهم بالحاجات المباشرة ورأيهم في قيمتها ووجوه طلبها . والحس إنما يتجه بأصحابه الى الحاجات التي تلوح في ظروف معينة فتأخـذهم نحوها نوازع الشهوة البشرية حتى تحتكر همهم فينشغلون بابتغائها عن كل شيء سواها ، فإذا تبدلت الظروف وبدت حاجة اخرى انصرفوا اليها كذلك . والرأي انما ينبني على علم البشر ، وهو قاصر لا يحيط بأبعاد الواقع كله ولا يطلع على غيب المستقبل بل تحـده المشاهدات والتجارب المباشرة ، فإذا تغيرت الاوضاع والاحوال اتسع العلم وتبدل الرأي الناتج عنه . فالهوى او المصلحة اعتبار لا تنبني عليه رابطة الا كانت عرضة لصروف الزمان . وقد يكون ذو الهوى الساذج هدفاً للتقلب والذبذبة بأكثر من صاحب التدبير والرأي الذي يهديه عقله الى مذهب أوسع مدى تنتظم فيه الحاجات في وجهة مستقرة وتدرج وجوه السعي نحوها في خطة ثابتة ثم تراض الشهوات الملحة رجاء للعواقب الآجلة الفضلى . ولكن التبدل هو شأن الهوى كله وان كان بعضه أبعد ضلالاً وأسرع اضمحلالاً .

واذا كانت الروابط المصلحية رهينة بالظروف المحدودة التي تقيد انتشارها في المكان والزمان فإن رابطة الايمان مؤسسة على الإرادة التي يختار صاحبها الايمان فيقدّر مصلحته في ذات الوجهة التي يتوخاها سائر المؤمنين ويقدر السبيل لإدراكها في موالاتهم والتعاون معهم في أمة واحدة . وهذه الإرادة قرار متمكن غير مرتهن بالظروف التي ما توفق بين المصالح العاجـلة الا لتخالف بينها من بعد – ذلك ان المؤمنين يتوجهون الى مصلحة كلية تنتظم امر دنياهم وآخرتهم يتوخونها في الايمان وفي اتباع الشريعة فلا يقيسونها بالهوى والشهوة البشرية . واذا ضعف فيهم ذلك التصور الواسع بذبول الايمان وضعفت بضعفه رابطتهم الازلية فإن ذات بينهم ما تلبث ان تعمر متى ما تجددت في نفوسهم معاني الدين . ولعل التـاريخ البشري خير شاهد على

دوام الروابط الدينية ، فما هي تصاحب الانسان منـذ آلاف السنين ، بينما تعاقب عليه اثناء ذلك شتى الروابط وذهبت ادراج الرياح .

• • •

والجماعة المبنية على اشتراك المنافع واتحاد منهج الحياة الدنيا تبدو أرحب بكثير من تلك التي لا توحدها الا النعرة العصبية ذات المجـال المحدود بحكم الطبيعة ، بيد أنها لا تبلغ ان تكون عالميـة الاتجاه على نحو رابطة الدين ، وذلك ان تقدير الانسان لمصالح الحياة تقدير ظرفي قاصر كما قدمنا فانتشاره عبر الأمكنة والاقطار جد محدود . ولا يتسع الإنسان بعاطفته الاجتماعيـة لمدى كبير اذا كان لا يراعي الا اتحاد المصالح في الحيـاة الدنيا ، فلا تكون الجماعة التي يمكن ان يتحد معها بشعوره ويتربى على توقير شأنها الا ضيقـة الابعاد ، لا سيما ان توخي المصلحة لا يكون كما قدمنا الا تنافسا مع جماعة اخرى نظراً لأن طيبات الدنيا تبدو محدودة لا تسع الناس جميعاً حينما يتجهون اليها بروح الحيازة والاحتكار . فإذا انبنت علاقات البشر على ما تهـدي اليه التقديرات المتباينة للمصالح وما توحي به روح الشح الجماعي تفرق امرهم الى عصبيات وشيع متخاصمة يُلقي بينها الشر والعدوان .

اما دواعي الموالاة في الدين فإنها تخاطب الناس جميعاً ، فما هي بفروع عن توافق المصالح العاجلة وحدها ، وإنما اولياء المؤمن كل من جمعتهم به وحدة الإرادة التي اختارت الايمان وتماثل العبودية لله الواحد الصمد وشعور الرفقـة في مراحل الحياة منذ بدء الخلق الى ان ينتهي المسار عند الله . ويتقوى ولاء المؤمنين بالتراضي على شريعة علية تحكم في المصالح الدنيوية فتوفق بينها بميزان عدل توفيقاً يسع البشرية قاطبة .

• • •

ولعل اكبر ما تبرزه المناظرة بين جامعة الايمان وجامعة الأهواء الدنيوية ان الفرد في إطار الجماعة المؤمنة يشترك اشتراكا مباشراً في الغرض العام الذي





تتجه اليه حياة الجماعة ــ ألا وهو عبادة الله . فالفرد يلقي اسباب المعاملة ــ والحب والولاء لجماعته في سياق عبـادة الله ، والجماعة لا تقوم الا لتمكين الافراد من مضاعفة العبادة تكثيراً وإحساناً . وتتناصر دواعي العبادة كلها ــ حب الله وشكره ورجاؤه وخشيته ــ لتوثق صلة الفرد بإخوانه ولتدفعه للتجاوب الصادق في تحقيق المقاصد العامة لحياة الجماعة . اما في الجماعات الدنيوية فإن الذي يصل الفرد بجماعته هو تقدير الصالح المشترك في اتحاد الجماعة وتعاونها على نهج الحياة ، وقد لا يبدو للفرد مرجوع الفائدة التي تخصه في سعي الجماعة المشترك أو لا يدرك ما يتعين عليه من تكاليف بوجه مباشر . وليس في مظنة المصلحة المشتركة وحدها ما يضبط هوى الفرد الذي يجنح به دائماً الى ابتغاء المنفعة المباشرة والملذة الشخصية ، ولا في اتفاق الرأي البشري وحده ما يحكم ارادة الانسان ، وأنـّى يقاس ذلك الى انضباط الانسان اذا اجتمع عليه ــ بعد رجاء المشاركة في المصلحة العاجلة ــ تقديره لمصلحة أخروية وتوقيره لأمر الله ! . ومن ثم لا تتاح الحرية في جماعة غير دينية الا ظهرت فيها بوادر التفلت من مقتضيات الأمر العام نحو الاهواء الشخصية ، ولا تتمكن فيها الروح المادية التي تحرص على متاع الدنيا الا سادتها ظواهر ذلك التفلت . وما ينفذ الى ضمير الفرد في المجتمع الوضعي الا تقدير بعيد لما قد يؤول اليه من المصلحة العامة او عاطفة ضئيلة نحو جماعته ، ولا يستشعر من معنى وجوده الاجتماعي تكليفاً عينياً يعبر به عن التزامه بالشأن العام ولا مسئولية مباشرة يرعاها الا ما يوضع عليه وضعاً . ولذلك تستصحب الحياة في مجتمع الاهواء كثيراً من النفـاق والمظاهرة ــ يتواصى فيها الناس بما لا يأتون ويتظاهرون بما لا يضمرون ــ مما يضعف اثر مذهبهم في الحيـاة ويباعد بين هيئته المبغية وحقيقته الواقعة .

واذا فقدت الجماعة معنى العبـادة لله هدفاً أعلى للحياة تقوّم بمقتضاه أوضاعها وعلاقاتها وحكم الشريعة التي تضع العدل في حيثها ــ اذا افتقدت ذلك كله اختلـّت موازينها ولم تسلم من ان يطغى فيها هوى الفرد او قوة

الجماعة . فقد يجعل شأن الجماعة هو الاعلى وحقها هو الاولى تقاس اليه حقوق الفرد ، فيكون لزاماً عليه ان يعدّل مواقفه ليوافق الجماعة ويؤخر رغائبه ليقدم مصلحتها ويفديها بنفسه ولو أزهقها في سبيل ذلك . ولكن المصلحة العامة امر تقديري رهين بتوازي القوى السياسية في المجتمع فربما تكون المصلحة المزعومة ليست إلا مصلحة لفئة او طائفة تفتئت على حقوق الجمهور ، ولربما تُتوهم المصلحة في نهج عقيم او في غاية لا تهم الفرد ولا تعود عليه بخير . وكثيراً ما يفرط اصحاب السلطان على الناس بحجة المصلحة العامة فينتهكون حريات الافراد ويسلبونهم ألزم المقومات لتمام وجود الإنسان اويسخرونهم في خطط عقيمة بائرة . وكثيراً كذلك ما يفرّط الفرد في حق نفسه — إذ يرتمي في مضطرب الحياة الاجتماعية إمّعة لا يبالي كيف يجرفه تيارها ولا يقدر انه محتمل امانة الحرية وعهد التكليف وتبعة السؤال من حيث هو انسان . واذا طغت الجماعة — او طغى باسمها مستبد — ألقت على سائر البشر غوائل ظلمها وعدوانها — إذ تكون الدعوة فيها للوحدة والعزة دعوة الى محور ولاء مقفل وتحريضاً على عصبية لا تنبذ الى الاجانب الا العداء وتتوخى المصلحة في الإفساد في الأرض والبطش والجبروت . فالحياة لا تستقيم الا بغاية سامية وشريعة حاكمة تضبط تعريف المصلحة العامة وتفصل مقتضياتها العملية وتطوع الهوى الفردي وتصوغهما في نسق واحد لئلا يشذ الفرد بهواه إذا واتته الحرية فيطلب رغائبه في الإضرار بالآخرين او تطغى الجماعة فتطمس كيان الإنسان او يضل بها ضال أو يظلم فيها ظالم .

**تباعة الأشخاص :** الدين علاقة مخصوصة يعقدها العبد نفسه مع الله الواحد. فهي تقتضي في جنب الله توحيداً خالصاً — ان يقيم العبد وجهه لربه عامداً إليه بالعبادة لا يتخذ من دونه ولياً . وهي في جانب العبد تستتبع تكليفاً عينياً من ورائه حساب يَمثل له كلٌ بين يدي ربه فرداً . وكثيراً ما يشرك الإنسان في هذه العلاقة او تتقاصر همته عن الترقي الى الله فيركن الى ما دونه من مخلوقات . فربما يظن اللهَ بعيداً في عليائه لأنه يتجرد عن أعراض الوجود



المحسوس قائماً في الغيب لا تدركه الأبصار ، فلا يرى سبيلاً للتوجه إليه مباشرة الا ان يتخذ من يقربه اليه زلفى . ومن ثم يتعلق بالأنبياء والصالحين من اهل الدين اذ يراهم شاخصين في عالم الشهادة يتجسد فيهم قبس من القداسة بما لهم من وثيق الصلة بالله . وما يلبث ان يكتفي بهؤلاء البشر ويتخذ ربه مهجوراً . وقد يوافق ذلك الشرك هوى لدى الإنسان يحبب إليه الخنوس عن موقف المسئولية الشخصية واللوذ بمن يراه اعظم قدراً واجدر باحتمال أوزار التكليف .

ويقوم كثير من الجماعات والطوائف على التباعة لزعيم مقدس يتخذه الناس محور توجه وولاء موحد . وقد شهدت البشرية من ذلك ما ينتسب الى الدين ، إذ يلتف الناس حول آلهة من البشر او ينتصب لهم رجال يدّعون انهم خزان الاسرار الإلهية وحجاب باب الله — يروجون اقدارهم باسم الدين ليستغلوا عباد الله ويختصموا من حقهم في الحياة . وقد نلحظ صوراً لذلك في تاريخ المسلمين تظهر كلما حجبهم الجهل عن اصول التوحيد في عقيدتهم . ولكن الظاهرة شائعة في الأديان الاخرى لأن الوضع البشري هو الغالب في تعاليمها ، والوضع هو عين الشرك لانه شرع يصدر عن بعض البشر لم يأذن به الله فأثره الأول ان يسند سلطاناً غير مشروع الى رجال الدين من قسيسين ورهبان يستكبرون به على تابعيهم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الله إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . » ( التوبة ٣١ ) ، « يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . » (التوبة ٣٤ ) . وحق القداسة حجة كثيراً ما يرتفق بها الملوك لتأييد وطأتهم على رقاب الرعية : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري... » ( القصص ٣٨ ) .

ولا يكون تأليه الاشخاص في كل احواله عرضا لمرض ديني ، بل هو آفة

اجتماعية يتعرض لها كل مجتمع لا تسوده عقيدة التوحيد لا سيا إذا فسدت علاقاته السياسية وهان شأن الفرد في حياته العامة . فقد تهول الناس قوة الزعيم في سلطانه او تتعاظمهم مآثره الجليلة او تبهرهم عظمة اسلافه او يروعهم ما تنسجه حوله الدعاية من هالات الجلال ، قد يستخفهم ذلك فينسبون الى زعيمهم القدرة الخارقة ويوقرونه ويتعبدون له مخلصين لا يرون من دونه ملتحداً ويجتمعون عليه مفوضين اليه امرهم كله واكلين اليه حقوقهم خاضعين لأمره سجداً : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً وان الله شديد العذاب . » ( البقرة ١٦٥ ) .

وهذا الشرك مذهب فاسد لا يليق بالبشر لأنهم أنداد يستوون في أصل الخلق ، ولئن تفاوتوا في سعة العلم والرأي او المال والجاه فإنما ذلك تأكيد لذاتية كل فرد حيث تتعين عليه التكاليف بما يسع فتكون حظه المخصوص من الابتلاء ويدور عليها حسابه وسؤاله . فحقيق على الناس ان يتعاونوا إخواناً سواسية على صعيد الجماعة ثم يتنافسوا كل بقدر ما يليه من الابتلاء ، وليس لبعضهم ان يلغي وجوده ليفنى في الآخرين ممن هم بشر امثاله . ولا تختل هذه المساواة الأساسية إلا انفتح باب واسع للظلم والاستغلال . ويهون للقائد اذا استظهر بهيبة التقديس وأسلم له الرعية ان يذل اعناقهم ويستولي على حقوقهم ويسخر طاقاتهم ـ اذ ليس بينه وبينهم الا ان يأمرهم فيطيعوا . وإن واقع البشرية ليزدحم بالجبابرة الذين يفسدون في الارض ويطغون على أمتهم بالباطل ويبتغون الشرف في إذلال السواد الأعظم من الناس .

ويفوت على الأمة خير كثير إذا فني جمهورها في زعيم ولم يشاركوا بأنصباء حرة في الشئون العامة . وذلك ان الرأي الذي تتناصر فيه اجتهادات الكثرة أهدى من رأي الفرد ، وان الناس حين يصدرون في الحياة عن بصيرة ومبادرة ذاتية اصدق جهداً منهم لو كانوا تابعين مقلدين ، وان إطباقهم




كافة على سياسة عامة اضبط للوجهة القوية من ان يتركوا القيادة لزعيم مطلق لا يؤمن انحرافه وضلاله ـ فما من بشر معصوم من الخطأ او منزه عن الهوى لا تطغيه القوة المواتية ولا تسكره الطاعة العمياء . ومهما يكن فإن البشر عرضة للموت ، فإذا جعلت الأمة امرها كله في شخص واحد ـ منه تستلهم الحكمة كلها ومن اجله تبذل الجهود وإليه تسلم الطاعة وفيه تتمثل وحدة الجماعة ـ فإنها تتعرض بموته لخطر الانهيار او الارتكاس العظيم . وقد ينتصب لأمة من الناس اكثر من زعيم فينحاز كل قطيع منهم الى إمامه ، ثم يغدو عسيراً بعدها ان تتحد الامة اذ يستبد كل كبير بحزبه وينفخ فيه الشيطان بالغرور والمطامع ويزين له ان يكون هو الأعلى ، فمهما اتفقت مصالح العامة فرقتهم اهواء زعاماتهم المتشاكسة .

• • •

والعقيدة الصحيحة هي العاصم للانسان من ان يتعبده اخوه من البشر ، بما تستوجب في حق الله من توحيد خالص وبما تقرر في شأن الفرد من خصوص التكليف والسؤال ـ سؤالا لا يجدي فيه اعتذار بتباعة الزعيم والكبير : « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً . » ( الاحزاب ٦٦ ـ ٦٨ ) ، « ... ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . » ( سبأ ٣١ ـ ٣٣ ) . وتذكّر العقيدة أهلها باستوائهم عند الله عباداً لا يملك بعضهم لبعض ضراً ولا رشداً الا بإذن الله ، فلا وجه لان يسجد العبد للعبد وإنما

التوجه كله لله ، ولا نصيب لنبي ولا صالح من قدسية الله ولا قدرته ولا حق لهم في الوساطة من دونه وإنما يطاع النبي بإذن الله لأنه مبلّغ عنه . وحق المؤمن أن يكون حر الوجدان لا يذل لغير ربه ولا يسلم نفسه لزعيم أو كبير. ولا تنافي عقيدة التوحيد أن يكون المؤمنون صفاً ذا نظام وإمام ، ولكن الذي يلي أمر المؤمنين انما يطاع تبعاً لالتزامه بالحق المعروف : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ... » ( الأنعام ٩٠ ) ، « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » . ( السجدة ٢٤ ) . فإذا حاد إمام عن الشريعة نقض بيعته مع المؤمنين وفقد شرعية السلطان . واذا مات الامام لم تقعد بالمؤمنين الفجيعة ولم ينقلبوا عن مسارهم لأنهم ما كانوا يتبعونه إلا من أجل الحق الباقي ولم يكن إلا مقدّمهم على الصراط المستقيم : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افئن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقيبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » . ( آل عمران ١٤٤ ) ، والحق عند المؤمنين اولى بالاتباع فهو الميزان بينهم إليه يردون ما اختلفوا فيه من شيء ، فحيثما ظهر انحازوا إليه وهجروا كل داعية لسواه .

وما تعتل عقيدة التوحيد لدى المؤمنين إلا ظهر فيهم وبقدر العلة تقديس البشر من رجال الدين والتفرق عليهم طوائف وجماعات . وذلك هو الأصل في تأليه المسيح الذي ضلّ به النصارى حتى زعموا الله في اعتقادهم ثالث ثلاثة جعلوا عيسى أشهرهم وأولاهم بالذكر والعبادة ثم اتخذوا من دونه أولياء قديسين وأئمة تفرقوا عليهم طوائف وكنائس شتى . ولئن كان للمسلمين كتاب يحفظهم من الإلحاد الفاحش في وحدانية الله فكثيراً ما تحجبهم غشاوة الجهل عن عقيدة التوحيد الخالصة . فقد حمل بعضهم فرط التوقير للرسول ﷺ أن يضفوا عليه طبيعة نورانية ليست من معتاد طبع البشر وأن يخصوه بالابتهال والدعاء بحجة التوسل به الى الله ، ثم نسبوا لبعض الصالحين وغيرهم قبساً من نور الرسول فتعلقوا بهم وعظموا أقدارهم وعكفوا عليهم ببعض وجوه العبادة التي لا تنبغي الا لله . ومن ثم تصدعت جماعة المسلمين وعادت أمتهم الواحدة



طرائق قدداً يلهيهم العكوف على أشياخهم والتشيع لهم عن التوجه المباشر الى الله واكتشاف وحدتهم في سبيله ، وتلك هي ظاهرة الطرائق الصوفية التي انتظمت العالم الإسلامي حتى ضاهى بها اختلاف الكنائس في العالم المسيحي. وقد كان القصد الأول في بعض تلك الطرائق ان تُحيي معاني التدين في نفوس المؤمنين وتجمع شملهم بعد أن فرقتهم اهواء العصبية الشعوبية الإقليمية ومطامع الولاة . وكانت الدعوة بادىء ذي بدء مفتوحة الخطاب تسع المؤمنين جميعاً ثم ما لبث الأمر بعد الرواد الاوائل ان اصبح تقليداً موروثاً وطائفية جاهلة تحجب الناس عن اصول دينهم الواحدة وتجمدهم في أطر مغلقة وتطبع نفوسهم بالتعصب الاعمى . وذلك حتى تردهم الى الحق دعوة إصلاح أو يقظة علمية .

**القهر المادي والأدبي :** قد ينحشد الناس في جماعة واحدة بحكم القهر الذي يوضع عليهم ، فلا يجدون من تلقاء أنفسهم داعية الى الائتلاف الا الخوف يسلطه عليهم جبار أو فئة متغلبة . ولربما تقوم القوة وحدها وصلا بين الناس كما هو شأن الامبراطوريات التي تتوسع بالمغازي والفتوح لتضم اليها طوائف من المستضعفين في جماعة مصطنعة . سوى ان القوة في المعتاد انما تنضاف الى عوامل الاجتماع الاخرى لتضفي على حياة المجتمع معنى الإكراه. وقد أصبح الاستيلاء على مقاليد المجتمع والقيام عليه بالقوة أمراً ميسوراً في العصر الحاضر حتى غدا ممكناً ان تتجاوز القوة العلاقات السياسية لتشمل سائر وجوه الحياة. وذلك ان الوسائل التي تتيحها العلوم والصنائع الحديثة تمكن أولياء السلطة من الإحاطة بالافراد برقابة وثيقة والتجسس على حياتهم وتوجيهها بدقة ، كما تمكنهم بالسلاح الفعال من إنفاذ امرهم على الرعية ولو كانت كارهة . وقد اصبحت مجتمعات القهر الشامل معهودة في حاضر العالم بفضل هذا التطور في وسائل الحياة .

وقد تستظهر القوة بمعنى آخر من معاني الاجتماع ، فتنعقد المصالح المشتركة بين الذين الفتهم القوة او تنشأ بينهم عصبية اجتماعية أو يتربون على التوقير

الطوعي للحاكم . ولكن القـــوة وحدها لا تؤسس جماعة ثابتة ولا يصلح بها كثير في حيـاة البشر الاجتماعية . فهي اذا تجردت لا تدعـــو الا الى تنمية نفسها وتسخير كل شيء في سبيل ذلك ، وليست في شيء بداعية للوحدة الحقة بين بني الانسان، بل تستفز المستضعفين الى مقاومتها بقوة مثلها طلباً للانفلات من قبضتها حتى اذا تسنى لهم ذلك انفرط عقد الجماعة ولم يبق لها أثر .

والفرد في مجتمع تحكمه القوة يعيش مهضوم الحق منقوص الكرامة لأن القوة المجردة طاغوت لا يخضع لضابط أو ميزان عـدل . فلا يكون في ظلها للفرد المستضعف ما يحميه من وقع القهر، ولا يكون له نصيب في الشأن العام الذي يسود مجتمع القهر الا استشعار الظلم والمجانبة ، فلا يكاد يتجاوب له الا خوفاً ومنافقة. وللقوة البشرية حدود تقصر دونها، فهي لا يمكن ان تحيط بالناس جميعاً او ان تضبط مدى صدقهم وولاءهم بل يستنفد الشطر الاكبر منها في حراسة قواعـــد القهر وتأمين أوضاعه فلا يكاد النظام العام يتجه الكثير من مصالح الحياة وراء ذلك .

• • •

وقد يسلط القهر على الناس من وجه أدبي بأن تشدد عليهم وطأة الدعاية والتضليل لحملهم حملاً على موافقة هوى المتسلطين . وقـــد يكون القصد من ذلك ان يزين لهم تقدير مصلحة عامـة مزعومة أو تقبُّل الحكام الراهنين او التجاوب مع العصبية السائدة . ولعل من أشهر وسائل التضليل في مجال الدعاية الحديثة استعمال الشعارات النظرية التي لا تهدي الى نهج عملي وإنمـا تتخذ اداة لاستثارة الناس وتعبئة شعورهم لخدمة غرض المضلين من وجـه غير مباشر . وكثيراً ما يكون ذلك في دعوات العصبية التي تستثير حمية عظيمة وتولد قوة هوجاء لا تتجه الى مسلك محدود الا ان يلويها ذو غرض الى غرضه ويستخف الناس بها . وقد يشتق الشعار من أصل فكري معـلوم ثم يفرغ من محتواه ، حتى لا يبقى الا اسماً يتخذ أحبـــولة لاجتذاب الناس ، فإذا هاجهم الحماس



انساقوا وراء كل صائح بالشعار أينما ضلّ بهم. وقد اصبح تضليل الناس بالشعارات الخلابة الكذابة امراً شائعاً مذ توافرت وسائل التبليغ والدعاية، ويسر لكل هرّاج ان يأخذ أنبل الاسماء معنى فيسلب مضمونها ثم يقرع بها الناس ويفتنهم حتى يطيعوه الى عكس ما تقتضي تلك المعاني . فكأيّن من شعب استضيم ولم يستضم الا باسم إرادة الشعـب والديمقراطية ، او يذلّ الا باسم الحرية ، او يظلم ويفقر الا باسم العدالة والاشتراكية .

ولعل في الاسم المبهم ما يناسب الضلال والاضـــلال . فإنه يجسد المرء محور التعلق الذي يتعصب له فيورثه تركيزاً وتشددا في ولائه ، لاسيما ان كان يشير الى معنى موقر في النفوس، لكنه يجرد المعنى المرموز اليه من حدوده ومعالمـه فيعفي المرء من التبصر والوعي ثم من الالتزام والانضباط ويتيح له بلا حرج أن يعـدل ويلوي كيفما ينزع به هواه وان يشتط في غيه حيثما طوحت به الحمية واستجره الشيطان . ولا غرو ان كانت الشعارات لا تروج الا في اجواء الهوشة والهرجة والاستجهال حين يذهب العقل ويُغمر العلم .

وقد يزين لبعض النـاس ان يتخذوا الدين ذاته شعاراً أجوف يَضلون به ويُضلون—يصوغون من معانيه كلمات حتى يردون بها موارد الباطل ويسوقون بها العوام . ولكنه باطل زاهق لا محالة لأن الدين متى أحيي في نفوس المؤمنين دعاهم الى البينة من امرهم وحضهم على الالتزام الدقيق بحدوده ونهاهم عن الخبط على غير هدى وعن الجنوح والمغالاة، كما يقتضي الإيمان أن يطابق القول العمل إذ من أشد المقت في الدين ان يكون المؤمن قوالاً غير فعال : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون». ( الصف ٢ — ٣ ) .

• • •

والإكراه بالقوة المادية مثل سوق النـاس بالقهر الأدبي امر لا يجيزه الدين ولا يؤسس عليه الجماعة المؤمنة . وانما تشرع القوة عنصراً من سلطان الجماعة

الذي يمارسه أولياء الأمور . وسلطان الجماعة إنما ينبني على اختيار المؤمنين ويستمد مما ينشأ في نفوسهم من عواطف الإخاء والموالاة وما يباشرون في سبيل عبادتهم من تعاون . فالولاية العامة هي المحـور الذي تنصب فيه تلك العواطف والأداة التي يتخذها المؤمنون ليتمكنوا من التعاون على عبادة الله . وإذا كانت سلطة الولاية العامة مؤسسة بعقد التوالي والتناصر على الإيمان فهي مقيدة بشروط تلك المبايعة ومجندة لخدمة مقاصد العبادة ، ولا تحمل على الفرد إلا لتقوم شذوذه عن مقتضى الإيمان وعبادة الله .

فلا محل في نظام الدين لقهر كلي يحدد الانتماء الاجتماعي للانسان او ينشر الإكراه في حياته . وذلك ان قدر الإنسان أن يكون مخيراً في توجيه حياته وتحـديد انتمائه ليكون مسئولاً عما يختـاره : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . » (يونس٩٩) ، « ... وما أنت عليهم بجبـار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد . ( ق ٤٥ ) . ولئن كان الإكراه على المرء عذراً مقبولاً لأول وهلة فإن الاقامة على حال تحيق فيها أسبابه بحياة الإنسان ووجوده أمر لايليق بالمؤمن ، بل ينبغي عليه ان يخرج منها مثلما ينبغي عليه أن يهاجر كل وضع يعتقله من دون الله ليسلم نفسه محرراً لربه : « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون. » ( العنكبوت ٥٦ ) . ولا عذر للانسان ـ ما وجد سبيلاً إلى ارتيـاد آفاق التحرر لله في أرضه الواسعه ـ أن يرهن حياته ويقيم على طاعة جبار مفرطاً في الأمانة التي خصه بها الله : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنـا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعـة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . « ( النساء ٩٧ ) .

### ٢ ـ تأمين النظام الاجتماعي :

لقد أوضحنا من قبـــل مفعول الدين في حفظ نظام المجتمع وعلاقاته من حيث تكثيف الضوابط الاجـتماعية وتأكيدها وضمـــان نفاذها في الواقع .





فالعقيدة الدينية توحي للمؤمن في شأن الحياة وأغراضها وعلاقاتها تصوراً يكفه عن الشر في مواقفه العملية ، وتورثه تعظيماً لربه وتقديراً لرقابته وجزائه يدعوانه لالتزام أمر الله فيما شرع من حدود . وترتاض من ذلك غرائز المؤمن فيتقي من تلقاء نفسه مواطن الظـلم والعدوان . ثم إن الدين يؤسس جماعة أمورة بالمعروف نهوة عن المنكر تحوط أعضاءها بشتى وسائل التربية والتأثير في سياق الحيـاة الاجتماعية وتقيم عليهم نظام ولاية عامـة يوكل إليها تنظيم الجزاءات لتأمين مراعاة الضوابط الاجتماعية .

وقد بينـا كيف تتوارد على الفرد شتى ضوابط السلوك مما تدعوه إليـه العقيدة والشريعة فضلاً عمـا تضعه عليه الأعراف والقوانين المستمدة من ذين الأصلين ، وكيف تتسق آثار تلك الضوابط ويتحد مفعولها ليناسب جملة نظم الحياة التي تقتضيها معـاني الدين . وأشرنا إلى ثبات نظام الحيـاة المؤمنة واستقراره ـ إذ يضع الدين معالمه الكبرى بأحكام قطعية لا ينسخها اضطراب الأهواء فيضمن بذلك اتصـال تاريخ المجتمع واضطراد بنـائه الحضاري ، ثم يهدي فيما وراء ذلك إلى قيم الحيـاة ومثل الأخلاق هدياً عاماً يتيح للمؤمنين أن يستنبطوا قواعد السلوك الفرعية التي تناسبهم في كل زمان ومكان . ثم إنا أسهبنا في بيان الطبيعة الشاملة لضوابط الحياة في الدين ـ أنها تنظم وجوه العمل كافة ـ أصوله النفسية وعناصره المـادية وأعراضه الظرفية ، وأنهـا تتعلق بالشئون جميعاً مـا كان منها خطيراً يناسبـه التكليف اللازم إيجاباً وتحريماً وما كان يسيراً لا تكليف فيـه إلا بالندب والكراهية ، وأنها ترعى حقوقاً للبشر تتمخض عنها العلاقات الاجتماعية وحدوداً لله يراقبها المرء حيثما كان ولو في خاصة أمره ، وأنها تنطبق على الناس شريفهم وضعيفهم وتسري في حق القريب والغريب إذ هي حق على مطلق يستوي بين يديهـا عباد الله جميعاً . ولقـد خلصنا في ذلك الحديث السالف إلى قوة الدواعي التي تتجه بالمؤمن إلى توقـير تلك الضوابط ـ فمنها حب الطـاعة الخالصة لله ومراعاة المسئولية بين يديـه ، ومنها استيقان الحكـمة والمصلحة المباشرة في استقامة

نظام السلوك ، ومنها توقير الجماعة وتقـــدير الضغوط الاجتماعية والجزاءات القانونية الداعية للالتزام .

● ● ●

ولننظر بعـد في نظام ضوابط السلوك الذي يسود في المجتمعات الوضعية لنقايس بين أثره وأثر الدين في تقويم السلوك .

تتبـاين المجتمعات الوضعية أنواعاً وأطواراً في نظام الضوابط الاجتماعية الذي تتخذه . فقد يبـــدأ المجتمع بسيطاً يخيم عليه نسج أخلاقي متين يفي بحاجته ولا يستدعي من بعده إلا نذراً من الأحكام المدعومة بساطان القانون. ولكن ما إن تتطور الحياة حتى تهي أصول الالتزام الخلقي ويتجاوز التحول الاجتماعي أعراف السلوك وتقـــاليده المعهودة ويتضاءل الانضباط إذ تفقد الاخلاق قيمتها وفاعليتها. عندئذ تدعو الحاجة إلى اقامة نظام قانوني كثيف. أما في الظروف المعتدلة فإن القانون مهما اتسع مجاله يخلي بين الناس وجانب كبير في حياتهم لا تقيدهم فيـه إلا ضوابط الأخلاق . فإذا كان تقدير الحاجة للضوابط والتوجيهات الاجتماعيةعظيماً نظراً لجلال الغايات المنشودة وضخامة التكاليف المترتبة عليها أو لضعف الثقة في استقامة الأفراد أو لزهادة شأن الحرية الفردية ــ متى كان ذلك كذلك فإن السلطة الحـاكمة تنهال على الرعية قهراً بالقـــانون فتتضاعف عليهم أحكامه وتكاليفه وتشتد وطأة إجراءاته وجزاءاته .

وإنما تستمد القواعد الأخلاقية الوضعية من التصورات البشرية لغـــايات الحياة ووسائلها ، فمن تلك التصورات تستنبط قيم السلوك ومن هـذه تتفرع التكاليف العملية . وقد تحظى تلك التصورات بالقبول العام وقتـاً ما ، لكن أفكار البشر قلّب مضطربة تتأثر بالظروف المحدودة التي تنشأ فيهـا ، وإن لم تكن نتيجة جبرية محتومة لمقتضيات تلك الظروف فإنها بلا ريب تحمل طابعها وتنتسب اليها نسبة وثيقة . فاستقامة التصـورات السائدة في المجتمـع رهن ببقاء الظروف . وما تتبدل أحوال المجتمـــع إلا تبدلت تبعـاً لها تصوراته





وقيمه . وإذا وقع التبدل عنيفاً سريعاً فربما يختل نظام المجتمع وتنشأ فيه أزمة بين مقتضى قيود الاخلاق وضغوط الحياة المتجددة . فلو جمد الناس على نظم سلوكهم في صورها القـــديمة ألفوهــا قيـداً على تقدمهم واختصاماً من مصلحتهم لأنها لا تتجه لتحقيق مقاصدهم في إطار الواقـع الجـــديد . واذا قدروا ان القاعدة الظرفية لأخلاقهم قد انهارت فتفلتوا منها نشداناً للانطلاق والتقدم الفوا أنفسهم في فترة تيه اخلاقي ، إذ لايتسنى لهم ان يواكبوا سرعة تبدل الاحوال فيراجعوا قيمهم وتقاليدهم مراجعة فورية ويبتدعوا قواعـــد السلوك التي تناسب العهد الجديد ويمكنوها في واقع التطبيق ، فريثما تتبلور أنماط جديدة للتكاليف والعلاقات ووسائل للرقابة والتأثير ثم تترزع هـذه المفهومات وترسخ في نفوس الأفراد ــ يقع المجتمـــع في شر كثير من جراء التفسخ والفراغ الخلقي . وهذه الآفة الانتقالية ظاهرة لايكاد البشر ينجون منها إلا بطرف من قواعدهم الاخلاقية الخالدة ، ولكن هذه في غالبها عمومات مبهمه لاتهدي المرء ولا تضبطه بوجه دقيق .

ثم ان التصورات والقيم التي تدعم الاخلاق لا يقر لها قرار ولا ينعقد عليها إجماع ، ولو في إطار ثابت من ظروف الزمان والمكان . فهي لكونها وضع بشر ــ عرضة للخطـأ الذي مايلبث أن يستبين فيدعو إلى مراجعتهـا ، بل هي هدف من دون ذلك للنقد والاختلاف . ومهما سـاد مفهوم معين لما هو الحق والرشد في شأنها وقبله سواد للناس ، لم يؤمن مع ذلك أن تنبري طائفة من المجتمع تطعن في حكمة الأصول التي يقوم عليها أو فاعلية الوسائل التي يتخذها أو ترى فيه نفوذاً ظالماً من فئـة متغلبة او غير ذلك من وجـوه الاعتراض . ومتى ما تضعضعت الثقـة في قواعد الاخـلاق بسبب اضطرابها والخلاف عليها تضاءلت قوة أثرها بدرجة كبيرة ــ ذلك ان الجـزاءات التي تحمي سلامة الأخلاق رخوه غير منضبطة فإذا لم يتلقها الناس بالتسليم الطوعي والإجماع الغالب فإنها آيلة بلا ريب إلى اضمحلال ، إذ يتحلل الأفـــراد من

ورعها ويتفلتون من حبائلها ويتسابقون في الارتداد عنهـا مطـاوعة للغرائز وارتياداً للحرية البوهيمية .

ويترتب على تقلب الناس في تصوراتهم الأخلاقية واختلافهم عليها تناقض كبير في أنماط السلوك السائدة . فربما اشتجر في المجتمع الواحد شتيت من المنـاهج السلوكية تعود إلى تقديرات متباينة في تحليل الواقع الاجتماعي أو القيم التي ينبغي ان تسود فيـه ، وهكذا تتفرق المذاهب بقطاعات المجتمع وطوائفه وتتفاوت أجياله وتتقلب أحواله بحسب الأطوار والصور التي يتخذها التعبير في المذاهب السائدة . فقد تكون طائفة من المجتمع منفعلة بتصورات دينية موروثة فهي توقر القيم الروحية وتتخذ نمطاً معيناً من السلوك وموقفاً معيناً من علاقات المجتمع ونظرة خاصة لمعنى الشر وميزان الظلم ، وطائفة أخرى أشربت القيم المـادية فاتخذت منهجاً آخر في سلوكها وعـلاقاتها وتقديراتها . وقد يكون المجتمع في واد من ذلك الشأن والقانون الذي تفرضه الهيئة الحـاكمة في واد آخر – إذ تتخلف الأخلاق التقليدية عن تصورات القيادة السياسية الشارعة للقوانين أو تتطور الأخلاق بينما يجمد القانون القديم بما يحمل من القيم البالية ، بل قد تعمد سياسة الحكام إلى حرب مباشرة على النظام الأخلاقي القائم لتبني على انقاضه اخلاقاً جديدة . وقد يكون الاستقرار والأمن هـو الهم الأكبر لطائفة في المجتمع فتبالغ في قيـود السلوك وضوابطه وتراها عين العدالة والمصلحة العامة ، بينما تدعو طائفة اخرى للثورة على التقاليد والانعتاق من اسرها وظلمها . وقد تكون موازين السلوك وضوابطه السائدة غير متسقة مع مستلزمات النهضة التي ينشدها المجتمع ، فما تقتضيه الأخـلاق من اتقاء بعض الأعمال مجانبة للشر وتقييد بعض العلاقات نفياً للتباغي والتظالم قد يناقض ما يشترط للنهضة من إطلاق حرية العمل والحركة من أجل التقدم والرقي بالحياة .

وقد تراعى قواعد الأخلاق الوضعية عن قناعة بحقها وتطبق بصدق ودقة ،





ولكن سلطانها على الأفراد يعتمد كثيراً على الرقابة التي تبسطها الجماعة على أعضائها والجزاءات التي ترتبها على مواقفهم الأخلاقية . وإذ كانت الرقابـة لا تسري إلا على ظاهـر السلوك فإن الالتزام بقواعد الأخـلاق الوضعيـة يستصحب كثيراً من المنافقة والمظاهرة مما يقلص مداه في الواقع ويوهن أصوله في نفوس الأفراد .

والقيم الوضعية الاجتماعية لا تسري إلا في حيز محـدود بين الجماعة التي تواضعت عليها ، فإذا اتصلت تلك الجماعـة بغيرها نشأ وضـع من العلاقات لا تسوده روح الأخلاق. وذلك أن ميل العصبية يشوب القيم الاساسية لكل مجتمع ويجعل الالتزام الاخلاقي قاصراً في مداه لا يكاد يرعى للأجانب حرمة او يقدر لهم قدراً . ولذلك ما يغلب قوم على قوم إلا استباحوا منهم وفعلوا فيهم ما لا يجيزونه في انفسهم ، وإذا تمكنوا بالغلبة من فرض قيمهم وإشاعتها وقع في ضمائر المغلوبين ازمـة واضطراب – إذ تتنازعهم القيم الموروثة من جانب – تشدهم إلى تقاليد السلوك المتوطنة – والقيم المستحدثة بجانب آخر ، ويصيبهم من جراء هذا التنازع الاخلاقي قلق يعكر امنهم وطمأنينتهم وتضار منه علاقاتهم الاجتماعية .

وحين تشتد ازمة الأخـلاق في المجتمع بسبب من سرعة نهضته او انحلال عروة إجماعه او تعرضه لتيارات اجنبية فإنه قـد يلجأ للقـانون بنصوصه المنضبطة وإجراءاته القطعية وجزاءاته الشديدة لتحقيق الأمن وفرض القيم التي يتبناها ذو السلطان . ولكن القانون الوضعي يتأثر بذات العلـل التي تصيب الأخلاق ، لأن فاعليته تعتمد كثيراً على ما يوليه الجمهور لأحـكامه من التقبل وتوطين النفس . ولا حاجة للعـود على الحافرة في تفصيـل ذلك . وحسبنا بيان موجز لحدود وظيفة القانون الوضعي وأثره في الواقع خاصة حينما يكون الجزاء والقهر والمراقبة الرسمية هي أدواته الاساسية .

فالخطاب القانوني محـدود في كيفه ، إذ لا يستطيع المشرع أن يحصي

أعيان الأشخاص جميعاً أو يحيط بكل الحالات التي تنشأ في علاقات الحياة ليفصل لها التكاليف الجزئية المناسبة، ولا تتسع وسائل التشريع والتنفيذ إلا لقدر معلوم من الأحكام . فيقنع القانون لذلك بعمومات الخطاب وإجمالاته يبنيها على تقديرات التوسط والتقريب ، ويفوته بذلك ان يخاطب الفرد على وجه التعيين وينظم الحالات على وجه الخصوص بحيث يضمن تمكين المعاني التي يتوخاها بدقة متناهية وفي كل زاوية من اوضاع الحياة .

ومن وجوه القصور في القانون انه موكول في مراقبة تنفيذه لسلطة البشر التي لا تتعلق إلا بظاهر السلوك ، وتجيء غالب أحكامه تبعاً لذلك قوالب شكلية لضبط مظاهر السلوك . وقليلاً ما يطرق شارع القانون بتكليفاته مجال الحياة الخاصة بالفرد أو ينفذ بها إلى نطاق مشاعره ونياته المضمرة . فلو اقتحم السلطان خاصة الإنسان وضميره لاستدعاه ذلك ان يتكلف بسط قوة هائلة من التجسس والإرهاب ، ثم لا يجدي ذلك كثيرا بل ترتد منه عاقبة غير مرضية على المجتمع وعلى السلطان .

ويكف من مدى اثر القانون انه لا يتخذ من وسائل التأثير إلا الترهيب ولئن كانت الدولة حين توجه الافراد للعمل المنتج وتعدهم بعض الاجر لا تملك ان تضاعف الأجر بلا نهاية لتبلغ قدرا يدعو لجلائل الاعمال ، فإنها اعجز ان تفتدي من الشر بأن تعطي كل فرد وترضيه ليكف عن البغي والعدوان . وإنما حيلة شارع القانون ان يبسط الجزاء بالعقاب إيلاماً للمعتدي في شخصه بالحبس والجلد والتسخير أو في ماله بأن يغرم شيئاً للمجتمع او يعوض الآخرين عما أوقع بهم من ضرر . فمن طبيعة الجزاء وإجراءات التطبيق فيه يقتصر القانون على النهي عن كبائر وجوه العدوان والامر بالواجبات الأساسية .

وكما يقتصر القانون في خطابه على ظاهر السلوك ، يشكل ذلك الظاهر أيضاً حداً على الرقابة الموضوعة في سبيل تنفيذه وعلى البينات التي تستدعى لإثبات المخالفات . فالقانون قاصر لذلك عن تحقيق العدالة المثلى والردع





الفعال لأنه لا يحيط بجميع عناصر الحقيقة الواقعة . بل إن اعتماد التنفيذ على ذوي النفوذ والتصرف في الدولة يجعل لهؤلاء نوعاً من الحصانة من طائلة القانون . فالقانون في مضمونه مظنة تمثيل مصالح الحاكمين ومحاباة أغراضهم لأنهم أصحاب سلطة التشريع . بيد ان تطبيقه يستتبع ظلماً فضلاً عن ذلك لأن نفاذه رهين بأجهزة الدولة التي يحملها نفس منطق القوة التي تقوم بها على ألا توقر الضعيف سواء بالشريف وألا تُمضي حكم القانون على ولاة الأمر بمثل ما تفعل بالرعية .

• • •

وحسبنا ذلك البيان لإثبات قصور النظام الوضعي وفضل العقيدة في سيادة الأمن والنظام الاجتماعي . فلا سبيل لمجتمع يفسق عن الدين مهما اشتد من بعد في حملته التربوية والقانونية ان يبلغ من دقة النظام والانضباط ما يحققه الدين بميسرة ورفق . وينبغي التنبه إلى ان معاني العقيدة الداعية للتقوى والالتزام إنما تتناصر في واقع الحياة المؤمنة مع المؤثرات الاجتماعية ويعزز بعض ذلك بعضاً . أما المجتمع الوضعي فقصارى جهده ان يكثف الإرشاد والتربية الأخلاقية ويبسط القانون – إلا ان يكون فيه أثارة من دين في نفوس الأفراد . ويُضعف اثر الأخلاق الوضعية ما يلازمها من تناقض واختلاف ، بل إنها لا تقوم على اصل متين يدعو لدقة الالتزام إلا تقدير الفرد لحق الجماعة ولتقاليدها ومصلحتها في سيادة السلوك القويم – وذلك كله لا يكفي لكبح هائجة الشهوة والغضب وسائر الاهواء التي تجنح بالإنسان إلى العدوان . اما القانون فإن وسائله في الخطاب والرقابة والجزاء تقصر به عن جوانب كثيرة من الحياة لا قوام للمجتمع بغيرها ، بل لا قبل للقانون بمعالجة الجنوح السلوكي إذا تفشت دواعيه ، فإنما جعل لضبط شواذ السلوك إذ تكون الحالات محدودة ومعدودة يستظهر فيها القائمون به بعون من سواد المجتمع ، ولا يتسنى للقانون ان يحيط بالشرور الفاشية او يقيم على كل احد رقيباً وحسيباً .

ولا يحدث للإنسان من وقع الضوابط الاجتماعية شعور بتكليف أخلاقي مباشر يستقر في نفسه فيحكم نيته المستورة ونجواه المقصورة وسيرته المشهورة بصاحبه حيثما كان في خاصة امره مع نفسه وربه وفي علاقاته العامة مع اهله وقومه الأدنين ومع البشر كافة ويلزمه سواء كان قدره في المجتمع رفيعاً أو وضيعاً — لا يحدث ذلك إلا بالتربية الدينية التي تورث المرء نفساً تقية زكية ، ولا تتفق سمات الشخصية الأخلاقية للفرد مع معاني النظام الاجتماعي فتنحو نوازع ضميه نحو المؤثرات الواردة عليه من قبل المجتمع — إلا في إطار الحياة الدينية ذات المعاني المنظومة والأصول الواحدة .

• • •

ومما يشهد على قصور القانون وسائر الضوابط الاجتماعية ظواهر التفسخ والانحلال التي اعترت اكثر المجتمعات المسيحية الحاضرة بعد ان تضاءل فيها اثر الدين . وقد كانت في عهود سالفة تشتمل بنسج وثيق من قواعد الأخلاق ساكنة مطمئنة ، ثم اتى عليها زمان بدت فيه تلك القواعد تزمتاً مفرطاً وقيداً ثقيلاً على الحياة في الظروف الجديدة ولم يكن فيها مسمع للاجتهاد والتجديد لأن سلطان الكنيسة كان يدعمها بحجة دينية جامدة . وإذ كان الدين ذاته قد ضعف شأنه من وجوه أخرى فإن الناس لما خرجوا من حرج القوالب السلوكية التقليدية فسقوا عن الدين كله ولم يكترثوا لمعالجة علاقات حياتهم الجديدة معالجة اخلاقية من دي أنف ، بل بطلت احكام السلوك الموروثة وانهارت معها اصلب قاعدة للالتزام الخلقي إلا بقية من معاني الدين المبهمة .

وقد استسلمت كثير من المجتمعات الحديثة لصنوف من السلوك على كره منها لأنها عجزت ان تنهى عنها بما بقي لها من وسائل الضبط الاجتماعي . ولعل اوضح مثال لذلك في الخمر التي استعصت على التحريم والتنظيم على



ما يعاني الناس من اضرارها وامراضها المهلكة . وربما آل أمر المخدرات إلى مثل ذلك لأنها سريعة التفشي قبضة لا يكاد يفلت منها من تنشبه . وقد غلبت كثير من الأمم على امرها فتقهقرت امام شيوع فواحش الجنس ومحرماته التي تبدأ شاذة منكرة ثم تتفشى تحت استار المراوغة والنفاق حتى إذا استفحلت اعتذر بأنها من حرمات الحرية الشخصية فتنحسر عنها حدود القانون وتزين من بعد باسم الحرية .

والحق ان زحف الحرية المتوهم إنما هو انهزام نظام الضوابط الاجتماعية الذي وهت عراه عندما انفصمت عواصم الدين ثم ازداد وهنا عندما انتقل سواد الناس من المجتمعات الأولية التي يقيم بعضهم على بعض فيها رقابة وثيقة الى مزدحمات المدن الكثيفة حيث يتعاملون عرضاً بعضهم لبعض نكرات ليس بينهم إلا صلات سطحية عابرة تقتضيها المصالح الشخصية المباشرة لا يتوادّون فيها ولا يتواصون بالخير . وقد اصبحت جرائم العدوان على الأموال والأنفس في المدن خطرا ماحقاً يسابق التطور في تدابير مكافحة الجريمة .

ومن علل الرقابة العامة التي يضربها المجتمع الحديث على أفراده ان الجماعات المنظمة قد تطورت فاتسعت أطرها وتوثقت أبنيتها ، فربما حجبت الجماعة أعضاءها الافراد وقامت بمشهور اسمها ويحمل كيانها شخصاً وهمياً مبهما تكاد تنخسف في جنبه اعيان الاشخاص البشر ، وأصبح العمل الصادر من قبل الجماعة يسند إليها إجمالاً دون تعيين لمن كسبوه او تعاونوا عليه او تمييز لأنصبائهم من التبعة . ومن وراء واجهة الجماعة التي لا تتجاوزها رقابة المجتمع تضيع المحاسبة الشخصية والمجازاة المباشرة ، فربما ، ذهب المخطىء بمنجى من الملام والعقاب او لم ينله إلا شيء مما يشمل الآخرين . ولما كان اوقع الجزاء ما يخص ولا يعم وما يبوء فيه المخطىء بقدر كسبه المعين فقد أدت تلك الظاهرة الى وهن المسئولية الاجتماعية الواقعة على الفرد واكدت حاجة

الحياة الحديثة لتربية أخلاقية يقدر بها الفرد مسئوليته الذاتيـة التي تلاحقـه حيثما كان في ثنايا المجتمع وتقع عليه وقعاً مؤثراً .

فلو لم نعتبر إلا بتجارب المجتمعات الحديثة لقدرنا مـدى ضرورة الدين لمجتمع الإنسان ؛ ففي ظل الدين تتألف عوامل التأثير الاجتماعي والسياسي ودواعي التقوى المنبعثة عن الضمير الديني لتبلغ مستوى عظيماً من الفاعلية في حفظ نظام المجتمع ورعاية المصالح التي يتوقف عليها ذلك النظام ، فيغدو من الميسور للمجتمع أن يطهر من كل مفسدة دونما عنت يصيبه من شدة وطأة القوانين ، لأن المؤمنين يتجاوبون طوعاً وتسليماً لداعية الفضيلة ، وتصفو ذات البين في المجتمع من كدر المشاحنة والتباغي إذ يصب فيها الايمان من معاني الإخاء والتحاب ومن آداب المخالقة الحسنة زيتاً تدر به الحياة الاجتماعية في سلاسة وسلام . وتقوم الشريعة بين الناس ميزاناً مرضياً يردون إليه ضبط علاقاتهم ، فتهديهم الى العدل بين الرجال والنساء والمعاشرة بالمعروف بين الزوجين ، وإلى الإحسان بالوالدين والقيام لليتامى بالقسط ، وتوصيهم برعاية حقوق القربى والجوار والزمالة ، وتنظم معاملاتهم وتفصل في خصوماتهم ـ وتدلهم في ذلك كله للتي هي أقوم وأعـدل . وفي رحاب الدين يتزكى خلق الفرد وتستقيم سيرته ، ذلك انه يتخذ من لقاء الله الهدف الأعلى ومن عبادته الهم الاول ـ يرهن في سبيل الله حريته ويسلم حياته وبطوع قوته ويضبط شهوته واجـداً في الطاعة والتسليم طمأنينة لنفسه وشعوراً بالتسامي نحو الكمال ، فلا يقـدر في ضوابط السلوك الشرعية إلا معالم طريقه الى الله ـ يهش لها ويراعيها بنفس طيبة وحرص مخلص .

أما حيث يفتقد الايمان فإن الانسان بضلاله عن الله لا يرى في الوجود إلا ذاته يتعبد لها بإشباع شهواته واتباع هواه ويلتمس الكمال في الطلاقة من كل قيد يحد شهوة بطنه وفرجـه والتعالي عن كل ضابط يكفكف من كبريائـه وخيلائه . ولكن الهوى السادر يهوي بصاحبه ويرديه ، إذ يذهب الانسان





في طلب المسرات والمتع حتى يورد نفسه موارد الهـلاك ـ كالذي يتعاطى المسكرات والمخدرات طلباً للنشوة ولا يبالي مغبة ذلك في صحته ووقته وماله وعلاقاته ، والذي يلتمس شهوة الجنس كيفما اتفق له ولا يهتم بأثر ذلك على الزوجية وما تتضمنه من معاني الوفاء والتوقير والاستقرار في علاقات الذكر والانثى والأسرة وما تؤديه من وظائف اجتماعية في تربيـة النشء وتهيئة إطار محدود يتوافر فيه التضامن والود الوثيق . والذي يركب برأسه وهواه أقل اكتراثاً بما لا يرتد إليه بالضر المباشر ، بيد ان المجتمع بعضه من بعض لا تفشو فيه الجرائم ومفاسد الاخلاق إلا عادت عليه بالخسران الشامل فيلفي طاقته الاقتصادية ناخرة وأمنه السياسي مضطرباً وطمأنينته النفسية زعزعا .

## (ب) الحياة السياسية

### ١ – الايمان والأوضاع السياسية :

لا تنشأ حياة سياسية إلا بقيام جماعة توحدها أواصر الموالاة ويعيّنها من دون الناس شعور بذاتية مستقلة ثم تقوم عليها سلطة مركزية ترعى شئونها وترتب علاقاتها العامة بمقتضى نظام جامع . وقد تتوافر هـذه الشروط من خلال التجارب التاريخية المشتركة التي تخوضها طائفة من البشر حتى ترسو فيها وشائج الولاء وتستقر أعراف الحكم . ولكن نماء العاطفة الموحدة واستتباب النظام الحاكم تطور عسير يكلف كثيراً من الرهق والاضطراب في مرحلة بناء الأمة ، إذ تكون الوحدات الاجتماعية الأولية التي تأتلف في تكوين الأمة لا تزال مشربة بروح العصبية الاعتزالية ومقيمة على حال الحرية الساذجة التي تستعصى على الانضباط . ثم إن الأمة قد يعتريها الهرم بعد تمام التكوين فتطرأ في وسطها نزعات التجزئة التي تهـدد سلطانها الواحد . ولا ينفك التاريخ يشهد دورات نشوء الأمم وانحلالها وتوارثها لولاء الناس وأقاليم الأرض .

إلا الإيمان فإنه يبني الأمة بأيسر وأسرع وأثبت ما يكون لأن الإيمان مفعول اختيار حر . فايمّا طائفة من الناس اختارت الإيمان أصبحوا لفورهم أمة واحدة تظلهم جامعة الدين ، ثم تقوى جامعتهم من بعد بفعل عوامل



التوحيد التي تنشأ على التراخي في تطور الأمم الأخرى كانتشار اللغة الواحدة واختلاط الدم ونشوء المصلحة الواحدة والتاريخ المشترك . فبالإيمان يتجاوز الناس عصبياتهم القبلية وولاءاتهم الموزعة ويتجردون من رواسب المعهودات القديمة . ويزيد من وحدة المؤمنين انهم بعد العقيدة الواحدة يعتصمون بمنهج شريعة واحدة في الحياة تحكم بينهم فيما يختلف فيه البشر . فإذا ثارت بين المؤمنين دواعي الخلاف ألفوا مرجعاً مرضياً يحتكمون إليه ، وإذا تنازعوا في أمر لم ينتقص من ذلك وثاق وحدتهم لأنهم موحدون بكل معنى من معـاني الحياة ـ ما تهي بينهم عروة إلا استمسكوا من دونها بعرى وثيقة تعصمهم من الفرقة البائنة . وتفصّل الشريعة تنظيم علاقات الأمة وتدعم رابطتها بعقـد الصلات المناسبة وإحكام الموالاة بين المؤمنين وبالدعوة الى الإخلاص والطاعة والتجرد عن كل ولاء آخر . ثم تقيم دستوراً للولاية العـامة وتنظم الحياة السياسية وترتب اوضاعها بوجه يضمن تجاوب الأفراد كافة في شئونهم العامة حتى يتحقق التكامل العضوي بين الأمة وتتأكد وحدتها الحية .

ونسبة لثبات معاني الايمان وخلود أحكام الدين التي شرعها الله فإن الجماعة المؤمنة أسلم مما يطرأ على سائر الناس من تقلب الأهواء البشرية الذي ينسخ العهود ويفرق المـذاهب ويشتت الولاء . بل إن المؤمنين اخوان على مدى التاريخ ولأمتهم أبعاد ضاربة في الماضي والمستقبل إذ يستشعرون بأنهم موكب واحد عبر الزمان . ولا يذبل الإيمان أو يعطل المؤمنون شريعتهم أو جانباً منها إلا اتبعوا لتوهّم شعاب الاهواء المتفرقة فتنفرط وحدتهم وينبت ما بينهم : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . » ( الانعام ١٥٣ ) . وتلك علة من علل أهل الدين ذات خطر تقطع الأمة شعوباً وأقواماً كما يشهد واقع ذوي الديانات : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون . » ( المائدة ١٤ ) . وقد أدركت المسلمين عاقبة تعطيل الشريعة

فقطعوا أمرهم شعوباً وأقواماً لكل منهم شأن سياسي منفصل . ولكن معاني الدين باقية ودواعي التوبة والإنابة كامنة في نفوس المؤمنين فما يتجدد الإيمان ويحيا مامات من سنة الشريعة إلا وتنبعث الحياة الدينية بمعانيها الواحـــدة لتضفي على أمة الإيمان صفات الوحدة والدوام والاتصال .

● ● ●

وإذا قامت في البلاد ولاية سياسية ونظام حكم فإن من السنن الاجتماعية المألوفة أن تتسلط في ذلك كثرة أو قلة أو يطغى الحاكم ويتجبر على الرعية . وذلك أن السلطة تؤول بطبيعة الأشياء لمن له الغلبة القاهرة ثم يتيسر له من منصب السلطان أن يحتكر أسباب القهر الأدبي والمادي ليستخف النـاس ويذل أعناقهم لأمره وقد تعلن الأمة في دستورها مبادىء العدالة السياسية وتطبق صور الديمقراطية وتقرر إجراءات توزيع السلطة وإشاعة الشورى ، ولكن النظام السياسي كثيراً ما يجنح في واقعه نحو الظلم والاستبداد إلا إذا كانت قد استقرت في تقاليد الامة معاني المساواة والحرية والشورى وتمكنت في حياتها النظم والاعراف المناسبة لتلك المعاني . بل قد تثبت الأشكال الدستورية للنظام النيابي الشوري وتتواقر الضمانات القانونية للمشاركة العامة في السلطان ثم يكون تركيب المجتمع من حيث الثروة والجـاه قائماً على غير العدل والاتزان ، فتباح للفئات الحظية أن تستغل نفوذهـا وجاهها وقدراتها الدعائية لتتحكم في تصريف الشئون العـامة وتفصل بين الخصومات والمصالح المتعارضة باسم الإرادة العامة ، ويكون الحكم في حقيقـة أمره حكم قلة . ولا يسلم الناس ما تحاكموا إلى البشر من الظلم والمحاباة لأن الفئة الحاكمة لايمكن أن تقوم بالعدل المطلق ، ولو أنها توخت العدل ولم تكن الإثره والمحـاباة سياستها العامدة لحملها هواها على بعض الميـل ، فذلك خلق فطري لايتجرد عنه البشر . ومهما يكن عدل الحكام أو جورهم فإن الرعية لا يرجى أن تتقبل حكماً لا تشارك فيه عن طيب خاطر ، ولو رضيت طائفة منها لأنكرت أخرى ، لأن النزاع بين الناس لا ينحسم بحكم أحد دون الآخر وقد يدور



المحكوم دونه بين وجوه الشعور بالظلم بلا نهاية — إذا حرم سخـط ، وإذا أعطي طمع في المزيد ، ومهما عدل له راوده سـوء الظن مادام الذي يفصل في الأمر إنساناً آخر ذا غرض ومصلحة .

أما حين يؤسس المجتمع على العقيدة الدينية فإنما يخضع العباد ولاة ورعية لأحكام شرعها الله لم تضعها طبقة اجتماعية تتغول على أخرى ولا كثرة تغلب على قلة بل هي شريعة من رب العباد الذي لايظلم أحداً ولا يحـابي طبقة — أنزلها ليقوم الناس بالقسط متجردين عن أهواء الموالاة والمحاباة تتقـرر بينهم الحقوق والأوضاع على عدل واستواء . فالشريعة بتعاليمها وموازينها تمثـل الحكم الذي يطمئن إليه الناس جميعاً وينعقد حوله الإجماع وتعكس لذلك الارادة العامة للأمة ، فإذا طبقت كانت أصدق تحقيق للمبادىء الداعية لأن يردّ الحكم إلى مقتضى إرادة الأمة . وهي بفروع أحكامها تشكل دستوراً يضع ضوابط العمل السياسي ويرسم حدود السلطة العامة ، وينضاف إليهـا ما تسنه الأمة بإجماعها على هدى من أصول الشريعـة فلا تترك مجالاً لعسف الولاة . ثم إن الشريعة بنصوصها ومبادئها الثابتة وبأحكامها التي تتجـدد بالاجتهـاد تقيد الولاة في واقـع الأمر أكثر ممـا يقيدهم مثلها من الدساتير والقوانين الوضعية — فإجراءات المراقبة والجزاء التي تقترن بالأحكام الوضعية ضماناً لنفاذها لا تسري على أرباب الولاية السياسية بوجه فعال . وذلك أن الأسباب تواتيهم للتخفي بفسادهم ، لاسيما في المجتمع الحـاضر الذي اتسعت فيه الحياة وتضخم جهاز الحكم وتباعد عن رقابة الجمهـور واكتنفه التغور والسرية . ولعل خير شاهد على عجز القانون وحده عن ضبط سلوك الحكام هو القصور الواضح الذي يلازم تطبيق قوانين الفساد السياسي ثم إن الولاة هم المتصرفون في القوة المنفذة ، ولا ينتظر أن تنفذ عليهم قوة القانون كما ينبغي. أما الاحكام الدستورية الموجهة لضبط سلوك الحكام فهي لاتستصحب في الاغلب إلا جزاءات رخـوة غير منضبطة ولا مؤكدة . ولكن الالتزام بأحكام الشريعة إنما يؤسس على معاني الطاعة لحكم الله عبادة له وتقديراً

حسابه وجزائه . فولي أمر المؤمنين يعلم أنه مهما استخفى بالظلم من الناس أو جوزه عليهم بالدعاية الزائفة لا يمكن ان يفلت من رقابة الله الوثيقة الدائمة وأنه مهما ملك من اسباب القوة والمكر والسلطان لا يأمن مكر الله ولا يسلم من بطشه . وحسب الوالي المؤمن من دواعي التقوى ان يسمع نذير النبي ﷺ: « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة » ، « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » ( البخاري ) ؛ « إن المقسطين عند الله على منابر من نور . . . » ( مسلم ) . فبالإيمان تنحل أعضل مشكلة تواجه المجتمع والفكر السياسي البشري ، وفي ظله يقوم طراز من ولاة الأمور يضربون أروع الأمثال في الصلاح ويبلغون — من الاجتهاد في امر الامة والنصح لها ومن رعاية الشورى وآداب الولاية السياسية ومن بسط العدالة الدقيقة بين الرعية ومن العفة عن مال الأمة ومن التواضع والرحمة — قدراً لا يتيسر لحاكم لا يؤمن بالله ولا يرجو اليوم الآخر .

• • •

ومن المعهود في التجارب السياسية ان تواجه الدولة مشقة وحرجاً في فرض سيادة القانون ونفاذ السياسيات التي توجه بها المجتمع نحو غاياته المنشودة — إذ لا سبيل لأن يحيط جهاز الرقابة بسلوك الأفراد على نحو كامل ، أو أن يبلغ نظام التوجيه والأجور والعقوبات آثاره المرجوة ، أو أن يستقيم كل فرد بالطاعة المخلصة لولاة الأمور . ثم لا تشتد وطأة إجراءات الرقابة أو تتضاعف أقدار الأجور والعقوبات من أجل محاصرة الأفراد وحفزهم إلى الاستقامة إلا انقلب ذلك شراً على المجتمع في أمنه وطمأنينته ورفاهة عيشه ، ولا تقتصد الدولة في ذلك إلا تهدد سلام المجتمع أيضاً بنشوء التظالم والإجرام واختلت أموره من تثاقل الأفراد في النهضة للواجبات العامة والاحتفال بها .

ولكن المجتمع المؤسس على الإيمان تستند قوانينه وتدابيره الى اصل ديني





سواء منها ما يمثل نصوص الشريعة ومبادئها وما يستنبط من ذلك باقتراح الفقهاء وإقرار المؤمنين عن طريق الشورى والإجماع . فكل ما تنظمه السياسة الشرعية للدولة يجد القبول الصادق لدى الأفراد ويمضونه طوعاً لأنه مقتضى الحق ومظنة الخير ، ويتأكد سلطانه في نفوسهم بتقدير المسئولية الدينية لأنه موضع حساب الله وجزائه . فإذا تناصرت عوامل الطاعة لأمر الدين والهيبة للسلطان السياسي والتوقير لشأن المجتمع كان ذلك أعصم للمجتمع من أن تشيع فيه الجريمة ويكثر الضرار والتخاصم في العلاقات المدنية ومن أن تتضاءل همة الأفراد ونهضتهم للمصلحة العامة — وتلك ظواهر تفاقم خطرها كثيراً في المجتمع الحديث الذي تتعقد فيه العلاقات وتتكاثف التكاليف الاجتماعية .

• • •

لقد أسلفنا ان الايمان يؤسس الجماعة بما يحقق المعدلة التامة بينها وبين اعضائها الأفذاذ ، وأنه يجعل للفرد اعتباراً ثابتاً يتجلى في خصوص علاقة العبودية بين الإنسان والرب وفي فردية التكليف والمساءلة — لا يكسب المرء إلا لنفسه او عليها ويأتي ربه يوم القيامة فرداً لا يفوته أجره الى آخر ولا يزر وزره وازر . ويقتضي مفهوم الايمان ان تكون للفرد حرية الضمير يختار دينه في الحياة كما يشاء ويحدد انتماءه الاجتماعي ، ثم يبني الدين من جملة الإرادات الفردية أمة تقوم على الرضى والاشتراك على القهر والغلبة ومصادرة الحقوق . وتنتظم الأمة المؤمنة بشريعة واحدة تحقق بأحكامها الثابتة توافق سعي الأفراد وتجعل الجماعة كائناً حياً تتضامن أعضاؤه كالجسد الواحد ثم تفصل الآداب والنظم العامة فيها بعدل وفقاً لاعتدال المعنى التأسيسي الذي تقوم عليه . وتكفل الشريعة للفرد حريته وكرامته ثم تشده بعاطفة الإخاء والولاء الوثيق الى أهل الايمان ، وتؤسس نظم الحكم على البيعة المرضية بين الوالي والرعية وعلى الشورى والمناصحة بينهما ، كما تؤسس الاقتصاد على حرية الكسب المشروع ثم على الإنفاق والتكامل والمشاركة ، وهكذا في سائر شئون الحياة .

فللفرد من اجل ما تقدم حقوق مرعية وحرية لا تنتهك ـ كل ذلك تقتضيه معاني العقيدة وتفصله احكام الشريعة . فله من حيث هو نفس بشرية قيمة جليلة ، لا يجوز إزهاق روحه إلا بالحق من أجل النفوس الأخرى . ولعل من أعظم ما تعلمه الناس بالدين في هذا الشأن ألا تجهض المرأة عبثاً او يوأد الولد خشية إملاق وألا يجهز على الجريح ولا يعاجل المريض اليائس أو يقضى على ذي العاهة . ولا ترعى حرمة النفس لذاتها ولكن لتوافي قدرها في الابتلاء فتعبد الله ، ومن أجل ذلك حرم على المرء أن يقتل نفسه . وللفرد كذلك حق في زوجه وولده ـ ألا يفرق بينهم إلا بالحق ، وفي بيته وخاصة حياته ـ ألا يُتجسس عليه ولا يظهر عليه أحد إلا بإذنه ، وفي عرضه وكرامته ألا يذم ولا يذل ، وفي ماله الذي هو ثمرة كسبه ـ إلا ما كان فيه حق للآخرين. ثم إن للفرد حقاً أن يشارك في أمر الجماعة العام وأن يلتمس منها تأمين حقوقه ورعاية حاجاته في الحياة .

والفرد المؤمن – إذا كان واحداً من الرعية ـ يعرف حق نفسه في موازين العقيدة والشريعة فيأخذ لها حرمتها وكرامتها التي وهبها له رب العالمين ، ويعرف واجبها الناتج عن أمانة المسئولية التى حملها إياه الله . فهو في الحياة العامة يصدع برأيه ويناصح الآخرين ويتعاون معهم على صلاح الأمر العام ليؤدي الأمانة وليكسب لنفسه ويسلم من الحساب ، وهو لا يرضى بأن يكون إمعة لأن كسب الآخرين لا يجديه ولا ينجيه من الحساب . ولكنه أيضاً يعطي الجماعة حقها في شخص حكامها وفي حق نظامها ، فلا يعصي ولا يخرج ولا يبغي الفساد في الأرض . وإذا كان الفرد المؤمن من ذوي الولاية العامة والنيابة عن الجماعة فإنه بقدر المعاني المتقدمة فيفنذ أمر الجماعة على أفرادها بحزم وإخلاص ، ولكنه يرفق بهم فلا يفرط في ولايته ولا يطغى .

وليس من الميسور ان تتوافر للفرد حريات مكفولة في وجه الولاة إلا إذا ساد الإيمان بشريعة علية تكون دستوراً ضابطاً لسلطان الدولة فاصلاً بينها





وبين الرعيه . ثم من العسير إذا تقررت تلك الحريات ان ينهض الافراد لممارستها بإيجاب يحقق مغزاها ويجعل الشورى حقيقة نافذة في الواقع تجني الأمة ثمارها الطيبة – من العسير ان يحدث ذلك إلا بالإيمان الذي يقرن الحرية بالمسئولية ويجعلها أمانة واجبة الأداء .

● ● ●

وتتألف من المؤمنين أمة عزيزة مستميزة – لأن معاني الإيمان تقتضي ان يكون المؤمن ذليلا لإخوانه في الدين براً بمعاهديه في الوطن ثم يكون عزيزا على من سواهم من الناس ، وأن يكون شديد الولاء للجماعة المؤمنة متنزهاً عن كل ولاء آخر . فأمة المؤمنين إذاً عزيزة تأبى أن يتسلط عليها قوم آخرون أو يختصموا شيئاً من حقها ، وهي مستقلة ذات خصائص وسمات لا تذوب ولا تفنى في الآخرين بل ترى في الوقوع تحت نفوذ الآخرين ارتداداً ونكسة: « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . » ( آل عمران ١٤٩ ) ، ولا يطرأ على أمة المؤمنين الذل أو المسكنة إلا بعلة في عقيدتهم توهن عزائم النفوس وتجلب سخط الله : « ... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . » ( البقرة ٦١ ) ، بيد أن الامة مع ذلك كله مسئولة يحكمها في علاقاتها ضابط من شريعتها ووازع من مسئوليتها أمام الله ، فلا تعتدي ولا تظلم مهما واتتها أسباب القوة أو أمنت في عاجل أمرها غوائل العدوان أو لم يزعها في الأرض وازع . ثم إنها أيضاً أمة ذات رسالة وبلاغ تقبل على العالم غير خانسة ولا متقوقعة لتفيض على الناس من إيمانها وتبسط عليهم دعوتها ، لكنها بسبيل ذلك تخيّر في غير ما إقسار وتذكّر في غير ما سيطرة .

ولقد ظلت العلاقات الدولية لعهود طويلة في تاريخ البشرية غفلاً من ضوابط القانون تصطرع فيها القوى الظالمة وتخربها بالحروب – حتى توثقت صلات العالم ونشأت في علاقاته مبادىء القانون الدولي الذي ما زال منقوص

الأثر قليل النفاذ . لكن في الشريعة للدولة المؤمنة حاكماً يعلو فوق سلطان الدولة يضبط مسلكها في العلاقات الخارجية بسياسة رشيدة تمثل المعـاني الاساسية التي تقتضيها العقيدة في شأن الامة . فبحكم الشريعة يتحد المؤمنون في دولة واحدة ويكون لغيرهم إن شاء أن يواطنهم في إطارها على عهد وذمة ويكون بينه وبين المؤمنين الـبر والمساواة والوفاء . وتوجب الشريعـة على المواطنين أن يتوالوا ويتناصحوا من دون سائر الناس ، وتوجب على الدولة أن تفي بعهودها مع الدول الاخرى وتستقيم فيها ما استقام الطرف الآخر وأن تراقب الله في حق الغريب اللاجيء وتراعي حرمـة الإنسان والاخوة الإنسانية في كل الاحوال : « إلا الذين عاهـدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين ... وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . » ( التوبة ٤ — ٦ ) . ومن وظائف الدولة فضلاً عن رعاية مصالح المواطنين ان تعمل بالحسنى لنشر دعوة الدين الحق في العالم .

ثم ان الشريعة تأذن للدولة بـل توجب عليها ان تجاهـد وتقاتل لرد العدوان الا اذا وسعها العفو ولم تحذر أن يضيع لها حق مقـدر . والأمة المؤمنة المقاتلة ليست شيطاناً مريداً تطغيه حمية الغضب وتغريه شهوة البطش ، بل يظل معنى تقوى الله حاضراً لديها في كل حال وحرمات الشريعة مرعية عندها ، فتقف عند حدود أحكام المحاربة المعروفة وتنكف عن الإسراف في التقتيل والتخريب والافساد في الارض لغـير ضرورة أو بغير بينة : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبـل فمنّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بمـا تعملون خبيرا . » ( النساء ٩٤ ) .

وما دام البشر لا ينفكون عن التدافع والقتال فإن العقيدة تهيىء المؤمنين



وتحرضهم على الجهاد وتبعث فيهم من رجاء الآخرة ما تهون في سبيله مشتقات الجهاد : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليماً حكيماً . » ( النساء ١٠٤ ) . ويُعلي الدين قدر المجاهد وأجر الشهيد فيجعل للمؤمنين بأساً لا يضاهيه بأس كثير المقاتلين بغير دين : « ... قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . » ( البقرة ٢٤٩ ) . ويقوم التاريخ كله شاهداً على أن الأمة إذا صدق لدى أبنائها الإيمان والتوكل والصبر هيأ الله لها أسباب النصر والعزة مهما غالبها الأعداء وكاثروها ، وما يسري فيهم حب الحياة وكراهية الموت وتهن نوازع الإيمان نحـو الآخرة ودوافعه إلى الجهاد إلا ضربت عليها الذلة والمسكنة وتداعت عليها الأمم ثم لا تغني عنها كثرة ولا سلاح . فالأمـة المؤمنة — بما تدفع بالتي هي أحسن وتجنح للسلم والتعاهد والتراضي وبما ترجو من دعوة الناس الى دينها — تكون منفتحة على العالم معنية بشأنه تتفاعل معه تهبه رشداً من هداها وتمنحه من ثروتها الفكرية وتجاربها العملية وتقتبس من ما يناسبها من العلوم والتجارب الإنسانية . وبذلك يتعايش بنو الإنسان في سلام لا يكدره عـدوان ويتعاون البشر فيما يصلح حالهم ، ثم يتنافسون بالحسنى أيهم أهدى سبيلا حتى يظهر الحق ويزهق الباطل من حيث لا تكون فتنة ولا إكراه في الدين . وهي بسياسة الجهاد والانتصار للحق تحرس كيان الجماعة المؤمنة وتحمي قاعدة نشر الإيمـان لئلا يأتي عليها طوفان الضلال وتغمرها الملل الأخرى فيذهب ريحها ويخسر العالم ما تدلي به من نصيب في إعمار حضارة الإنسان وترقية حياته الدنيا والأخرى : « ... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العـالمين . » ( البقرة ٢٥١ ) .

### ٢ ـ عزل الدين عن السياسة :

إذا كان حقاً هو عظيم شأن الإيمـان في الحياة السياسية فقد يعجب المرء

في سبيل ذلك ليس حكراً لسلطة كنسية أرضيـة ما أنزل الله بها من سلطان .

ولذلك حاول بعض قادة الدين أن يستنقذوه مما أوقعه فيـه رجال الكنيسة ، فقامت من جانبهم حركة الاصلاح الديني المشهورة من أجل تحطيم البابوية ورفع القوانين الكنسية وتحرير الحياة من الجمود ، وقامت حركة الكنائس القومية والكنائس الحرة لكف السلطة البابوية والكهنوتية . ومن وجه آخر حاول قادة الفكر بعد الثورة الفرنسية اتخاذ دين ديمقراطي مجرد من الكهنوت يقوم على المعقول لا على الجاهلية .

أما محاولة التوفيق فلم تفلح تماماً ، إذ أدت في ظل المذاهب الإصلاحية إلى استسلام الدين المسيحي لمروق الحياة العامة من سلطانه ـ إلا بعض المعاني المبهمة التي لا تطبع الحياة بأثر يذكر ، وأدت في عالم الكاثوليك إلى أن تستقل السياسة أمراً واقعاً على كره من الكنيسة التي قنعت بامتيازات محدودة في مجال التعليم وبحق التوجيه والوعظ عن بعد او بالتأثير الخفي على القوى السياسية والاجتماعية . وأما المبتدعات الدينية الجديدة فقد ماتت في مهدها وأورث الفكر الأوربي من بعدها مذاهب مادية إنسانية ليس فيها من العقيدة الدينية إلا ملامح .

وبما أن الفكر الغربي المعتبر بالتجارب الأوربية كاد أن يطبق على العالم بفعل الغلبة الحضارية والسياسية للبلدان الأوربية فقد تمكنت في العصر الراهن فكرة فصل الدين عن الدولة وعزله عن السياسة ، لا سيما أن العالم الاسلامي ذاته قد غشي واقعة الجمود ونشأت فيه أحوال وأطوار أشبهت تاريخ المسيحية وتأثرت بعبرته فأفضت الى فسوق الحياة العامة من الدين . وبذلك الضلال عن الدين انحرمت البشرية من بركات الإيمان التي جلونا مظاهرها في شتى جوانب الحياة السياسية . ولعله لا مناص للعالم في حوجائه الحاضرة للايمان الان يهتدى للاسلام اذ لا يتسنى الا في كنفه أنموذج جديد لمجتمع سياسي



مؤمن . فقد حقق مثل ذلك الجيل الاول من المؤمنين فقاربوا أكمل مايتيسر للبشر في أوضاع السياسة وعلاقاتها ، وكان في سيرتهم على قصر عمرها عبرة ملهمة ماضية المعاني على تطاول الدهور . فالإسلام هو الدين ذو الأصول الثابتة حيث يمكن استخلاص معاني الإيمان الصافية من كدورات التاريخ وتنقية الأحكام الشرعية من رواسب الظروف الماضية لكي يقضى على الردة السياسية عن الدين وتطبيب الحياة العامة للناس دون أن يبدلوا تعاليم الدين أو يلتمسوا الهدى في غيره .

# (ج) الحياة الاقتصادية

١ — مباركة النهضة :

يُعنى الناس في حياتهم الاقتصادية بمقصدين : النهضة بأحوال معاشهم إلى مقام أفضل وتوفير العدالة في معاملاتهم وفي قسمة الأموال بينهم .

أما النهضة بأقدار الثروة ومستوى المعيشة فإنها رهينة بتوافر معطيات الطبيعة ، ولكن العامل الفعال في إعمار الحياة إنما هو الإنسان الذي يسخر الطبيعة لخيره ، فبالعمل يسلط طاقاته عليها ليستنبط منها الطيبات وبالعلم يكتشف مواردها وقواها ووسائل تطويعها ويعرف طبائع الجهد البشري وطرائق تنظيمه ومباركته . وسنخص العلم بحديث تال ، ونعالج هنا عمل الإنسان لنرى أثر الإيمان في تنميته وتوجيهه من أجل الترقي بمستوى الحياة ومجاوبة تطلعات الإنسان المتصاعدة إلى عيشة أرفه وأكرم . ولئن كان الإنسان قد فطر بغرائز تعلق همه بالطبيعة حيث يشبع شهواته ويقضي حاجاته فإنه لا يبلغ من تسخير الطبيعة لصالحه مبلغاً كبيراً إلا إذا اهتدى إلى نهج في الحياة يجند قدرة الأفراد وينظم سعي الجماعة بوجه موافق ولقد سبق بيان مستفيض لأثر الإيمان في حشد قوى الإنسان وتوجيهها وأثر الشريعة في تثنية ذلك بالأحكام العملية المبينة .

• • •





إن الدين لذو خطر عظيم في دفع النهضة الاقتصادية وفي تزكية حياة الإنسان ومعاشه . وربما يتوهم المرء بادئ الرأي أن الدين بتفضيله عيش الآخرة على الأولى يزهّد الإنسان في رغائب الدنيا جميعاً ويكرّه إليه إشباع حاجة الجسد لئلا تضوي روحه وتهي علائقه العلوية ، وأنه بدعوته للعبادة الدائبة يحقّر شأن العمل لكسب المعاش ويجعل من الانقطاع والرهبانية طريقة الحياة المثلى، وأنه لذلك كله يعوّق نهضة الإنسان لترقية حياته المادية .

والحق أن ذلك التقدير ليس من العقيدة الصحيحة في شيء . فإنما يتصور المؤمن دنياه مرحلة لامتحان مسرحه طبيعة الأرض والسماء وفحواه أن الله سخر تلك الطبيعة للإنسان وعلق همه بها ليبتليه أيغشاها شاكراً لربه أم كافراً : « ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون . » ( الأعراف ١٠ ) . فمغزى الدنيا إذاً أن يحيا الإنسان حياته ويلتمس من الطبيعة منافعه بينما يتخذ من ذلك كله مادة لعبادة الله — يأخذه مراعياً شرع ربه راجياً لقاءه : « هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . » (الملك ١٥) . وليس المؤمن — ما دام قد فطن إلى معنى وجوده — أن يتجنب الحياة بالموت العمد أو أن ينصرف عن نعم الله المتاحة له في الكون ، فإن ذلك نوع رفض لحكمة الله في خلق الإنسان وتفلت من مواطن الابتلاء : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. » (الأعراف ٣١-٣٣) . وليس في ذلك الترهب ما يحتسب فلاحاً في الدين ، وإنما المؤمن المفلح هو الذي يقبل تحدي الابتلاء ويقبل على الحياة بالموقف النفسي السليم — نية العبادة لله حباً وشكراً — وبالمعالجة العملية الرشيدة التي تلتزم تقوى الله في الأخذ بها. فليس هو ممن يجعل متاعها أكبر همه وغاية أمره فيأكل ويتمتع كالأنعام غافلاً عن الله: « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها

الأنهار والذين كفروا يأكلون ويتمتعون كما تتمتع الانعام والنار مثوى لهم .» ( محمد ١٢ ) . ولا هو ممن يخوض إليها الباطل ويقتحم الحرمات . ومن كان قصده وجه الله وخطته تقواه فإنه لا يحكم تسخير الطبيعة ويتمكن من ناصيتها ويستزيد من خيراتها إلا اعظم تقديره لتكاثر نعم الله عليه فازداد شكرا واتسعت معرفته بآيات ربه وسننه فازداد لله حباً ، ولا تتضاعف وجوه تعرضه للابتلاء فيصبر على فتنة الشهوات والأهواء ويغالب نفسه الأمّارة بالسوء وشيطانه الموسوس بالشر رجاء رحمة الله وخشية عذابه إلا تضاعفت حسناته وتسامت درجاته في جنب الله .

وليست عبادة الله قاصرة على الذكر والفكر والصلاة ، وإنما تلك هي العبادات الأساسية الواجبة عيناً على كل مؤمن تصله بربه وتزوده من طاقة الإيمان بحد أدنى إذا سلبه المرء كان عرضة لأن تفتنه الدنيا وتفسد دينه ويكون من الخاسرين يوم يفضي الملأ إلى الحساب . وشأن المؤمن الأمثل أن تكون حياته كلها عبادة لله – ذلك هو مقتضى التوحيد وإخلاص التوجه وإسلام الحياة لرب العالمين . فأيّما عمل قصد به المؤمن وجه ربه حباً وشكراً وزلفى وراعى في تنفيذه شرع الله كان عملاً من جوهر العبادة – لا يحبطه أن يكون فيه تحصيل معاش أو قضاء حاجة بشرية ، فذلك كله من قدر الله وحكمته ومن دواعي شكره . والمؤمن المقتصد في دينه قد يلتهي بقضاء غرضه في أعمال المعاش عن قصد الله بالشكر والقرب لكنه لا ينسى في مآخذه ومسالكه أن يلتزم طاعة الله فيكون عمله من هذا الوجه صالحاً يكسبه الأجر ويسلّمه من العذاب .

وإن كسب المال لسبب للفضل في الدين والسبق في العبادة من حيث ييسر للمؤمن عملاً من خير الصالحات وأوفرها عند الله أجراً – وهو الصدقة : أتى فقراء المهاجرين رسول الله (ص) فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم فقال : وما ذاك ؟ فقالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم



ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة ، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (مسلم).

وإذا كانت وحدانية الله تستتبع شمول الدين وكان معنى العبادة يسع الأعمال المعاشية وغيرها ، فإن الإنسان مكلف بأن يعبد الله بحسب ما أوتي من قوة واستعداد وأن يتقيه حيثما كان . وقد لا يتعين على الفرد فرضاً أن يكون من الضاربين في سبيل الكسب إن كانت نفسه تتجه للعلم أو لنحو آخر من الحياة المشروعة بل له ان يتوخى عبادة الله أنّى يتيسر له ، وأينما يول فثم وجه الله . ولكن ما تقوم جماعة مؤمنة صادقة الإيمان إلا تكون منهم حركة دائبة ضرباً في الأرض ابتغاء لفضل الله .

ويرى المؤمنون في الجملة لاستغلال الأرض والسماء تأكيداً لإنسانية البشر وروحانيته – يتجه بهم إلى ذلك ما يتصورون من مكانة الإنسان في الوجود ورتبته على سائر الأشياء وما يقدرون في تمكين سلطانه على الطبيعة من تكملة لذاته – اذ يزداد علمه وتتسع حريته فتزكو الخصائص التي أودعها الله فيه وتضفي عليه معنى الإنسانية المكرمة .

ويلقى المؤمنون في ترقية حياتهم المادية زيادة لأبعاد الحياة ذاتها ، إذ يطول متوسط عمر الفرد ويعظم نيله وتعلو طاقته وتتضاعف له فرص الزمان والمكان النسبية ، ويتهيأ له من ثم مضاعفة أسباب شكره وحبه ومواطن خشيته ورجائه لله . وبعبارة مجملة : يتاح له تكثيف عبادته ، والعبادة هي المعنى الذي يحيا المؤمن به وله – تتكامل حياته وتزدهر كلما جلت أقدار ذلك المعنى وعظم شأنه .

ويجد المؤمنون في الوفاء الأتمّ بحاجات البشر الضرورية ما يحررهم من الهموم الدنيا من الحياة ويوفرهم لما هو خير وأسمى من رغائبها ، بل يتم للمرء كلما استقل بمجال الحياة الحيوانية وانعتق من آفاقها الضيقة أن ينظر أبعاد الحياة الكبرى ويتبين حقائقها الجليلة التي يهدي إليها الإيمان ، فالحاجة الشديدة الإلحاح قد تلهي الإنسان وتغم عليه معاني الإيمان .

ثم إن النهضة المادية تتيح لكل فرد من بني الإنسان أن ينال حاجاته اللازمة من كنوز الطبيعة التي لا تكاد تفنى والتي تتسع لضرورات الناس جميعاً إن أحسنوا استغلالها ، ويستغني الإنسان بالنهضة عن أن يطلب حاجاته اختصاماً من أخيه ويفسد حياته الاجتماعية بالتباغي والعدوان .

وكما تعود على المجتمع مصلحة في أخلاقه من جراء السعة المادية يتمكن بالثروة الوافرة من إصلاح سائر شئونه بعد المعاش لتقارب حياته التحقيق الأكمل لمقتضيات الدين في إشاعة الشورى وفي نشر العلم وفي الإعداد للجهاد وفي غير ذلك من وجوه الحياة الدينية التي تستدعي النفقات وتكلف التكاليف.

وما كل التقديرات التي قدمناها إلا بعض الدواعي الدينية التي تجعل التنمية الاقتصادية واجباً اجتماعياً كفائياً ينفر إليه من المؤمنين عدد يفي بالحاجة كما تنفر طائفة إلى العلم أو الجهاد أو ولاية الشئون العامة . فمعاني الحياة المؤمنة تهدي إلى الترقي بأحوال المعاش لكن من وجه يُثري تلك المعاني ذاتها لا طلباً لمجرد المتاع المادي ومنافاة لأغراض الدين .

وتأتي نصوص الشريعة مؤكدة لما سبق ، تعلّم المؤمن أن يقصد المعيشة الفضلى في الدنيا وأن يوجه ذلك إلى عبادة الله ويؤثر فيه آخرته على أولاه . فالنصوص تدعو إلى ابتغاء فضل الله وتطلب رزقه ونعمائه ، وتأمر بمراعاة حقوق الجسد وحاجاته ، وتنهي عن الرهبانية المنقطعة والمبالغة في نفل العبادات بما يعجز المسلم عن الضرب في الارض ويقطعه عن كسب المعاش ، بل تندب المؤمن إلى الزراعة والتجارة وغيرها من وجوه الكسب ، وتضع



عليه واجبات في الإنفاق لا تتم إلا بالكدح والإنتاج. وتنظم الشريعة فروض الكفاية على الجماعة المسلمة في توفير مطالب العيش الأساسية لكل محتاج وفي إعداد القوة المادية للوفاء بسائر أغراض الحياة . ولكن النصوص تحكم عمل المؤمن كله بالنية الصالحة وبطاعة الله في مآخذه ومسالكه .

• • •

ولقد سقنا الحديث الآنف ليتضح أن طلب رغائب العيش من الإيمان — ما اتجه ذلك الطلب إلى تحقيق معاني الإيمان. ونثني الحديث فيما يلي على العمل إذ لا يغني طلب الحياة الكريمة إلا اذا دعمه العمل المبذول بسخاء والمرتب بحكمة ونظام. فالعمل هو تسليط قوة الإنسان القاهرة على قوة الطبيعة ، وهو مفتاح تسخيرها واستغلال مادتها وظروفها لصالح المعاش .

وحسبنا في هذا المقام أن نذكّر بما وفينا بيانه من قبل في شأن الإيمان وأثره في دفع الإنسان للعمل . فقد رأينا أن المؤمن يعطي من الجهد ما لا يبلغه أحد من دونه — ذلك أن طريقه ومسعاه في الحياة واحد لا يرتاب فيه ولا ينقلب عنه ولا يحيد ، بل خطاه مضطردة على الدرب حتى يبلغ أبعد الأشواط. وهو من فرط إيمانه وتوكله يفرغ جهده كله في سعيه وطاقته جميعاً في عمله ، اذ لا يرتاب فيحتار ولا تصده المشقات والمخاطر وانما يصابرها ويقتحمها على ثقة وطيدة بأنه على الطريق المستقيم المؤدي الى الفلاح في الدنيا ثم في الآخرة . وكما يستقيم المؤمن في طريقه بسبب الإيمان يجد من دواعيه ما يدفعه دفعاً — فشكر الله وحبه يحدوانه وخوفه ورجاؤه يحفزانه الى جلائل الأعمال . فإذا اتجه المؤمن في سبيل عبادة الله الى إعمار حياته الاقتصادية كان كدحه فعالاً بأثر تلك الدوافع وكانت أعماله مضطردة بسبب ذلك الثبات .

ولا يكفي العمل في مجال الاقتصاد أن يكون كثيراً وانما ينبغي أن يكون نتوجاً ، فقد يتوافر الجهد على نحو أهوج فتنمحق ثمرته ويذهب بدداً.

ولكن عمل المؤمن عمل موفق لانه يهتدي بعلم الطبيعة الذي يبين الوسائل المواتية للانتاج وبعلم الشريعة الذي يعالج حركة الإنسان المنتجة . وهو كذلك عمل موصول يصابر استعصاء الطبيعة ويغالبه ، وعمل متقن لأن المؤمن يحسن في كل شيء ويقبل على الأداء بنية صادقة تطمح للكمال . وهكذا تتبارك كثرة عمل المؤمن فيؤتي ثماره المرجوه ، ويتنافس المؤمنون في تكثير الأعمال وإحسانها فينتج من جملة عملهم خير كثير .

ومن مواقف المؤمن التي تناسب النهضة الاقتصادية بوجه خاص أنه موحد ربه منعتق من أسر الطبيعة والأعراف القديمة والأطر الاجتماعية الضيقة . فهو لا يتعبد الطبيعة ولا يرهبها وإنما يبسط سلطانه عليها ، فلا قداسة عنده للحيوان والشجر الذي سخر لانتفاع الإنسان وارتزاقه ، ولا تشلّه خرافات التطير والتشاؤم من المضي في سبيل معاشه ، ولا يقعد متلبثاً تؤخره أوضاع النجوم والمواسم ، ولا يرهب مظاهر الطبيعة التي يهابها الوثنيون ويتوهمون فيها قوة غيبية للاضرار بالبشر . والمؤمن كذلك منطلق من حصار الأعراف والعصبيات الضيقة متوكل على الله في انطلاقه لا يهاب المخاطرة والتنقيب عن كل طريف في الحياة أو المهاجرة والخروج إلى كل جديد في مجالاتها ، ولا يعتزل الناس من دون أهله بل يعاملهم طرّاً ويبادلهم المنافع والسلع والخدمات .

وكل تلك المواقف مما تؤكده الشريعة بتوجيهات وأحكام فرعية كثيرة .

●

لا يتسنى للجهود الفردية أن تتكامل ثمارها وتتم بها نهضة في الحياة إلا إذا قامت عليها نظم اجتماعية موافقة ترقب انحشادها وتوجيهها إلى مناحي النهضة ولا نعرض هنا لفروع الأحكام التي تنظم تعاون الأفراد ومعاملاتهم في الحياة الاقتصادية فإنها مبثوثة في نصوص الشريعة معروفة في مصادرها وإنما نلمح إلى بعض القواعد الكلية التي تستتبعها معاني العقيدة والتي سبق فيها حديث مستفيض .



لعل أعظم آثار العقيدة في هذا الشأن أنها تبني الجماعة بإخاء أكيد وولاء شديد وتورثها بذلك وحدة صلبة تجمع مساعي الأفراد في مسعى واحد وجهودهم في جهد واحد يقل الأثقال التي تقعد الجماعة عن النهضة ويقهر العقبات التي تقوم في سبيلها . ولا يتم تكثيف الجهود من هذا الوجه وحده وإنما تقوي في المجتمع أصول الالتزام الخلقي فتورثه أمناً في العلاقات العامة يعصمه من الخوف الذى يدعو إلى الإحجام ومن التخاصم والشقاق الذي تتعارض منه طاقات كثيرة فتتناسخ ويبطل أثرها خصماً من جملة الإنتاج المتاح للجماعة ، بل إن الجنوح في السلوك كما يفوت على الجماعة بعض ما هو ميسور لها يخرب كثيراً من مكتسباتها بالمضارة والإجرام .

وفي نطاق الأمة المؤمنة المتحدة تتلاشى العصبيات المحلية ويجتمع شمل الأقاليم التي يمتد إليها سلطان الأمة المركزي ، فتصبح قاعدة واحدة تجول فيها الحياة الاقتصادية حرة بلا سدود ولا عوائق ، وتقوم فيها سوق واسعة لعناصر الإنتاج من أموال ومواد وعاملين ودائرة رحبة للتجارة والتبادل والاستهلاك ، ويتهيأ مجال كبير للتخصص والتكامل في العمل والإنتاج . ويتاح في ظل روح الإيمان الذي يوحي بتوجيه الحياة وتدبر مآلاتها أن تتواضع الأمة على خطة شاملة تفصل سياساتها الاقتصادية في إطار النهج العام الذي تخطه الشريعة دليلاً للحياة ، ويتهيأ في ظل الشريعة الثابتة نظام مستقر في الحياة الاقتصادية يمكن المنتجين من العمل على بصيرة مما يستقبلون والاستثمار في طمأنينة مما يرجون .

ثم إن الحرية التي تنظم صلات الأمة الأفقية تتجلى بوجه آخر في علاقات المجتمع الدرجية ، فهذه مؤسسة أيضاً على الإباحة والانفتاح — إذ لا يقوم التنافس والتفاضل في المجتمع بالاحساب والأنساب ولا بالحظوظ الموروثة وإنما مناطه العمل والأهلية المكتسبة . فأيما امرىء وفّى شروط الكفاءة كان متاحاً له أن يلي من الشئون العامة ما هو أهل له وأن يتصدى من الأعمال لما يحسنه . وبهذه المرونة السمحة يفسح المجال للذين يجددون ولا يقلدون والذين

يكدحون في سبيل الكسب لأنهم لا يرضون بالأحوال الراهنة ولا يقنعون بثروات موروثة ، وأولئك هم الذين يضطلعون بأعبـــاء النهضة الاقتصادية للمجتمع إذا خُلي فيـــه بينهم وبين الصدارة والإدارة ولم تكبتهم أوضاعه الجامدة أو تؤخرهم معايير التقدير الإجتماعي .

ولقد سبق التذكير بأن عبادة الله — وهي القيمة العليا للحياة — ذات مفهوم شامل لا يقتصر على ما يتوهمه الناس من الانقطاع إلى الذكر والصلاة . فلا يُعلى عند المؤمنين شأن المتعطلين المتاوتين بدعوى الزهـــد والتعبد ، ولا يزدرى بينهم رجال التجارة والصناعة والزراعة ، ولا صاحب المهنة فيهم بمهين . وإنما التقديم رهن بالتقوى ، فالتاجر التقي كالعـــالم التقي كغيره من المتقين — كل ميسر لما خلق له ومسئول عما يكسب فيه والجماعة مسئولة أن تراقب الوفاء بكل حاجات المجتمع وتجند لكل ثغرة من الحياة من يقوم عليها ويكفي سائر المؤمنين همهما .

وتتزن في المجتمع المؤمن كما قدمنا حقوق الفرد وحقوق الجماعة . فللفرد نصيبه من الحرية ليرى رأيـــه في أوفق السبل لتحقيق المصالح الاقتصادية الشرعية وليتخذ مبادراته العملية في تلك السبيل . وللجماعة حقها على الفرد في أداء الواجبات الاجتماعية ومراعاة النظام المعروف . وفي الشريعة مرانـــة تمكن المؤمنين من أن يقرروا في كل حين بهدى من نصوص دينهم وبحساب لظروف واقعهم أنسب معادلة بين الفرد والجماعة ، فإن كانت مقاصد حياتهم الاقتصادية واسعة متشعبة أفسحوا المجال للمبادرة الفردية دون أن ينفرط عقد النظام وتضار المصالح العليا للجماعة ، وإن كانت الأهداف الاقتصادية محدودة ولازمة كثفوا إجراءات النظام والتوجيه ووسعوا القطاع الذي تتولاه السلطة العامة دون أن يهمل حساب الفرد جملة واحدة إلا لضرورة قاهرة .

ومن حق الفرد الذي تنبغي مراعاته أن يُجعل له الجزاء المناسب ليحفز إلى المزيد من الإنتاج ، ومن ذلك أن يجد الاجر العادل عن عمله ، وأن ينعم





بملكية ثمرات جهده . وتلك خطة يتخذها كل مجتمع ، ولكن للايمان أثراً جليلاً في تكملة سياسة الجزاء الاجتماعية . فإنْ من جماعة إلا خزائنها مقدرة لا تتسع لتقديم الاجور الوافية لكي يستنفر الجهد بأضخم أقداره ، ولا يغنيها عن ذلك إلا قليلا أن تناشد أعضاءها بحق عاطفتهم الاجتماعية فإن المرء لا يتغاضى عن أجره إلا لتقديرات محدودة ولا يتطوع حينئذ إلا لواجبات أولية رتيبة . ولكن المؤمن قـــد يعمل كثيراً بغير عوض واف يشترطه في عاجلته ، لأنه يحتسب أجره على الله ويزهد في كثير من نتائج المكسب العاجلة من مال وجاه — إذ العبرة عنده بالتكاثر في الاعمال والثمرات الآجلة ، أما تفاوت الحظوظ في الدنيا فإن المؤمن يقدر فيه معنى الابتلاء من الله لعبـــاده لينظر كيف يعمل كل فيما آتاه : « وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنـــه لغفور رحيم . » ( الانعام ١١٠ ) ، « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون . » ( سبأ ٣٧ ) . ولولا الإيمان بأن الجزاء الاوفى موعده الآخرة لا نشغل الناس بالنتائج العاجلة ، فإذا طولبوا بالزهد فيها رغبوا عن الجهد في أسباب الكسب — وذلك أصل النهضة والترقي في الحياة ، واذا طولبوا بالتنافس على الاعمال تهافتوا على ثمراتها العاجلة المحدودة فتحاسدوا وتشاحنوا — وذلك أصل لفساد كبير . ثم ان المؤمن ينطوي على عاطفة أقوى نحو اخوانه المؤمنين ، فلا يرى المؤمنون بأساً بأن يبذلوا لينعم بثمرات جهودهم جيـــل آخر ، لان أجرهم لا يضيع عند الله بل يكتب لهم بما قدموا الثواب المضاعف . وقد تتوخى سياسة المجتمع في أداء الاجور اجتناب الفوارق الفاحشة التي تؤذي حاسة الناس للعدالة الاجتماعية تغاضياً عن مبدأ نسبة الأجر للانتاج وعن حفز العاملين الى التفاضل والمنافسة ، وربما يحاول المجتمع استدراكاً لما يفوته بتسوية الأجور من تشجيع المنافسة أن يمنح شارات الشرف للعاملين النتوجين ومكافأتهم بالذكر الحسن ، ولكنها محـــاولة لا تغني غناء الايمان — اذ يوقن

العامل المؤمن أن أجره عند الله محفوظ مقدر بموازين القسط فلايجد في صدره حاجة مما يؤتى أخوه في الدنيا . وقد أحصينا من قبل فضائل أجر الآخرة على أجر الدنيا وأبنا كيف هو شديد الأثر في حفز العاملين لا سيما أنه يفرد افراداً لكل انسان بحسب عمله . فالذي يرجو لقاء الله وثوابه يعمل لنفسه جاهداً وما هو بالوُكلة التكلة الذي يأكل على موائد الآخرين ويكون عيلا على المجتمع .

وعدلاً لما تقدم فإن على الفرد نحو الجماعة واجبات يعرفها المؤمن ويؤديها حق الأداء . فتصوره لمتاع الدنيا يطهّره من أمراض النفس وأخلاق السوء التي يتعرض لهـا بغشيان مجالات الكسب والمنافسة في أسواقه – كالجشع والشح والحسد والاختيال . وتقديره لواجب الشكر لله الرازق الوهاب وتوقيره للأمانة التي تولى بشرطها ما أنعم الله به عليه واحتذاره من عذاب الله وسخطه – كل ذلك يدعو للالتزام الصادق بما تقضي عليه أحكام الشريعة في مخالفة الآخرين ومعاملتهم وبما يضع عليه المجتمع بناء على مبادئها من التكاليف والتوجيهات والضوابط . ثم ان المؤمن يجيش بعاطفة اخاء ووحدة تكاد تفنيه في اخوانه ، فهو يحب لهم ما يحب لنفسه بل يؤثرهم عليها ويسارع في ترقية المصلحة العامة ويطاوع في تنفيذ نظام الجماعة .

ولنتخذ من الامانة مثلاً لخطورة أخلاق الايمان التي يتحلى بها أفراد المجتمع المؤمن وضرورتها لادارة شئون الاقتصاد . فقد تمايزت الادارة عن الملكية في أغلب قطاعات الاقتصاد الحديث وبدّل المالك الذي يخلص بطبعه في تصريف شئون أمواله بموظف يلي تلك الشئون بأجر ومن ثم لا يفترض فيه طبعاً أن يخلص وينصح لصاحب المال وأن تعف يده عما أؤتمن عليه . فالوكلاء الذين يديرون أموال شركات المساهمة وهيئات التعاون أو يتولون لحساب الغير شتى المعاملات التجارية والمالية ، ونظار الاوقاف وصناديق الادخار ، وحراس أموال القصر والمحجورين ، وموظفو الخدمة العامة الذين يتصرفون في أموال الدولة أو يديرون لها أعمال التجارة والانتاج – كل أولئك قيّم على حقوق





الآخرين يشترط فيهم مع العلم بحسن التدبير أن يكونوا أمناء يجتهدون في سبيل تنمية الأموال الموكولة إليهم حفظاء لا ينالون منها بالبـاطل . وقد يستقيم المرء في ذلك سمعة أو تخوفاً أو تأدباً بالخلق المعروف ، ولكن الإيمان يبلغ به مقاماً رفيعاً من الورع والتقوى ويورثه حرصاً شديداً على حسن القوامة على مال إخوانه فيجاهد في إربائه ويتورع في حفظه . ولعـل أحوج الناس للتخلق بأخلاق الإيمان هم الولاة والعاملون على شئون الدولة ، فإن للفساد السياسي والإداري أثراً غير حقير في توهين النهضة الاقتصادية للبلاد بما يفرط هؤلاء في تدبير الثروة العـامة ويبددونها بالخيانة أو يعوقون نفاذ السياسة الاقتصادية بالارتشاء والمحاباة – لا سيما أن لهم من دقـائق الحيل ومن أسباب النفوذ ما يتفلتون به من سلطان القـانون ، وان الأموال العامة مملوكة على الشيوع للأمة كلها فلا يتعين لها رقيب أو حسيب مباشر .

ويبدو مرجوع الأخلاق في ترقية الأحوال الاقتصادية من وجه آخر : فالأمة تختط لاقتصادها خططاً وتتخذ له نظاماً كثيفاً من قواعد التعامل وآدابه ثم لا تملك من وسائل التوجيه والمراقبة والتنفيذ مـا يضبط واقع السلوك وفقاً لذلك كله ، فإذا لم يسعفها الإيمـان الذي يؤكد في نفوس أعضائها دواعي الالتزام الطوعي أصبحت عرضـة لظواهر التهرب والروغان التي تفشو في الحياة الاقتصادية وتضعف من فاعلية السياسات التي تتخذ لضبط المواصفة في الإنتاج والتسعير في التجـارة أو لتحديد قسمة المواد والعروض المتبادلة أو لغير ذلك من أغراض الاقتصاد .

• • •

ومن الأمور التي تأزم على الأمة حال إشراعها في النهضة الاقتصادية أنها تفتقد من رأس المال مـا يفي بحاجات الاستثمار الملحة – إذ لا يتسع دخل الأفراد في مستواه المتواضع لنصيب يُدخر فيوظف في الإنتاج بأقدار وافية . ولا يتألف رأس المال إلا بأن يفرغ المرء جهده حتى إذا بدت الثمار لم يهلكها

في متعة العاجلة بل ادخرها حتى تفي بتكاليف المعالجات الجليلة لقوى الطبيعة كإصلاح الأرض واتخاذ الآلة وتشييد البناء وإعداد العدة وحتى يتزود منها ريثما تؤتي هذه المعالجات غير المباشرة غلتها المضاعفة المباركة . ولا يجود الناس من تلقاء أنفسهم بتأجيل المتاع إلا أن يستلب منهم كسبهم فتوضع عليهم الضرائب أو تُغلى لهم الأسعار أو يغمطون في الأجور مشددة عليهم الوطأة كلما صوعد في نسبة الادخار المطلوبة مسارعة الى النهضة . ولا يكاد يتأتى ذلك في المعتاد إلا بقهر سياسي تشهره الدولة على الرعية أو تمارسه الطبقة التي تدير حركة الإنتاج والنماء .

ولكن الإيمان يغني الأمة عن هذا القهر لأنه يُعدّ الفرد برجاء الآخرة ليألف الريث في ابتغاء ثمرة أعماله ويؤثر الكثير المؤجل على القليل المعجل بل ليتقاضى عن بعض أجره في الدنيا أملا في عوض جميل يضمنه في الآخرة . ويستشعر المؤمن وحدة مع أمته حاضرهم وخلفهم فلا يتبرم بالبذل والحرث ليتحقق الحصاد الطيب للجيل اللاحق . ويبسط الإيمان أسباب العدالة فلا تُوصى طائفة من الناس بالتقشف والتبلغ بالقليل بينما تنعم أخرى بالسعة والترف. فإذا تقبل الناس القصد في المعاش واطمأنوا الى أنهم في ذلك جميعاً على النصفة والسوية تهيأ للأمة أن تُعِدّ من رأس المال ما يكفيها بلا عسر ولا قسر .

والمؤمن مهيأ بتصوراته الدينية لمتاع الدنيا وبتعاليم شريعته لاجتناب السفه والترف والإسراف التي تبدد رؤوس أمواله وعن اكتناز المال وحبسه عن الإنفاق والاتجار . لكنه من وجه آخر لا يبخل على نفسه بالطيبات من الرزق وبالزينة التي أخرج الله لعباده . فإذا اتسعت الغلات وانبسطت الخيرات ودعت دواعي الإقبال على الاستهلاك لتنشط دورة الحياة الاقتصادية لم يقتّر المؤمنون ولم يتنطعوا في الزهد والرهبانية فينكمش إنتاجهم ويكبو أمرهم بعد نهضته .

**٢ــ تحقيق العدالة :**

الشعبة الاخرى من مقاصد الحياة الاقتصادية هي العدالة .



ولا ريب أن العقيدة الدينية خير ما يربي الإنسان على معاني العدالة، وأن المجتمع الديني خير اطار لتحقيقها في الواقع ، لولا أن بعض التصورات الواهمة المنتسبة للدين تصور لعوام المؤمنين أن قسمة الرزق بقضاء ماض من الله لا يجدي العبد أن يحاول فيها شيئاً ولا يليق به بعدها أن يتظلم ، وأن الدنيا ليست بدار المؤمن ولا متاعها من همه ولا يضيره أن يكون فيها محروماً أو مظلوماً . وحقاً ان الرزق يبسطه الله ويقدره ، ولكن تلك القسمة بأقدار منها ما هو منوط بكسب الإنسان ، فما هو مسند لذلك الكسب صح أن يكون بهذا الوجه موضعاً للأحكام التكليفية والمسائل الأخلاقية ــ إن وافق شرع الله كانت فيه معدلاً ، وان خالفه كانت فيه مظلمة يخاطب الناس بإنكارها وردها . وحقاً ان متاع الدنيا ليس هو أكبر همّ المؤمن ، ولكن لا جناح عليه أن يطلبه ما لم يستحب أولاه على آخرته أو يبتغ فيها غير وجه الله . وعلى المؤمنين أن ينظروا في نسبة أنصبائهم من الثروة وفي علاقاتهم ومعاملاتهم ويزنوا كل ذلك بموازين العقيدة والشريعة ــ فما كان فيه من ظلامات في المعاملة أو في قسمة المعاش سعوا في ردها بالنهج المشروع ، وما كان من تفاضل جائز بمعايير الدين رعوا فيه حرمة الحقوق وتواصوا بكف الأيدي عن العدوان وتزكية النفوس عن التحاسد . وشأن المؤمن ان قُدر عليه رزقه ألا يقطع نفسه جزعاً وتبرماً بأقدار الله أو يجنح الى التكسب في محارمه ، بل أن يصبر على ما ابتلاه الله ويسأله من فضله متخذاً أقداره المناسبة مؤتمراً بأوامره حتى يفتح الله عليه بالسعة فيشكر ويؤدي ما عليه فيها .

والإنسان بغير دين أشد ما يكون تظالماً وجوراً ، لأنه عندئذ يتخذ متاع الدنيا وطيباتها غاية لحياته ولا يبالي من حرصه أن يختصم من حقوق الآخرين، واذا حاز شيئاً من نعم الدنيا قدر أنه ثمرة علمه وتدبره ــ يباهي به ويفاخر مثيراً في الآخرين حدة الشعور بالفوارق المعاشية ، ويمسكه ويحتكره اذ يعده من أبعاد ذاته لاحق فيه لسواه . وما يتضاءل الدين في المجتمع إلا انحط الناس بتعلقاتهم حتى يتعبدهم المال وينتزعوا منه معايير التفاضل ، فيزدري

غنيهم المحروم ويحتقر شأنه ، ويطغى أهل المـــال بما يتيسر لهم من أسباب القوة فيتحكمون في الأوضاع السياسية وتصبح لهم سلطة الأمر والنهي فيشرعون من الأحكام والاعراف مـا يكرس الاوضـاع التي مكنتهم من الفوز بنصيب راجح من الثروة العامة ومـا يقهر كل مطالبة للتسوية في فرص الكسب أو للعدل في توزيع الرزق إلا بقدر ما تتقى ثورة المظلومين .

وقد رأينـا في حديث سابق كيف يبدل الإيمان مفهوم الملكية للإنسان — إذ يحرره من أسر المال ويجعل عبادة الله قيمته العليا وميزانه في الحياة ، فهو يقدر في المال هبة الله لأنه الموفق لتسبب الإنسان وتكسبه ، ولا يتوهم فيه ملكاً خـالدا بل يَعُده عرضاً يستخلف فيه الناس ، ولا يتخذه حكرا خالصاً بل وديعة من الله وأمانة له فيها شروط ولعباده فيها حقوق .

ولئن كان التكسب مندوباً للمؤمنين والنهضة الاقتصادية مرغوبة للجماعة المؤمنة فإن ذلك لا يعني أزدراء الفقراء . فالفضل في الدين إنـما هو بالجهاد والتقوى . وقـد يكدى المجتهد فلا يكون افتقاره عن تقصير بل عن تقدير يبتليه به ربه ، فإن صبر على البلاء أدرك مـا يدركه الغني بالشكر . وقد يثري القـاعد يمده الله بالخيرات امتحاناً أيشكر أم يكفر . وما دام الفضل مرهوناً بأعمال المرء ومواقفه النفسية أثناء محاولته لشئون المعاش ومعالجته لما يقدر له من حال ، فإنه لا فضل للغني على الفقير ولا للفقير على الغني بمجرد الصفة الظاهرة وربما استويا أو تفاوتا ولكن حسابهما الى الله وحده : ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ( البخاري ) . ومن ثم لا لا يتمايز المؤمنون تبعاً لتفاوت حظوظهم طبقات متطاحنة لأنهم يقدرون جامعتهم الدينية التي هي أكبر من كل تقدير والتي تولد بينهم إخاءً صادقا وميلاً للمساواة والتكافل في كل مظاهر الحيـــاة . فلا ينبت الغل في نفوس المؤمنين ولا تفسد ذات بينهم لسبب فوارق المـال — لأن التفاضل لا يدعو هذا لان يكون مختالاً فخورا ، ولا ذلك ليكون حاسدا أو مكسورا . ولا



يزين للأغنياء أن يمتـازوا باحتياز الثروة واتخاذها دولة بينهم ، بل يأمرهم إيمانهم بردها الى اخوانهم فكلهم فيها سواء . وتتناصر لدى المؤمنين معاني الإخاء ومعاني الجزاء والمسئولية فتدعوهم إلى الاستقامة الدقيقة في علاقاتهم حتى لا يبخس الاجير ولا يغش العامل ولا يؤكل ماله بالباطل .

وتأييداً لهذه المواقف النفسية الباعثة إلى العدالة تقوم الشريعة حاكماً بين الناس بالقسط تستمد أصولها من وحي الله لا من هـــدي الطبقات المتغلبة . وتجعل الشريعة من معاني التكافؤ والتكافل قاعدة تؤسس عليها بناء المجتمع . فالنظام السياسي قوامه الشورى التي يشترك فيها المؤمنون على تصريف شئونهم أحراراً مسئولين يتولى أمرهم أهل الكفاءة والتقوى لا أولو السعة في المـال والجاه . ويضطرد ذلك النهج في سائر النظم والمعاملات الاجتماعية . فـــلا تفرقة بين المؤمنين ولاحباء لذوي المال في إجراءات القضاء أوفي مخاطبة الولاة ولا في أهلية التزويج ولا في سائر الاهليات والحقوق الأساسية . ومن نحو تلك المعاني أيضاً تصوغ الشريعة نظاماً للعلاقات الاقتصادية يتوخى تحقيق العدالة في جميع جوانبه . فالتعاليم الشرعية الملزمة تضمن من العدالة حـــداً أدنى لاينبغي أن تفرط فيــه الجماعة ، فهي تجعل للمؤمنين حقاً شائعاً في مصادر الثروة الكبرى تكون ولايته للدولة ، ثم تتيح للفرد حظاً من حرية الكسب تكلفه أن يراعي فيه سبيل الحلال وشروط المعاملة العادلة وأن يؤدي منه نصيباً يجعل في مصالح المؤمنين ، وهي تضع على المؤمن نفقة واجبة لمن يليه وتحجر عليه إذا جنح للسفه والافساد ، وتوجب على الجماعـة سد الحاجات الأساسية لمن لا يجـد ولاية أو كفاية والقيام على علاقات الناس حتى لا يُظلم ضعيف أو يضيع حق لطالب . والشريعة تقرر أحكام المعاملات المالية بمـا يوزع الثروة ولا يركزها ، فالمواريث والأنفال قسمة والربا والكنز محظور ، وتنهى عن الظلم والغش والغَرر وتقيم التعامل على التراضي والتوفيق . وتتأكد فاعلية النظام الاقتصادي الشرعي بمـا يتوارد على المؤمن من دواعي الالتزام

الطوعي يوحيها تصوره واعتقاده وتقديره للمساءلة والجزاء عند ربه ومن وازع المجتمع والسلطان.

ثم تتواكب على المؤمنين من وجه آخر دوافع الرجاء لما عند الله وبواعث الاخاء لاخوانهم وتوجيهات الشريعة ومندوباتها فتحملهم إلى مقام رفيع من العدالة يكاد فيه أن يتحقق التساوي المطلق في أنصبة الناس من الرزق – لا تسوية تفرض بقوة السلطان فتقتل حوافز المنافسة والتناهض والإنتاج وتنقلب في نهاية الأمر إلى تمايز جديد يحظى فيه أصحاب تلك القوة، ولكن تماثل يقتضيه فرط الحب والإيثار واشتراك بالرضى على حظوظ الحياة. ومن صور المساواة المطلقة المبنية على الإيثار والرضى ما حكاه رسول الله (ص) عن الأشعريين: «ان الأشعريين اذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم» (البخارى). وتنتصب هذه المساواة صورة مثلى للمؤمنين يقاربونها بواقعهم ما أسعفهم كمال الإيمان ودعتهم الحاجة، فإذا صدق دينهم أصبح الانفاق الطوعي سمة غالبة لمجتمعهم يكفي لمقتضى الوفاء بالمطالب الأساسية لكل عاجز أو محروم ولتأمين كل خاسر أو عاطل كما يسعف الدولة بما تجعله في مصارفها على شئون الجماعة. ولكن ولاة الامر في الدولة مسئولون عن رعاية العدالة بسياسة فعالة تنظم بذل الأفراد طوعاً في سبيل العون والتأمين الاجتماعي وتكمله بالفروض القانونية، وهم مسئولون بوجه عام عن وضع النظم الفرعية المهتدية بمبادىء الشريعة من أجل تحقيق العدالة التي تقتضيها معاني الايمان في ظروف الزمان والمكان. فالحياة الاقتصادية عرضة لتبدل كثير في الصور التي تتخذها وفي القضايا التي تثيرها، ولاجتهاد المؤمنين مجال واسع في اتخاذ التدابير العملية والفقهية المتجددة لينظموا حياتهم بما يحقق مثلهم العليا الثابتة عبر الصور والازمان.

### ٣ – عزل الدين عن الاقتصاد:

مهما يكن أثر الايمان الحق في دفع النهضة وتحقيق العدالة الاقتصادية فإن





الفكر الحاضر في غالبه يتجه الى عزل الدين عن الاقتصاد انطباعاً واعتباراً بالتجربة الغربية التي أورثت أوربا حضارة تستقل فيها شئون الحياة العامة وهمومها عن توجيهات الدين.

ولم تعهد أوربا في أوائل القرون الوسطى من الايمان بشمول الدين الا معنى الاعتراف للكنيسة بسلطان مطلق وولاية كاملة في كل شئون الحياة، فمذاهب الكنيسة في الاعتقاد والتشريع كانت هي الحجة الفاصلة في أمور الدين. وقد كانت عقيدة الكنيسة في شئون المعاش تدعو الى الزهد في الدنيا والإعراض عن متاعها الزائل إيثاراً للدار الآخرة، وكانت الرهبانية التي يتخذها رجال الدين هي نهج الحياة الأمثل. ولئن كان لسائر المؤمنين رخصة في الكسب فإنما كانت تعتبر ضرورة ينبغي أن تؤخذ بقدر الكفاف وطريقاً محفوفاً بالشرور ينبغي أن يسلك بحذر شديد. وكانت القوانين الكنسية لذلك تفرض على الحياة الاقتصادية ضوابط متنطعة. وقد كان في تلك العقيدة الاقتصادية ما يخاطب واقع الفقر الذي ترزح فيه الرعية المؤمنة والجمود الذي يخيم على حياتها، فهي تبرره وتجعل له مغزى روحياً. وكان في تلك القوانين ما يجاوب حاجة الواقع الزراعي الساذج الذي يقوم على النظام الإقطاعي وتسوده العلاقات الشخصية المقيدة. فحين انبعثت دواعي النهضة الاقتصادية صادمتها تلك التعاليم الجامدة التي كان هديها العام يكبت الحركة التجارية الداعية للدأب في الاكتساب وابتغاء الربح وأحكامها لا تناسب العلاقات الاقتصادية الجديدة القائمة على حرية التعاقد وعلى المعاملات الواسعة. بل ان الفكر الديني السائد كان أيضاً يصادم مقتضيات العدالة الاجتماعية لانه كان يحقر من شأن الحظوظ الدنيوية ويرى في تفاوت مستوى الطبقات حكمة اجتماعية حيث تؤدي كل واحدة وظيفتها المقدرة وتتكامل الطبقات كما تتكامل أعضاء الجسد الواحد.

وأصبحت المعاملات المستحدثة تقع بمعزل عن الدين لانها غريبة عن متعلقاته ومناط أحكامه، وما فتئت تنمو وتطرد بحكم النهضة الاقتصادية

حتى انهار الواقع القديم وغدا كثير من التعاليم الدينية الاقتصادية غير ذي موضوع . وقد أولع أهل الفكر بالظواهر الاقتصادية الناهضة واقبلوا عليها بالتحليل والدراسة المجردة لاكتشاف سنن الاقتصاد ووسائل تنمية الثروة ومباركة الإنتاج ، فاتجه الاقتصاد الى أن يكون علماً فنياً لا يعنى بالمعاني الاخلاقية .

ومن وجه آخر قامت حركة الإصلاح الديني التي شهرها « لوثر » فحملت على سلطان الكنيسة وقانونها حملة شعواء ارتدت على الدين كله وأثره في توجيه الحياة . ولئن كان رجال الإصلاح مؤمنين بشمول الدين وبالرقابة الأخلاقية الوثيقة على معاملات الاقتصاد ، فإنهم قد اسندوا الحق في التقنين والتنفيذ للدولة وأنكروه على الكنسية — في حين لم يكن للدين قوام إلا بالكنيسة . ثم إنهم دعوا الى أن الدين الحق معنى يقوم في طوية الإنسان لا فيما تزخر به الحياة الدينية الكنيسة من الأوضاع والأشكال والمراسم المعتمدة التي كانت تستصحب في الواقع كثيراً من النفاق والفساد ، وقد تطور هذا التصور من حيث لم يقصد دعاته الى عقيدة تحصر الدين في المواقف النفسية التي يختص بها الفرد مع ربه وتفصله عن أعمال الظاهر التي تقع في مجال الحياة العامة .

ولما أصبحت هموم الاقتصاد هي الغالبة في تقدير الناس ومقتضياته هي الحاكمة في معاملاتهم حاول الإصلاح الديني متمثلاً في « كالفن » أن يحفظ للدين شموله بارتضاء الامر الواقع فأضفى على الحياة الاقتصادية الراهنة حجة دينية تساير قواها وتدعم اتجاهاتها . وأوضح مواقف المذهب الإصلاحي في ذلك إباحة الربا في القروض الإنتاجية ، واعتبار العمل الاقتصادي عبادة ومهنة واجبة وقربى الى الله ، واتخاذ الثراء دليلاً على الفوز والنجاة عند الله . وكأنما كان ذلك الفكر الديني يرعى الحاجة لتكديس رأس المال وتوظيفه في الإنتاج لا فى الإنفاق حيناً دعا إلى القصد في المعيشة مع الاجتهاد في الكسب وحيناً قرر انه لا رحمة لمن لا يعمل فأدى الى ازدراء الفقراء . ولا غرو فقد





كان ذلك الاتجاه الديني خادماً للنهضة يقدمها ويؤخر من أجلها قضية العدالة الاجتماعية .

ثم تظاهرت الاتجاهات الجانحة عن الدين فخرج عن سلطانه طلاب السيادة السياسية من ملوك طامحين وقادة ثائرين كما تمردت عليه الاتجاهات الاقتصادية الناهضة التي تتبرم بالقيد سواء كان باسم الدين أو الدولة . وانتهى الأمر الى طلاق بين الاقتصاد والدين بل بين الدين والحياة العامة إلا بعض المعاني المبهمة التي يتجمل بها الناس رمزاً لتوقير الدين في نفوسهم أو بعض النفوذ الذي تحاول الكنيسة بسطه في غير مناطق الإصلاح الديني .

ولما خابت حملة الدين لتوجيه النهضة الاقتصادية ثم لاحتوائها خرج منهزماً مصيره النفي من الحياة العامة ، فما كان له بعدئذ أن يكون ذا أثر فعال عندما طُرحت قضية العدالة الإجتماعية . ولا ريب أن الدعوة لرفع الظلم البالغ الذي استتبعه التطور الرأسمالي كانت تنبعث لدى كثيرين عن وجدان ديني مفطور على حب العدالة ، ولكن مذاهب الدين السائدة كانت كما ذكرنا آنفاً تغفل أمر العدالة وتتهالك في موافقة أهواء الأغنياء . ثم إن الفكر الأروبي كان يعتزل الأصول الدينية ويلتزم المناهج العقلية والعلمية المجردة ، بل كان فيه تيار يشاقق الدين ويعتبره ظاهرة اجتماعية وانعكاساً نظرياً لحقائق واقع الإنسان فيعده لذلك أداة لتخدير الشعوب المظلومة وتهيئتها للسكون تحت وطأة الظلم وترجيتها بأمل زائف في حياة أخرى . ولذلك جاء الاتجاه الاشتراكي المعدل لجنوح الرأسمالية مستقلاً عن الدين أو معادياً له . ويحاول رجال الدين اليوم أن يراجعوا فكرهم لمصالحة الاتجاه نحو العدالة وأن يجاهدوا ببعض الوجوه في سبيلها . ولكن النصر في معركة العدالة لن يتم بإسم الدين ولن يؤدي للتعظيم من شأنه . وما تلك المراجعة والمجاهدة إلا بعض الخلق القديم الذي يحمل الدين تابعاً لا هادياً ومحكوماً لا حاكماً — حيث يكون الامر كله لفكر البشر واهوائهم المتقلبة ثم لا يكون نصيب الدين إلا أن يلاحقهم بالتجويز والمباركة متقلباً معهم دائراً حيث يدورون .

ليس ذلك من الدين الحق في شيء . وإنما الدين وحي من الله لا وضع يبتدعه البشر بحجة الدين ، وهو حكم ثابت يعتدل بمقاصد الحياة ويعصم الناس من الميـــل والضلال والتخبط ويشتمل أمرهم جميعاً سياسة واقتصاداً وتعبداً خالصاً ويحتوي فكرهم عقلاً وعلماً واهتداء بالأصول المنقولة .

والذي قصصنا تاريخه إنما هو مذهب غلب فيـــه وضع البشر في النظم والعقائد وإن كان ينتسب بأصله وبعض معانيه لدين النصرانية . ولا معتبر لهذا التاريخ بالنظر للدين الصحيح الذي لا سلطان فيه لرجال الدين واهوائهم وإنما الحجة فيه لحـكم الله كما تقتضيه أصول الدين الثابتة . ولقد رأينا الاثر المبارك للدين في نهضة الإنسان للترقي بمستوى معاشه وفي تحقيق العـدالة . فهو يستقيم بالانسان حتى يحقق مقاصد الحياة الاقتصادية دون ميل أو تفريط ، ولكنه لا يجمد بأهله بل يبين لهم معالم الهدى الأساسية ويترك لهـم مجالاً للاجتهاد لفكرهم ليكيفوا تفاصيل حياتهم وفقاً لحاجتهم وظروفهم ثم لا يحمل عليهم حرجا في تطوير اجتهادهم مع أطوار الظروف .

أما لو انسلخ الناس من الدين جمـلة واحدة — حقة وباطلة — والتمسوا النهضة في علمهم وتدبيرهم والعدالةَ في تقديراتهم الانسانية — فإنهم لا يبلغون من ذلك إلا بعض ما يبلغون بالعقيدة الصحيحة ، ولا يسلمون من التحرف والاضطراب في التوفيق بين مقاصد الحياة الاقتصادية أو من أن يجرّوا على أنفسهم شروراً شتى تكلفهم شقاء كثيرا من حيث ينشدون السعادة والرفاهية . وتلك عبرة بادية في ما آلت إليه التجربة الأوربية ذاتها بعد أن باعدت بين الدين والاقتصاد .

فقد أغري الناس في العصر الحاضر بالوفرة الاقتصادية لكنهم هرعوا إليها بروح مادية حتى وقع الانسان الحديث في وثنية الثروة وغدا يتخذ من زيادة الكسب هدفاً أعلى لحياته ينافس فيـه ويجاهد في سبيله . بيد أن الانسان وقد بلغ طرفاً من بغيته لم يفز برجيّته ولم يسلم من الخيبة . ومايكون





لعبد الهوى والمتاع إلا ذلك ، فإنه مهما بلغ من السعة لا تستقر له حال ولا يسعد بعيش رضيّ ولا وجدان صفيّ بل يظل لاهثاً يهمه ابتغاء المزيد تعذبه نوازع الجشع والطمع ودواعي المكاثرة والمفاخرة ويلهيه استشرافه إلى ما هو أترف وأسرف عن تذوق الرضى بالكفاف أو الكفاية : « إن هذا المـال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع » ( البخاري ) .

ثم إن الانسان حين تتيمّه مطالب المعاش ما يدرك بعض الوفاء بحاجته منها حتى يفتقد حاجات في الحياة سواها ، ولا يغنيه في عيشته أترفُ الترف بل إن ذلك ربما يزيد من أزمة شعوره بالحرمان من مقاصد الحياة الأخرى .

فقد يفرط في حملته لاستنزاف خيرات الطبيعة ، فيجعل همه كله أن يتخذ في ذلك أقصد الوسائل نفقة وأشدها فعلاً — حتى يلهيه ذلك الحرص عن أنّ له في الطبيعة زينه وجمالاً ، وحتى إذا أهلك كل مظاهر الحسن فيها وشوه مناظرها بتجريحه وتنقيره ولوّث أرجاءها بفضلات صناعته لم يبد له منها إلا وجه قبيح يؤذي ذوقه ويفسد جمال حياته . وقد يبلغ الفساد والالتياث في بيئة الانسان مستوى ينجّس مأكله ومشربه ومتنفسه ويهدد صحته ووجوده .

وقد تدعو وسائل تدبير الإنتاج إلى تجميع الناس في المصانع والمـــدائن وتنظيمهم في جماعات عظيمة ، فيشتد طـــلاب النهضة في مطاوعة دواعي الإنتاج غـير مبالين بعواقبها الاجتماعية حتى تضيق حيـاة الإنسان من كثافة الازدحام ويشعر الفرد أنه ضائع يعيش في قطيع كقطيع الانعام لا يجد فيه لذة العلاقة الوثيقة والود الحميم ولا كرامة الذات الانسانية وحقها في التقدير المخصوص .

وربما تشطح بالناس روح التملك والأثرة فيصيبهم الجشع والشح وتنجرّ عليهم ويلات كثيرة في أمنهم الاجتماعي وفي توادهم وتعاونهم ، أو تنبت بأثر الحركة الاقتصادية وشائجهم القريبة التي تحوط أخلاقهم بالمراقبة والمناصحة ،

أو ينهار أساس القواعد الأخلاقية على وجه العموم — حيث تتبدل العلاقات والاحوال المألوفة فتزول متعلقات ضوابط السلوك التقليدية وتضحي غير ذات موضوع ، فتعاجل المجتمع أزمة أخلاقية لا تمهلة سرعة النهضة من تداركها بمراجعة القيم واستحداث القواعد السلوكية التي توائم الظروف المتجددة .

وقد تدعو حاجات النهضة الاقتصادية إلى التفريط في حرية الإنسان السياسية — كأن تحمله الدولة أو الطبقة الحاكمة حملا على العمل وتطوقه مشقة مالا تطاوعه نفسه عليه ، أو ترغمه على التنازل عن تمام أجره وتنزع ماله من أجل بناء رأس المال اللازم للاستثمار ، أو تقهره برقابة وعقوبات شديدة الوطأة لتنفيذ سياستها وتدابيرها الاقتصادية . وكل ذلك حال مألوف في المجتمعات التي تتخذ فيها زيادة الانتاج وتنمية الثروة ومضاعفة القوة الاقتصادية أهدافاً مطلقة تطغى على سائر مقاصد الحياة ومعانيها . وإذا لم يكن لرضوان الانسان وكرامته مكان في سياسة الدولة وسخر الفرد للقوة الاقتصادية بدلاً من أن تسخر هي من أجله فليس ببعيد حين تتوافر تلك القوة أن تبدد في الحروب المدمرة الفعالة وتستعمل لهلاك جنس البشر .

فخلاصة الأمر أن الانسان حين يتعبده الحرص على إطابة العيش وتستهويه القوة الاقتصادية ويعكف على تصنيع المتاع وتجميعه وتكديس الثروة وتقديسها إنما يسعى إلى عاقبة خسران في الدنيا قبل الآخرة تلقيه الشقاء ومخافة الهلاك من حيث كان يلتمس السعادة : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » ( التوبة ٥٥ ) . وهذا هو شأنه كلما حصر همه في مقصد واحد للحياة وتهالك في سبيله غافلا عن سائر المقاصد ، ولا علاج لمشكله إلا باتخاذ مذهب شامل يوفق بين اتجاهات سعيه ويفي بحاجاته في اتزان واعتدال .

بل إن الانسان بغير خطة شاملة في الحياة تكون أعلى من هموم الاقتصاد ومعياراً لها لا يستطيع ان يعتدل في سياسته الاقتصادية ذاتها — بين النهضة





والعدالة الاجتماعية . فربما نزع طوراً الى العدالة بفطرته الانسانية فتراه يفرض التسوية بين أنصباء الناس وحظوظهم ولو اضطر لقهر الذي يكتسب ليرد منه شيئاً على أخيه او فوت بذلك حوافز المنافسة والاجتهاد في استزادة الكسب . وغاية تلك الخطة أن يتخاصم الناس على غلة متناقصة ، فإذا اقتسموها بعدل واستواء كانت تلك عدالة جوفاء عقيمة لا تثمر خيراً يذكر في معاش الانسان بل تتقلص بها قدرته العامة على الوفاء بحاجاته وتنحط مكانته الانسانية إزاء الطبيعة . وربما جنح طوراً آخر إلى إيثار النهضة ولو اقتضاه ذلك أن يفحش في فوارق الأجور تشجيعاً للحوافز وأن يبالغ في تكثيف رأس المال وتركيز الثروة لمواجهة حاجة الاستثمار وأن يتغاضى عن كثير من البغي والظلم رعاية لحرية التعامل وطلاقة المبادرة الفردية . ومؤدى تلك السياسة أن يستشري الشعور بالظلم فيعمد المظلومون وهم كثرة غالبة إلى التراخي في العمل او الى التمرد والثورة ، فتنقطع بين الأمة أسباب الوحدة والتعاون وتعمّ فيها الفوضى ويختل الأمن وما تلبث نهضتها أن ترتكس . فالخبط في مجال الاقتصاد بغير هدى من هدف أعلى وميزان ضابط لا يؤدي إلا إلى اضطراب الحياة وإخفاق سعي الانسان نحو تحقيق الخير والسعادة .

• • •

ولم نسق هذا الحديث تزهيداً في النهضة الاقتصادية ، فقد أسلفنا بيان مغزاها المعظم بالنسبة للإنسان المؤمن وآثارها الطيبة في حياته ، وإنما قصدنا أن نصف مآل البشر إذا افتقرت حياتهم الاقتصادية من الدين . فالدين ينصب للحياة غاية علية يجتمع في الاتجاه إليها شأن الانسان وتستقيم ميزان أموره — حتى إذا ارتقى في مستوى معاشه حاذاه برقي في سائر شئونه لئلا يمتهن مشاهد الزينة والجمال في حياته أو يفسد أخلاقه وأمنه وطمأنينته أو يفرّط في حريته وكرامته . وحين ينبعث الانسان في حركته الاقتصادية بنية دينية مسترشداً بهدي من الشرع فإنه يضمن السلامة من شرور الوثنية

المادية التي تنعكس عليه في معاشه وفي سائر شأنه ، بل إنـــه ينعم بسعد ينتظم جوانب الحياة ، ويستفيد من إمكاناته الاقتصادية في سبيل إثراء تلك الجوانب جميعاً . ولئن كان الايمان سبباً في مباركة النهضة واستقامتها وإطابة الحياة فإنه هو ذاته يزكو ويزيد من أثر النهضة المادية المنفعلة ببواعث التدين، وينقلب ذلك الايمان المزيد ليزيد الحياة تطيبباً .

• • •



## (د) العلم

لا يستقيم أمر الانسان وتعمر حياته إلا بالعـــلم ، فقد فُطر لأول أمره مستعداً لتقبل العلم محباً له ، فهو من ثم ينزع للإحاطة بالاشياء وللاطلاع على المجهول ويلفى في تقهقر حجب الغيب من حـوله استكمالاً لذاتـــه . ويتهيأ للإنسان بقدر مـا يعلم من محيطه الكوني والاجتماعي ان يعالج مواد الطبيعة وقواها ليستنبط منها منافع حيـاته وان يرتب علاقات الاجتماع البشري على نحو صالح .

وما يتخذ الإنسان عقيدة الإيمـان يؤسسها على وعي وإخلاص إلا تنهض بعلمه نهضة مباركة . وحينما يفتقد تلك العقيدة الواعية تطبق عليه الجهالة . فقد ظل الإنسان يزرح أحقاباً طويلة في وثنية جاهلية يؤلـه مظاهر الطبيعة ويتصور لها قوة غيبية مقفلة الأسرار ويرهب أن يقتحمها بعقله ويقدر أنهـا ترضى وتغضب اعتباطاً لا يتسنى للبشر ان يستبين من شأنها علة أو سنة ثابتة. ولا ريب ان الدين هو الذي ذكر الإنسان لأول العهـد بدرجته على الطبيعة وجرأه على ان يقهرها بعلمه ويسخرها لمصالحه ليرقى من ورائها الى ربه .

ومهما يكن نفاذ عقل البشر في تعرف سنن الطبيعة المنضبطة فإنه شديد القصور فيما يختص بذات شأن الإنسان . فمن ذلك العلم ما تكفه أستار الغيب المطلق كالعلم بصفات ربــه وبالكائنات الغيبية التي تؤثر عليه وبأصل وجود

الإنسان ومعنى حياته ومصائرها بعد الموت ، ومنه ما يختلف عليه البشر فلا يهتدون فيه الى الحق الفصل إذ يعجزهم ضيق الإدراك أو تضلهم ميول الهوى. فلا مناص من ان يستوحي الإنسان ربه ليهيىء له من أمره رشداً ، ولقد كان الدين هو ذلـــك الرشد الموحى الذي فتح بصيرة الإنسان لمعرفة الله وهداه لوجهة الحياة .

والمؤمن ينبعث الى العـــلم بمقتضى عبادته لله وتوجهه اليه — لأنه يلتمس القربى الى ربه يتعرف آياته الهادية. وذلك ان الله لا تدركه الأبصار ، لكنه يتجلى لعباده في الآيات الكونية التي يتطلع اليها العابد بفكره ليعرف أسرار الحكمة ودقائق الأقدار الربانية في الطبيعة ، ويتجلى كذلك في الآيات الشرعية التي ينزلها على عبـاده بالوحي والرسالات ليقفوا على لطائف المعاني والأوامر التي قدرها الله للإنسان على سبيل الاختيار .

ويدعو الإيمان الى عـلم الكون والشريعة من وجه آخر : ذلك ان الدنيا في اعتقاد المؤمن مسرح أتاحه الله للإنسان ليبتليه ، وخلق له السمع والأبصار والأفئدة ليزوده بقوة إدراك وتعـلم يجعله أهلاً لاحتمال أمانة التكليف الذي يفضي الى المساءلة يوم الدين ، ثم أنزل عليه الوحي ليهديه الى طريق الفلاح في شأن دنياه وآخرته . فالكافر غافـل عن معنى الابتلاء ضالّ عن وجهة ربه يعرض عن الشريعة ولا يتزود من العـلم بوجوه استغلال الطبيعة إلا ليأكل ويتمتع ويزداد كفراً : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحيـاة الدنيا . ذلك مبلغهم من العـلم ... » ( النجم ٢٩–٣٠ ) . أما المؤمن فإنه يقبل على علم الشريعة لأن فيها هديه الى مقتضى عبادة الله ، ويستزيد كذلك من علم الكون ليلتمس نعمـة الله الواسعة فيوسع مدى الشكر لربه وليبارك قوته فيبلغ أرقى الوجوه وأحسنها في تنفيذ أمره وليعمر حيـاته فتتضاعف فيها مواطن العبادة .

فالعلم الذي ينبعث بالإيمان ويهتدي بالشريعة يقترن بالعمل الصالح وتبدو





له ثمار طيبة في الحيـاة . وفي رحاب الإيمان تتحد معارف الطبيعة والشريعة فيستعين المؤمن بعلمه لتحقيق الحيـاة التي قدرها له الله في استسخار الطبيعة وليعبد ربه من خلال ذلك ويتزلف اليه .

● ● ●

وكما يبعث الإيمان الى العـلم من أجل معرفة الله وعبادته وطاعته فإنه — من حيث تأسيسه على حرية الاعتقاد — يجعـل للعقل قدراً كبيراً في اهتداء الإنسان لحقـائق الوجود ، ذلك أنه يستدعي تفكراً في الآيات الكونية ليتم اليقين بوحدانية الله وبلقائه ثم يستلزم تدبرا لما جاءت به الرسل حتى تطمئن النفس الى التصديق بأنه الحق المبين. فالدين ينافي الإكراه في الرأي ، ويقتضي المجادلة والإقناع بالتي هي أحسن ، وينـافي التباعة العمياء للرؤساء والكبراء أو للتقاليد الموروثة أو لطاغوت العصبية ، ويقضي أن يتحرر الفرد ليستعمل عقله ويتحرى الحق ويطلب العلم أينما كان لأنه مزود بإدراك ذاتي يسأل عنه يوم القيامة . وتتمثل هـذه المعاني في النظم الاجتماعية التي تقوم على هدى الدين ، ففيها انفتاح لتبادل العـلم وتقبله وتقدير للعلماء والمتعلمين وتشجيع لنشر العلم وتنميته .

وتؤكد الشريعة جميع المعـاني المتقدمة — إذ تدعو الى التفكر في آيات الله الكونيـة ليهتدي الإنسان الى الله ويستيقن ان الحيـاة لم تخلق عبثاً ثم ليستبين وجوه تسخير الكون لزينته ومطاعمه ومشاربه وتدعو الى السير في الارض للاعتبار بتـاريخ الامم وبعاقبة الكفر والإيمان ثم للتقلب في المصالح وابتغاء الحرية والرزق ، وتدعو الى التـدبر في آيات الله الشرعية والتفقه في تعاليم الدين ليهتدي الانسان الى منفعة دنيـاه وآخرته . فالعلم كله مطلوب وموجه لعبادة الله من خلال إعمار الحيـاة . وتجعل الشريعة للعلماء مكانة سامية ، وتوصي بنشر العلم وطلبه بـل تجعله فرض كفاية يلزم المجتمع ان يتوفر عليه بطائفة منـه تسد الحاجـة . وتضع الشريعة آداباً ونظماً شتى

لرعاية مصلحة الناس في العلم وتنظيم نهجهم في الاخذ به .

ويؤدي الدين من حيث ان أصوله في كتاب منزل وفي تعاليم منقولة عن الرسول – الى ارتفاع الأمية وانتشار العلم والكتابة والقراءة ، وذلك مفتاح لعلم الشريعة ثم لسائر وجوه العلم لأن الكتابة هي أنجع الوسائل في حفظ العلم ونشره .

• • •

ويعصم الايمان أهله من الخرافة في الاعتقاد لانه يقوم على العقل والبصيرة ويدعو الى العلم ويهدي الى حقائق الوجود الكلية . وترجع أوهام الاعتقاد الى ان للانسان استعدادا فطرياً للايمان بالغيب فإذا لم يستعمل العقل ويمحّص النظر كان عرضة لان يجره ذلك الميل الى اعتقاد باطل يظنه من الدين الحق والعلم الصحيح وما هو من ذلك في شيء . وقد وقع أكثر البشر في ديانات زائفة لانهم أذعنوا من غير نظر ولا برهان متابعة للتقاليد المرعية أو اغترارا بدعاة غلابين أو خلابين أو تمادياً في عقائد يلقنها المرء منذ الصغر . ولعل من المغالاة أن ندعي للمؤمنين كافة موقفاً عقلياً أو علمياً مجردا تجاه قضايا الاعتقاد . ولكن الملة التي لا تخاطب أصحابها ببرهان من العقل والعلم بل تلقي اليهم بالعقائد خرصاً واعتسافاً وتقوم بنفوسهم عصبية عمية إنما هي الملة الفاسدة . أما الدعوة الصحيحة فقوامها الحجة الحاقة والعلم اليقين . وخير الناس ديناً من يستجيب عن بصيرة واقتناع ، وقليلا ما ينتفع بإيمانه الامعة الذي يأخذ دينه جزافاً من غير تثبت .

وقد غلب على كثير من أصحاب الدين أخذه نقلا لا عقلا ، وأصبحوا كحاطب الليل يلتقطون الباطل عن غرة ويحسبونه من الدين – حتى علقت بالعقيدة من جراء ذلك خرافات كثيرة . ولعل أوسع أبواب هذه الاضلولة ان الدين يدعو للايمان بعالم الغيب ويذكر الملائكة والشياطين – وهي قوى مستجنة قد تؤثر على البشر بالخير وبالشر من حيث لا ترى – وانه يذكر ما





يُطلع الله بعض عباده من علم الغيب وما يُجري على أيديهم من خوارق لسننه المعتادة . ولكن عامة الناس يسترهبهم المجهول فيضيفون الى مغيبات الدين كثيراً مما يزينه الجهل الساذج أو مما أورثوه من عقائد الوثنية المشركة التي تزعم لمظاهر الطبيعة فيوضا من القوى الخفية الفعالة وتوهم ان القداسة إنما تستحق للبشر الذين يؤتون قوة روحية تخرق العادة وتغالب الطبيعة. ولذلك يغلب على عقائد العامة والجهال حكايات السحر والشياطين والخوارق يضاعفونها في الرواية ويأذنون لها مصدقين . ولا ريب ان هذا الفساد في الاعتقاد يسلب الايمان كثيراً من آثاره الطيبة – إذ يُبدّل المؤمن عن توكله خيفة واحتذارا من كل شيء وينصرف عن العمل الصالح الى خزعبلات الخرافة . وإنما تعتري الناس هذه العلة الاعتقادية بضعف الايمان – فإذا قوي دعاهم الى التدبر في علوم الكون بما يثبت بطلان كثير من الخرافات أو الى التفقه في أصول دينهم ليستردوا من رشدها سلامة الاعتقاد .

ومما ينفيه الدين بما يعلمه الإنسان من حقائق علم الكون وعقائد التوحيد – أباطيل الشعبذة وتخرصات المنجمين الذين يصلون أحداث الحياة بحركات الكواكب ومنازلها ، ودعاوى تحضير الأرواح وتقمصها والاستظهار بها ، وظنون العوام التي تدعوهم للاحتراز من مأكولات وأعمال مخصوصة والتخوف من أوقات وأيام معينة توهماً بأن فيها شروراً خفية. ذلك شأن الدين الصحيح المحفوظ . أما الديانات البدائية التي لا تعدو ان تكون تعبيراً فطرياً عن روح التدين المستكنة في الإنسان فإنها لا تكاد تسلم من الخرافة والأباطيل والأوهام. وأما الديانات الضائعة الأصول فهي عرضة لأن يطرأ عليها اعتلال العقيدة بالخرافات فيُلحق بها عوجاً دائماً ، ولا يستنير أهلها بأثر يقظة عقلية أو علمية إلا أساؤوا الظن بدينهم فنبذوه جميعاً .

• • •

وحري بشتى وجوه العلم في المجتمع الديني القويم ان تنشأ في كنف واحد

يمدها الإيمان ويوحدها فتتناصر لخير الانسان في أول حياته وآخرها . فكما أن الدين دعوة الى العمل الشامل الذي يسع الحيـــاة منتظماً أعمال العبادة الخالصة والاعمال العادية التي يحيلها المؤمن عبادة بنهجه الملتزم ونيته الموجهة - كما ان الدين كذلك فإنه دعوة الى العلم الشامل الذي يسع المعارف جميعاً . سواء منها ما يكلّ دونه العقل ويختلف على مثله البشر فلا يستبين الحق فيه إلا وحياً من الله يبلغه الرسول ويبينه ويتلقاه الناس نقلاً من بعده ، ومـا يتعلق بأشياء الطبيعة وأقدارها المنضبطة ويدركه الإنسان بما زوده الله من حاسة وعقل . فالعلم كله - شرعيه وطبيعيه - ينبغي ان يؤخذ طلباً لمعرفة الله ويستعمل لعبادته . ولئن كان علم الطبيعة من الدين فهو إنما يُكتسب بالإدراك البشري لا تشمله رسالة الرسـل ولا يعلمون منه إلا كما يعلم أهـل زمانهم، وهو قابل للتطور يتمحض حقه وتنمو أقداره حسب اتساع التجارب البشرية . أمـا العلم الشرعي فإنما يصدر عن الرسول أصولاً ثابتة لا تختلف من بعد إلا في صور التطبيق . ومثـال ذلك ان رسول الله ﷺ أمر ونهى على سبيل التشريع والتكليف في شأن المزارعة وسـائر العلاقات الزراعية ولكنه حينما رأى رأياً في علم النبات - تأبير النخل - لم يدّع الصواب ولم يقصد الإلزام . فمن روايات ذلـك الحديث أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقحون النخيل فقال لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شيصاً، فربهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا ، فقـال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ، «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ...» ، «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» (مسلم).

ويخطىء من أهل الدين من يظن ان العلم الصالح كله في الشريعة ، فإنما الدين نهج للحياة وما الحيـاة إلا تفاعل بين الإنسان والحياة يتكامل فيها علم الشريعة الذي يحكم سلوك الانسان وعـلم الطبيعة الذي يصف سلوك الاشياء . ويخطىء من يحاول استنباط عـــلوم الكون كلها من نصوص الدين اعتسافاً وتأولاً ، وإن كانت تلك النصوص لا تتعارض ابداً مع صحيح تلك العلوم .





كذلك يخطىء من علماء الطبيعة من يظن العلم كله ما أدركته الحواس ورتبه العقل ومحصته التجربة أو ان ذلك وحده كاف للإنسان في كل شئونه .

وقد تطرأ على المؤمنين علة اعتقاد يتقلص بهـــا تصورهم للدين من حيث العمل ، فيحسبون العبادة كلها في العبادات المسنونة الخالصة ويخرجون سائر شئون الحياة العامة من نطاق الدين. كما قد تطرأ عليهم العلة من حيث تصورهم الشامل للعلم فيقنعون من علم الحياة بمـا جاء في نصوص الشرع مهملين علوم الطبيعة . وإذا جهل المؤمنون علم الكون استعسرت عليهم معرفته وتسخير قواه فعجزوا عن تحقيق أكمل ما يقتضيه الدين في واقع الحياة ونقص كسبهم من العبادة ، وهكذا يتضاءل حظهم في الدنيا والآخرة .

وحينما يسود الاعتصام بالدين القويم - وعياً كاملاً لمعانيه واستجابة تامة لدواعيه - يزدهر العلم كله ويصلح أمر الدنيـا والآخرة . ولا غرو من ان يكون علماء الشرع رواداً لسائر العـلوم لأنهم أهـل قراءة وكتابة بل لأنهم ينفعلون بدعوة الدين للعلم كله . وحقاً لقد كان لأولئك العلماء في صـــدر الإسلام مبادرات في عـلوم شتى ، ولئن اختص من بعد بكل علم رجاله فقد كان الوئام سـائداً بين علوم النقل وعلوم العقل . فلما تضاءلت بين المسلمين معاني الايمـان الحقة تعطل العقل والعلم فوئدت علوم الطبيعة التي ازدهرت قبلاً ولم يبق من علوم الشرع غـير نقول لنصوص لا يعمل فيها الاجتهاد إلا أثارة من فقه الأولين وأخلاطاً من أقاويل أهل الكتاب ورواسب من أباطيل الجاهلية الوثنية علقت بالدين على أيدي رواة نقالين غـير نقادين . وهكذا احتجب الدين الصحيح عن اكثر الناس بما غشيه من الوضع ، فمنهم من يخبط في الجهالة حاسباً انه على الدين ومنهم من استيأس من الدين واتبع هواه وعقله القاصر فخسر دنيـاه وآخرته وهو يحسب انه يحسن صنعاً ، وأكثرهم قنعوا بالتقليد وعطلوا اجتهاد الرأي مقسمين أنفسهم على أئمة العلوم الدينية الاولى - كل طائفة تتبع شيخها تتخذ قوله حجة مغنية عن نصوص الدين وتتعصب

له عصبية عمياء . وقد جاء على المسلمين زمان جمدوا فيه على مذاهب صماء في كل شأن علمي — في علم العقيدة ، وفي الفقه الشرعي ، وفي نظام الاذكار ، وفي قراءات القرآن ، بل حتى في علوم اللغة .

وما انفك المسلمون يعمهون في جهالتهم حتى وردت عليهم العلوم الحديثة من الغرب فجاءهم من حقائق العلم ما يصادم كثيراً من التصورات الواهمة التي يحسبونها من الدين . ولا حرج من ذلك على المسلمين ، فإنهم لا يرتبكون لأول الفجاءة إلا ليفزعوا بعدها إلى أصول الدين المحفوظة ليردوه إلى حقه الصافي وينقوه من شوائب الخرافة والوضع الباطل ، ثم لا يعقبهم ذلك كله إلا زيادة اطمئنان بحقائق دينهم التي يصدقها العلم الحديث . لكن أزمة المسلمين مع العلوم المستوردة أنها لا تتجه الى الله بل تحمل روحاً مجافية للدين نشبت بها من تاريخ الصراع بين العلم والدين في الغرب .

والواقع ان ذلك الصراع الذي جرى في الغرب كان مداره على نصوص معينة في الكتاب الذي تعتمده الكنيسة وتضفي عليه حجة الوحي وتجري نصوصه على ظاهرها كأنها حق مطلق ، وان كان الإنجيل بعهديه لم يثبت له سند متصل إلى رسول ولا يقطع له بالضبط اللفظي بعد ما اعتراه من الترجمة والرواية والتبديل . بل دارت بعض شعاب الجدل بين العلم والدين حول نصوص وتقديرات وعقائد تبنتها الكنيسة من نفسها فأصبحت في عداد حقائق الدين وتعاليمه وإن كان منشؤها من أوهام وخرافات واجتهادات شتى ارتكمت عبر التاريخ . فمن ذلك العقيدة الشائعة التي تنسب كثيراً من الأحداث الطبيعية والمصائب والأمراض إلى فعل الله المباشر أو فعل الشيطان وتتوهم أن ذلك ينافي كونها بأسباب مضطردة وبقوانين قابلة للاكتشاف بالنظر العلمي وللمعالجة بتسخير الاسباب بعضها على بعض . ومنه التقديرات بأن عالم الشهادة ليس له نظام لازم وإنما هو فيوض من القوى الغيبية تعربد فيه الجن في مظاهر شتى ويعج بمكائد السحرة وكرامات الصالحين . ومنه الاعتقاد بأن الخلق كله تم على الفور عند تاريخ معلوم في أيام شمسية معدودة ليس فيه أطوار ولا سنن .





ومنه الوهم بأن الأرض ثابتة في وسط الكون تدور حولها الأفلاك على أبعاد قريبة مقررة .

وإنما أزّم التعارض بين تلك الترهات وبين المعلومات العقلية والتجريبية لانه تجسد في نزاع مثير بين الكنيسة ورجال العلم . وكانت الدولة أول الأمر نصيرا للكنيسة إذ شهرت سلطانها المظيم لتضطهد رجال العلم وتفتنهم عما يرون ولتحظر تداول العلم الجديد وانتشاره . ولئن رهب بعض العلماء لأول العهد فسكتوا أو أعلنوا الردة عن علمهم ، فقد تكاثرت بعد أنوار العلم الكاشفة وتوالت انتصارات حقه حتى بدد ظلام الاوهام الدينية وأزهق باطلها . وقد تأيد العلم في انتصاره بسائر اتجاهات الحياة الأوربية التي كانت تغالب رهبوت الكنيسة في كل زاوية .

واشتط الناس بالعلم في عقابيل تلك المعركة التي لم تكن حقاً بين الدين والعلم وإنما كانت بين قوة السلطة وحق التفكر . فقد تُوهِّم أن وسائل العلم الطبيعي هي وحدها طريق المعرفة تحيط بكل أبعاد الوجود فما لم يثبت بها عُدّ من الاباطيل ولو كان من عقائد المتدينين ، وادُعِيَ أن ديناً حديثاً يمكن أن يؤسس على نظريات ذلك العلم وحقائقه المادية ، وزعم أن قضايا الإنسان ذاتها يمكن أن تطرح في ضوء هذا العلم أسوة بسائر الطبيعة لتعالج بمنطق قطعي حاسم لا يعتوره الخطأ ولا الخلاف .

وقد كفكف العلماء في العصر الحاضر كثيراً من شطحات الاولين ، فأصبحوا أكثر تحفظاً في ادعاء العصمة من الخطأ وأكثر تواضعاً في تقديرهم لمدى المعارف التي يمكن أن تبلغ بعلم الطبيعة والمشاكل التي تعالج بهديه . ولكن العلم استقل عن الدين وهمومه — شأنه شأن السياسة الاقتصادية .

ولقد اشتد العالم اليوم في طلب علوم الطبيعة والإنسان ، فأخذت تنمو بمعزل عن الدين . بيد أن ذلك يتجه بالإنسان إلى أن يتضاءل إيمانه حتى ينحرم من كل الآثار الطيبة التي تحدثها العقيدة الصحيحة في الحياة . فالإنسان

إذا لم ينبعث إلى العلم بدواعي الإيمان عرضة لان يغتر بعقله وقدرته وسلطانه على الاشياء فيجعل اكتساب العلم منتهى غايته وينقطع عن مرقاه الى ربه ، فإذا مدّ له في العلم ربما بلغ به الغرور والعجب ان يؤله نفسه ويستغني بقوته ويستنكف عن عبادة الله . ثم من العلم ما يتصل بحقائق الغيب التي لا يحيط بها إدراك البشر وبقضايا الاخلاق التي لا يحسمها تفكيرهم وتجريبهم . فلا غنى للإنسان عن الدين ليستكمل وسائل المعرفة وليتلقاها من حيث تعقبه خيراً في دنياه وآخرته . فعلم علاقات البشر أصوله كلها في الدين . ويدعو الدين لاكتساب علم الطبيعة ، ولئن لم يبينه بالوحي المفصل فذلك لان أوامر الله الطبيعية تجري بسنة مضطردة يمكن أن يرصدها الإنسان بالإدراك البشري الذي جعله له الله ، ولكن في الدين أيضاً تقرير يضبط التصور الكلي لحقائق الوجود ويعصم العالم الطبيعي من أن يقع في الاوهام إذا أفلت من زمام منهجه المتثبت واسترسل في النظريات .

ثم ان حياة الإنسان لا تستقيم إلا باستكمال شعاب العلم شرعية وطبيعية — تهديه الشريعة وتضبط حياته ، ويزيده علمه العقلي هدى وعبادة ، وإلا فهو يوشك أن يجعل من اكتساب العلم الطبيعي والتقوى به غاية ، فيتعاظمه ويهوله ما ينكشف له من حقائق الوجود حتى يحتقر شأن نفسه ويزدري كرامته ومكانته ومسئوليته في الحياة ، أو تستخفه قوة العلم وتطغيه فيستغله في إتلاف نفسه . وهذا تخوف بدأ خطره جلياً مذ أتقن العلم وسائل الحروب الذرية والكيماوية وبلغ بها مدى رهيباً من القدرة على التدمير . وسيتضاعف ذلك الخوف كلما ازداد العلم بأسرار كيمياء الحياة أو دقائق نظام التوارث والتناسل أو دخائل الدماغ البشري . فلا مناص من أن يكون للإنسان هدف أعلى من العلم العقلي ليستمد منه ضابطاً يحكمه في تلك القـــوة العلمية العظيمة فيكون استغلالها للخير لا للضر والإهلاك .

ففي اطار الدين الصحيح يلقى الإنسان رشداً من الوحي لا غناء له من دونه ، كما يتهيأ له منـــاخ صالح للتفكر الحر وطلب العلم حتى يتخذ من





وسائل المعرفة العقلية والتجريبية ما يوسع بـــه مداركه ، وتتسق بالإيمان مناهج المعرفة وتتحد وجهة العلم ، فيستعمل الإنسان عقـله وتجربته ليزداد اطمئناناً في اعتقاده الديني وليفقه حكمة التعاليم الموحاة إليـــه حق الفقه ويطبقها بأكمل الوجـوه التي تتيسر في واقعـــه ، ويهتدي بشريعته لضبط خطرات عقله وتوجيه تجاربه حتى يكتسب العلم الصحيح ويسخره لإعمار حياته — ومن خـــلال ذلك وفي أثنائه لتكثيف العبادة لله وزيادة القرب إليه .

● ● ●

## (ﻫ) الفن

في شعور الإنسان ما يدعوه لاتخاذ الزينة والتماس الجمال – تتسامى تلك الحاسة الفنية عنده كلما استوفى حاجـــات المعاش الاولية . وكما سخر الله الطبيعة للانسان ليستنبط منها طعـامه وشرابه ويتخذ لباسه ومأواه ، فقد أتاح له فيها صوراً من الجمال وأباح له ان يطلبها ليستكمل بها وجوه متاعه : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. » ( الأعراف ٣٢ ) « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمـال حين تريحون وحين تسرحون . » ( النحل ٥–٦ ) . وكما يقتضي الايمان ان يبتغي الانسان في معاشه الزلفى الى الله وان يجعل من ضربه في وجوه الكسب وتقلبه في صروف المعاملات مادة لعبادة ربه – كذلك من شأن المؤمن إذا طلب الجمال واتخذ الزينة ان يذكر في ذلك معنى الابتلاء فيفعله بطوية تلتمس القربى الى الله وبوجـه يعبر عن طاعته وعبادته : « إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . » ( الكهف ٧ ) .

ففي مشاهد الجمال الطبيعي تتجلى بدائع صنع الخالق المصوّر الذي أتقن كل شيء ، فإذا التمسها المؤمن زادته علماً بربه وإيماناً بكماله وأفعمته حباً له وتوقاناً الى لقائه : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما





لها من فروج . » ( ق ٦ ) . وفي مواطن الزينة التي أخرجها الله لعبـاده تبدو لطائف نعمة الله الذي أعطى فأوفى وجـمل المطية ، فإذا ازين المؤمن بما حباه ربه ازداد عرفاناً لفضل الله فتعاظم حرصه على ان يحسن الشكر كما أحسن له العطاء . وحيثما باشر المؤمن هذا الوجه من حياته بهذه النية الصالحة اقتضاه المقام ان يتوخى طاعـــة الله في مآخذه ومسالكه العملية واستدعى ذلك منه خوفاً ورجاءً وتذكراً لربه .

وقد يتهيأ المؤمن بمواهبه الخاصة لأن تكون عبادته لله في ان يحكم فيعدل او يكتسب فينفق أو يتفقه العـلم فيعلـمه – كذلك قد يتجه به استعداده الى ممارسة أسباب الفن والتعبير الجميل في الصنعة والأداء . وقد يورثه إيمانه بالله وتوقه اليه إحساساً مرهفاً وإدراكاً نافـذاً يقف به على دقائق المعاني التي لا يلحظها غيره وأعمـاق الصور التي لا تظهر لسواه . وقد يدعوه إيمانه الى الإخلاص والاتقان فيتيسر له إحسان التعبير عمـا يحس فيصدر عنه عمل فني بالغ الاثر .

وقد انطبع كثير من ذوي الذوق الفني بمعاني الايمان فأوحت اليهم تعبيراً فنياً رائعاً وانبعثوا بها الى اداء جميل خاصة فيما يتصل بالدين من قريب . فقد زين النساخ خط الكتب الدينية، وأحسن البناة تصميم دور العبادة وتزويقها، وانفعل كثيرون بالدين ليخرجوا ألواناً جميـلة من النغم والموسيقى والتصوير والزخرفة والشعر والكلم الادبي الرائع .

وقد يبدو للمرء ان معاني العبادة لم تلهم من أعمال الفن والادب إلا قليلاً ولم تتجه بهـا إلا لأغراض محدودة ، ولكن ذلـك ناشيء عن انحصار معنى العبادة عند كثير من المؤمنين، إذ يقصرونها على الاعمال التي توهب لله مباشرة فتكون من قبيـل الصلاة ، ولا يستشعرونها في أعمـال المعاش والاجتماع التي تشغلهم فيها مقاصد المتاع والانتفاع المجردة . أما المؤمن الحق فإنه يَعبر تلك المقاصد كلها الى الله ، فالعبادة عنده معنى يتسع سعة الحياة وينتظم كل حركة

وسكون ما استصحب فيها ذكر ربه والتزم طاعته . وإذا أسلم الانسان نفسه لله بهذا المعنى الشامل الفى نفسه موصولاً بربه حيثما اتجه بحياته تحدوه دواعي الايمان وتضبط سيره ، وإذا واتاه الذوق الفني في الاحساس والتعبير فإنه ينبعث بإيمانه الى أرقى الاعمال الفنية ويطرق بفنه كل أبواب الحياة مستقيماً في ذلك كله على طاعة ربه .

ولكن الفن – مثله مثل المال والسلطان – قد يفتن صاحبه حتى يتخذه غاية عليا فينقطع به عن التوجه الى الله ولا يبالي في سبيله بمراقبة أمر الله . وذلك شأن كثير من أهل الفن في عالم مرق عن الدين في كل شأن من شئونه العامة ثم شقق حياته من بعد حتى كاد ان يصبح كل وجه منها هماً قائماً بذاته . وإذا أصبح الفن غاية لذاته – كالمال والسلطان لذاتها – كان مدعاة للاضرار بجوانب الحياة الاخرى وتقليص أسباب السعادة الكلية التى يستنبطها الانسان من الحياة . وإذا جعل الفن خادماً للمجتمع – في غير ما خطة شاملة للحياة تصل ذلك بسائر أسباب التوجه الى الله – فإن ذلك إنما يعدي الفن بعدوى العلة التي يقوم عليها مثل ذلك المجتمع ، فهو عندئذ لا يتجه إلا لبعض مقاصد الحياة منحرفاً عن سائرها تبعاً لانحراف المجتمع ، وإذا كانت علاقات المجتمع قائمة على غير معدلة كان الفن تعبيراً عن الظلم وتكريساً له . وحيثما جعلت مصلحة المجتمع تقديراً أعلى يستوعب الحياة فإن الفرد قمين ان يُعبّد لذلك التقدير وتوقف حريته وتقيد من أجله ، فيكون عليه حرج في التعبير الفني الصادق عن ذات نفسه وتشح بالضرورة مبادراته الفنية لأن الانسان لا يستكمل ذاته ولا يلقى طلاقة الحرية في التعبد لشيء إلا لله الكامل الواسع الكبير .

فالفنان المؤمن يحرر نفسه وفنه من حصار التعبد لغير الله – سواء كان ذلك ترويج أغراض المجتمع أو استرضاء بعض الذوات البشرية أو الولع بشيء من مظاهر الكون أو مطاوعة شهوة الجمال والزينة التي تنبعث من هوى النفس أو طلب الارتزاق بالفن ، إلا ان يكون ذلك موصولاً بمقصد العبادة





لله ملتزماً بمقتضاها ، فله ان يطرق آفاق الحياة الرحبة متسعاً في عمله الفني سعة معنى العبادة صادقاً في تعبيره صدق المؤمن في عبادته الطوعية الواعية ، ولا يقتضي عليه الايمان قيدا إلا من أجل سيادة معنى العبادة – لان في العبادة سر حريته وسبب فلاحه من حيث هو فنان بل من حيث هو انسان له مردّ الى حياة كبرى يرجو ان يلفي فيها كل خير ويلقى ربه راضياً مرضياً . فالإيمان في مجال الفن وغيره يجعل من العبادة معنى سامياً للحياة يستمد منه الانسان تقويماً لها وتوجيهاً لمناحيها المختلفة لتتحد قبلته وتتوافق المناهج التي يختص بها شق الافراد وتتناصر مساعيهم نحو الترقي بحياتهم الدنيا وتوخي الفلاح في أخراهم . وإنما تتحقق وحدة الحياة وتسري روح العبادة في كل أعمالها ومواقفها بتحكيم ميزان الشريعة الدقيق الذي يضبط كل شأن فيها بما يرعى سائر شئونها وبما يحفظ وجهتها الهادفة نحو الله .

فمن ذلك ان الشريعة تحظر من التماثيل ما يكون ذريعة للاشراك ، وتقيد أسباب التمتع بالجمال الجنسي رعاية لنظام الزواج والاسرة ، وتكره من الالتهاء بالفن ما يصرف المؤمن عن ذكر ربه أو يدعوه للتفريط في هموم الحياة الاخرى .

وقد ينكر المرء احياناً صورا من أحوال أهل الفن ومما يصاحب ممارسة الفنون فيزدهد لاجل ذلك الفن كله ولا يراه من الدين في شيء . ويخطىء صاحب الفن الذي تستهويه شهوة ابتغاء الجمال والطرب أو رغبة الامتاع والابداع فيتبع نفسه هواها سادرا سامدا حتى ينقطع بوجهته عن ربه أو يحيد بخطاه عن حدود الشريعة الهادية اليه . ولكن قدر الله في الحياة ان تكون دار ابتلاء تتخللها الفتن ومظنات الخطايا ، وواهم من المؤمنين من يحسب غاية الفوز في مجانبة مواطن الابتلاء كلها حذر الافتتان ، وأولى به ان يغشاها بنية صالحة وإجراء سليم – بالاخلاص والتقوى والمصابرة ، فإن أوجس ضعافة في نفسه زكاها بالعبادات الخالصة كالذكر والصلاة حتى تقوى على خوض الحياة وتعظم بذلك أبعاد عبادته وأقدار دينه .

## (و) طمأنينة النفس

لعل من أطيب مـــا يجد المؤمن من آثار عقيدته أنها تملأ جوانحه رضى بأقدار الوجود والحياة ، فهو يعلم من حقائق الوجود ما يسكن به خاطره ومن معنى الحياة ما تقر به نفسه فيقبل على دنياه مطمئناً متهنئاً مسعوداً مهما اختلفت عليه الظروف .

وسبقت لنا من قبل إلمامة بهذا المعنى في سياق الحديث عن تصور المؤمن لمعنى الوجود والحياة ، فقد ذكرنا ان الإنسان مـــا ينفك يتساءل عن تلك المعاني فلا يجـد جواباً يشفيه ويرضيه إلا في الدين . وربما يغفل الانسان عن شئون الكون إذا احتكرت فكره الهموم الأصاغر في الحياة ـ كالذي يشغله طلب ضرورات المعاش او يفتنه اللهو والمتاع او تغمه فوادح الظروف ، ولكن ما يهدأ باله قليلاً إلا طرق أمهات المسائل وتطلع الى الاحاطة بعلم الوجود وتاق الى تصور كلي لمغزى الحياة . وقد عالج الإنسان ذلك بظنونه الفلسفية فلم يعثر على شيء تسكن اليه النفس ، واستكشفه بوسائل العلم الطبيعي فلم يقف إلا على زوايا وبقع لا تبلغه أبعـــاد الحقيقة المتكاملة ، ورقّعها بخياله وخرصه ليصطنع نظريات شاملة فلم يجد برد اليقين .

فبالوحي وحده ينفذ الانسان حجب الغيب ليطلع على حقيقة الوجود حيث يتجلى له الكون نظاماً موحداً تترتب ظواهره في نسق وثيق وترتد أسبابه



الى أصل واحد فيجول الفكر فيه بسلاسة ويسر ويسكن العقل إلى تصوره .
وإذا تساءل الإنسان عن مصادر حياته ومواردها أسعفه الإيمان بعلم عن أصل الخلق والمصير بعد الممات يأمن به إلى الطبيعة لأنه بعض مادتها ويعرف به من وجه آخر فضله وسلطانه عليها فيستشعر بذلك كرامة ترضيه . فهو في وئام مع الكون كله ـ يسجد لله كما يسجد الكون على أنه يمتاز بمشيئة حرة يطوعها لشرع الله بينما تخضع الأشياء لأقدار قاهرة . ثم هو في سلام مع نفسه لأنه من عنصر أرضي ينصاع للقدر اللازم ولأن فيه فطرة روحية تنزع به الى ربه فلا يرتاح له بال إلا في كنف الدين . ويعلم المؤمن أن الدنيا ليست عبثاً مضجراً ولا لغزاً محيراً وإنما هي مرحلة هادفة من الحيـــاة يبتلى فيها الإنسان ، فإذا اتخذ لقاء الله غاية وعبادته وسيلة كان في الفائزين ، وإن ضل عن ربه خسر دنياه وآخرته . فالمؤمن بذلك في طمأنينة من أمره يُسر بماهو عليه من الرشد في شئون دنياه ويبشر بالنعيم يوم يرجع إلى جوار ربه .

أما الذين لا يهتدون بالوحي فمنهم من يحـــاول أن يتجاوز نفسه ومحيطه ليدرك كليات الغيب ، وهؤلاء هم أصحاب التأمل والفلسفة الذين يتبعون الظنون فلا ينفكون بغير يقين مترددين في حـيرة وارتباك . ومنهم من يقع في وثنية الطبيعة ، فيتوهم في مظاهرها آلهة أو جنـّا ذات قوى رهيبة تملؤه رعباً لا يشفى منه أبداً إذ لا يظفر منها بهدى يبتغي بـــه مرضاتها ويأمن سخطها . ومنهم من يتخذ إلهه هواه ، فينقلب به ويقلقل همـه مـع تبدل الظروف أو يشققه في وجهات متعاكسة كلما وفـّى ببعض حاجاته أو قضى من شهواته تجاذبته أخرى فيتشتت شمله ولا يدرك للحياة مغزى واحـــداً تستقر به النفس . وهذا شأن كثير من الناس في حاضر العـــالم المتقدم كلما التمسوا غاية فأدركوها استشعروا الخيبة من بعدها وازداد تبرمهم بالحيـــاة واعتراهم قلق متجدد .

إلا أن المؤمن يتجه إلى غاية واحدة لا يشرك بها شيئاً ، ويسير على صراط مستقيم لا تتنازعه من دونه الشعاب . ثم إن مقاصد الحياة كافة تندرج في وجهة

المؤمن الواحدة ، فمساعيه نحوها معتدلة تفي بحاجات حياته دون إسراف ولا تفريط ، وهي بعد تتجاوز تلك المقاصد القريبة لأن منتهاها لقاء الله الذي لا يبلغه البشر بل يظل هدفاً أعلى يلهم الإنسان طول حياته فيدأب مترقياً في درجات القربى إليه لا يبشم أو يسأم فيضحي من بعده فارغ الفؤاد .

ومن اليقين بأن بالحياة محكومة بأقدار الله دائرة على معنى الابتلاء للإنسان يستمد المؤمن ما يرضيه بالقضاء ، فلا يأسى على شيء فاته ولا يقعد يتذمر من أمر مبرم — اذ يعلم أن ما انحسم من الأمور لاراد له من بعد ولا يجدي فيه التشكي ، وأن ليس للمرء فيما اقتضته الاقدار اللازمة إلا أن يعتبر بما مضى ويحتاط لمستقبله متخذاً أقدار الله التي يتمكن منها متبعاً أوامره الشرعية . ولا يعني المؤمن أن يستدرك شيئاً فاته ، وإنما يعنيه أن يحسن الموقف فلا يسخط من قضاء الله ولا ينخذل عن الانبعاث إلى مستقبل أمره على هدى من الله .

وإذا تقبل المؤمن واقع أحواله ثم أقبل على حياته يبتغي إصلاح شئونه وتحري مقاصده فإنه يقبل مفعماً بالتوكل والثبات ، لأنه متى أفرغ جهده لا يراوده القلق اذ التوفيق بعد بعون الله ، فما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما دام قد بذل وسعه في الأسباب قاصداً وجه الله ولازماً أمره فلا عليه أن ربما تفوته بغيته القريبة فإن الله لا يضيع له سعياً حسناً وربما قدر له الخير في غير ما كان يحب ومن حيث لم يحتسب أو أعد له جميل العوض في أخراه . فالمؤمن كما قدمنا لا يهلك نفسه تحسراً ولا يسلم للخيبة ، بل يعد كل منعطف في حياته تحدياً وابتلاء يجتهد ليستقيم فيه موقفه . ومن أجل ذلك لا يستطيره وقع المصائب ، فإما كانت مظلمة صبها عليه أحد التمس ردها بالمعروف فإن أعجزه صبر وارتجى عدالة الله ، أو كانت قضاء صبر عليه كذلك واحتسب أمره لله . فظروف الحياة مهما كانت لا تعيل صبر المؤمن ولا تكدر صفاء نفسه : عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس



ذلك لأحد إلا المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » ( مسلم ) . بل ربما سعد المؤمن والتذ بما يشقى به غيره — إذ يرى فيه كفارة معجلة تفديه من حساب الآخرة ، أو ابتلاء اختصه به الله ليمحص إيمانه : « اذا أراد الله بعبده الخير عجل الله له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » ، « إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله تعالى اذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط » ( الترمذي ) . ويأمن المؤمن كذلك في حياته لانه — أولاً — متحرر الوجدان لا يخاف الا الله ويسند إليه كل أقدار النفع والضر ، فلا تخيفه مظاهر الكون او تستخفه الخرافات الوثنية التي تنسب لقوى الطبيعة عاطفة الغضب على الإنسان وقدرة الإضرار به ، ولا يأخذه الفزع مما يمكن أن يفعله به الناس ولا يسترهبه أحد مهما جرت على يده في الظاهر أسباب القوة السياسية والاقتصادية . وهو — من وجه آخر — لا يقطع نفسه حسداً لمن يفضلونه في حظوظ الدنيا — اذ يعلم ان كل امرىء مكلف فيما أوتي ، فالناس سواسية في فرص التنافس لان سباقهم في درجات التقوى وعند الله يثبت الفضل المبين .

ثم ان الإيمان يقتضي نظماً اجتماعية وسياسية واقتصادية ملائمة لسعادة الإنسان ، وقد فصلنا ذلك من قبل تفصيلا . وخلاصة القول ان الفرد مهنأ في معاشه منعم بفيوض الخيرات في اقتصاد ناهض مزدهر تتوافر فيه العدالة الاجتماعية لا يلتمس فيه امرؤ سعده في إشقاء الآخرين ، وهو مكرم في الحياة العامة محفوظة له حرمته الا بالحق متاحة له حريته بالمعروف ومباح له حق المشاركة في أمر الجماعة ، وهو ايضاً طيب النفس في أوضاعه الاجتماعية يخالق بالحسنى ويحاط بالود الوثيق والصلات الآمنة : « ... فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . » ( طه ١٢١ — ١٢٢ ) .

وما يفتأ المؤمن يعيش مغموراً بالرضى وصفاء النفس حتى اذا حضره الموت

لقيه رابط الجأش مطمئن الخاطر لانه يستقبل به جوار ربه حيث يرجو أن يخلد مسعوداً في جنات النعيم : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـــاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . » النحل ٧٧ ) .

• • •

وقد ترتسم من جملة ما قدمنا صورة كاملة من السعادة لا تنطبق على حال مؤمن بعينه . ولكن حسب المؤمن أن تجتمع عليه هذه الدواعي الكثيرة ، فإن زلزلته شيئاً ما وقائع البلوى التي تتمخض عنها أثناءُ الحياة أسعفته معاني الإيمـان لترد إليه استقرار نفسه واعتدال يقينه وطمأنينته فكان أقرب الى ان يجد السكينة والسعادة من حيث يأخذ غيره الهلع والشقاء .

وقد عرف الناس هذا الأثر للإيمـان في كل الأزمان ورأوا من ذوي الدين استعداداً عظيماً للصبر والجـــلد مهما اشتدت عليهم وطأة البأساء والضراء وللسكون والاعتدال مهما طرقتهم أحداث الحياة الجليلة بالخير أو الشر . وقد توهم المتوهمون من فرط ما أذهلهم هذا الخلق ان الدين مخدرنفسي اختلقه المتغلبون يسكنون بـــه الشعوب المظلومة لتذلّ لهم فيتمكنوا من أعناقها ولتلتهي برجاء الآخرة وتغمض عن واقعها الأليم . والذين يفترون على الدين تلك الفرية يغفلون عن ان أهل الدين الصحيح لا يلتمسون الطمأنينة فيالقعود والترك والذلالة . فالحياة عند المؤمنين تحديات ابتلاء يجابهونها ومثل خـــير وعدل يجاهدون في سبيلها ، بيد انهم متوكلون صابرون يكدحون في رباطة جأش لا يزعزعهم جزع ولا قلق ، وان أخفقوا لم تنكسر نفوسهم أسفا او أفلحوا لم يستطاروا فرحا ، فهم يعمرون الحياة نشاطاً وجهاداً لكن نفوسهم على ذلك راضية مطمئنة .

وقد توخى الناس السعادة بغير الدين ، فطلبوها في القوة السياسية والجاه والثراء والحرية الاجتماعية . ولكن تجارب الحضارة الغربية الحديثة خير شاهد





على مدى خيبة الإنسان حين يطلب السعادة في شهوات الدنيا ـ اذ يظل منهوماً لا تنقضي شهواته مشفقاً تتشعب رغائبه ولا يأخذ في بعضها الا لاحت له حاجات ملحة من وجه آخر ، ثم يجره الحرص إلى اختصام سعادته المادية من حق الآخرين فيشقي نفسه وإياهم بالعداوة والبغضاء . فالحياة الحديثة التي تتسم بالتعقيد وتحفها الضغوط قـــد صادفت نفوس الناس خاوية من الإيمان واليقين فأورثتهم اضطرابات اجتماعية وأمراضاً نفسية يفزعون منها عبثاً الى المخدرات والمسكنات ويعالجونهـــا بوسائل الطب النفسي المحدودة وهي وباء منتشر .

وان لم يكن وخي السعادة في اتباع الهوى فإنها لا تتوخى كذلك في الفرار من مشاكل الحياة وبلواها ، ولو قدر الامر كذلك لعُد العلم والنهضة والحركة شرا على الإنسان لما تفتح عليه من آفاق جديدة تزعج سلامه وتمتحن قوته وتجهده بالتفكير والتدبير . ولكن السعادة في مواجهة مقاصد الحياة بالموقف النفسي السليم . وهي لذلك من ثمرات الإيمان ، لانه يبيح للمؤمن أن يأخذ من طيبات الحياة وزينتها بينما يرتفع بهمه الأكبر نحو الله ليعبر إليـــه الحياة مستنبطاً من كل شأن فيها سبباً للقربى إليه فتطيب من ذلك نفسه وترضى ربنا يلقاه فيؤمنه من الفزع الأكبر ويورثه الجنة حيث النعيم العظيم والسعادة الخالدة : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خـــيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدارُ الآخره خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون . » ( النحل ٣٠ ـ ٣٢ ) .

• • •

# الفصل الخاتم

## وحدة الدين ووقعها في الحياة

# الفصل الخاتم

## وحدة الدين ووقعها في الحياة

# وحدة المعاني الدينية

كنا في صدر هذا الحديث نعالج شعاب الإيمان أحاد أحاد نتأمل آثارها في نهضة الحياة وفي استقامة نظـامها ، ثم تناولنا من دون ذلك شتى جوانب الحياة لننظر مفعول الإيمان في كل منها . ونريد في هـــذا الختام ان نقطف خلاصات مما استفضنا فيه من قبل ونؤلفها في سياق واحد لتقوم شواهد على وجوه الوحدة في معاني الدين وعلى مـــا لتلك الوحدة من أثر بالغ في إطابة حيــاة الانسان ناسبين ذلك الى النقائض والنقائص التي تلازم عقائد الانسان الوضعية من مذاهب دينية يتخذها من قِبَـــل الظنون لا يسترشد فيها بهدى ثابت من رسالات الله أو تصورات ارضية يؤسسها على جهل أو تجاهل لحقائق الغيب لا يبالي فيها إلا بظاهر من الحياة الدنيا .

ولنتأمل فيما يلي وحدة الدين في معاني عقيدته وفي أحكام شريعته ثم ننظر فيما بعد وقع هذه الوحدة وعاقبتها في حياة الانسان .

**١ ــ معاني العقيدة :**

الدين الحق عقيدة ثابتة تنسب الخلق والأمر جميعاً الى الله وحده ، وعـلم موحد يتسع لأبعاد الوجود غيبه ومشهوده ولأوامر الله في الطبيعة والشريعة ولمراحل الحياة أولاها وأخراها ، وموقف في الحيــاة لا يختلف يتخذ لقاءه

تعالى غاية مجردة وعبادته وسيلة مخلصة ويجعل هديه المنزل صراطاً اليه مستقيماً.

• • •

أما الوحدة في أصل الاعتقاد الديني فذلك ان دواعيه تتوارد على الانسان من كل أبواب المعرفة فتتناصر لديه أسباب الايمان بحقائق الدين لتورثه أصلب اليقين وأثبته .

فإذا أرسل الانسان نظره وأعمل عقله متأملاً في مظاهر الكون ألفاها آيات بينات ان الله واحد قيوم اليه ترجع أسباب الخلق والتقدير. وإنه ليرى وحدانية الله متجلية في اتساق سنن الخلق وفي شمول أقداره السارية على كل شيء في الوجود : « أوَلم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون . ولله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . » ( النحل ٤٨–٤٩ ) ، « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ... الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . » ( الملك ١–٣ ) . وإنه ليدرك ان الوجود المشهود ما كان ليخلق عبثاً ، فأشياؤه كلها ساجدة لله تنفذ عليها أحكامه اللازمة بينا يقوم في كنفه الانسان ببعض حرية يتخذ بها مواقفه في الحياة كيفما شاء متمتعاً بها الى أجل ، فلا ينبغي ان يشذّ الانسان عفواً عن سائر سنة الطبيعة المعبدة لله ، ولا يتفق ان يكون الموت هو منتهى أمره ما دام بعث الحياة من مظاهر الكون الفاشية ، بل لا بد ان يكون لحياته في مسرح الارض والسماء مغزى عظيم وان يكون له شأن بعد الموت : « إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . » ( آل عمران ١٩٠–١٩١ ) .

وإذا استوحى الانسان ضميره واستهدى بصيرته وجد في فطرته ميلاً الى



خالقه الذي صنعه بيده وأودع فيه من روحه وعلمه ، واستشعر نحو الله وشيجة ولاء وتعبد – كلما رعاها ألفى أنساً وطمأنينة بالقرب من ربه وإلفاً بسائر الخلائق المنصاعة معه لأقدار الله ووئاماً مع ذات الطبيعة الكونية الخاضعة لتلك الأقدار اللازمة ، وكلما نقض عهد ربه وتباعد عنه شقي واستوحش واستشعر الشكاسة بينه وبين محيطه الكوني . وتهديه فطرته أنه ما استقام متوجهاً الى ربه متزلفاً بالعبادة لا محالة راجع اليه حين يتحرر من إطار وجوده الأرضي الذي يحجبه عن عالم الغيب ، ويومئذ يفوز لديه بالقربى الوثيقة ويتم له الأنس والسعد العظيم : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب . » ( الرعد ٢٧–٢٨ ) .

وتأتي رسل الله بسلطان مبين تتلو على الناس كتاباً من ربهم يفصل لهم علم ما لم يعلموا من قبل إلا ميلاً في الفطرة وإشارة من العقل مبهمة . ففي الرسالات بيان لأمر الله وعالم الغيب وخبر عن خلق الإنسان وقدره وفيها بشارة ونذارة : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . » ( النحل ٨٩ ) . وتتعاقب رسالات الله جميعاً بمعان أساسية واحدة لتوحيد مذهب الناس في الدين عبر الشعوب والأزمنة المختلفة تهديهم أجمعين ان يوحدوا الله معبوداً فلا يشركوا به أرباباً متفرقين وان يؤمنوا برسله ولا يفرقوا بين أحد منهم وان يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...» (الشورى ١٣).

وهكذا تتحد لدى المؤمن أسباب اليقين – العلم والهدى والكتاب المنير – وتطمئن نفسه وتتحد خواطرها بحقائق الدين فلا يخالجها بعد شك ولا ريبة ، ويورثه ذلك اليقين المطمئن إيماناً صلباً خالصاً بالله معبوداً لا إله غيره ويشرعه طريقاً إليه قوياً . ولا تتسع مشاهدات المؤمن ومدركاته في

آيات الله الكونية أو تزداد معارفه العقلية إلا ازداد إيماناً بالدين ، ولا يجرب عبادة الله ويستغرق فيها حق تزكو فطرته المؤمنة وتتوطد في وجدانه أركان العقيدة فلا تزعزعه عنها بعدُ الشبهات أو الأزمات .

ولا تتحقق وحدة المعرفة من كل وجوهها إلا في الدين ، ولا تقوم هـذه الوحدة قاعدة متينة للاعتقاد إلا في العقيدة الدينية . فإذا ضلّ الناس عن الدين الصحيح تصدعت في حياتهم عناصر العلم والمعرفة .

فقد يعجب الإنسان بعقله وتجربته ويظن ان ذلك كافيه دليلا الى حقائق الوجود ومرشداً لنهج الحياة الأوفق . ولكن العقل وحده محدود منقوص تقصره حجب الغيب وتعتريه آفات الخطأ والاضطراب . فربما تتجلى للإنسان مظاهر الكون فيحتبس عليها عقله غافلا عن آياتها غير نافذ إلى غيب الوجود، فيعمى عن ربه ويكون ظاهر الدنيا مبلغ علمه وهمه ، أو يتصور الغيب فيقدر فيه بالظن تقديرات باطلة من قبل الخرافات والأوهام — كبعض الذي يضع الفلاسفة في شأن الله وفيما وراء الطبيعة . وقد يرى الإنسان فضل قدره على الطبيعة فيغره بنفسه الغرور ويتعبد لهواه ويظن ان تسخيره الطبيعة ونيل متاعها هو مغزى الحياة كله ، أو يرى وحدة عناصر الخلق فلا يحسب نفسه إلا شيئاً من الاشياء يفنى بالموت ولا ينبعث منه إلا عناصره الأولية في شكل آخر من صور الحياة . فالعقل وحده لا يؤتمن معلماً ولا يؤسس لدى الإنسان قناعة مطلقة تحكم ارادته وتضبط حياته .

وقد يطاوع الإنسان دواعي بصيرته وفطرته المتدينة ، ولكنه اذا اقتصر عليها بلا ضابط من عقل أو هاد من رسول كالمتلمس طريقه في الظلام لا يعلم قبلته الا على وجه التحسس والتحدس . فربما يؤمن بإله يتوهمـه منبثاً في الطبيعة أو ماثلا في بعض مظاهرها أو شاخصا في بعض الخلق ، أو يؤمن بالبعث فيظن الأرواح تتناسخ متجددة في الاشخاص والأحياء المتعاقبين كما تتجدد العناصر الجسدية ، او يؤمن بالرجوع الى الله ثم لا يعلم لذلك مغزى





يتصل بالابتلاء والتكليف والحساب ، أو يستجيب لداعية خفية فإذا هو في الحقيقة داعي الهوى والشيطان الذي يغويه ويبعده عن الله . وكثيراً ما ضل الذين يلتمسون الحقيقة إلهاماً ومكاشفة ويسقطون الشريعة أو يعطلون العقل .

وقد يصدّق المرءُ الرسل ويعزم على اتباع هداهم ، لكنه إذا لم يعمل عقله ليتفهم الدين لم تتم له طأنينة اليقين ، وإذا لم يتحر بفكره وجوه واقعـه ليحسن تطبيق أحكام الدين ربمـا وقع في الفتنة والضلال من حيث يظن أنه على الهدى ، وإذا لم يمارس عبادة الله بإخلاص لم يتصل ما صدّق فيه الرسل من الدين بما يعهده منه في فطرته الفائرة ولم يضرب الإيمان في أعماق نفسه بل يظل ضعيفاً بلا قرار .

أما في رحاب الحياة التي يوحدها الدين الصحيح فتأتلف المعارف العقلية والنفسية والنقلية ولا تختلف ، وتتناصر كل شعاب العلم لتشد الإنسان بسبب وثيق إلى ربه وتهديه إلى طريق عبادته ببيان واف دقيق ، وتجتمع عليه منها دواع قوية للسعي إلى الله . وأما حيث ينحسر الدين عن مداه الشامل فإن علوم العقل تعتزل بمجالها المخصوص مستغنية عن علم الدين ومنطوية على روح مناقضة لحقه يختصم الإيمان بهـا من الإيمان به ، وتنزوي علوم الدين في ناحيتها تتغذى بالنقول المقدسة التي لا تجعل للعقل مجالاً حتى في صحة سندها التاريخي إلى أصولها المزعومة ، ويقوم في نحو ثالث أولئك الذين يلتمسون الحقيقة حسا من دون العلم المعقول والدين المنقول يتوخونها في غرائب العقائد وفي الأخيلة والأوهام الشاطحة .

فالعقيدة الدينية معرفة موحـدة الأصول تهتدي بكتاب مفصل من الله وتقع على النفس موقعاً مطمئناً لأنها تجاوب اتجاه الفطرة الفائر تحت سطوح الوعي وتتمكن من العقل لأنهـا تصور موحد متسق تقربه خواطر الفكر .

• • •

ورأس العقيدة توحيد الله . وأول تعاليم الدين في وحدانية الله تنزيه ذاته تعالى عن الأشباه والنظائر والإيمان به قائماً بذاته لا يحتويه شيء ولا ظرف ، فمن الشرك في ذات الله تصوره منبثاً في الطبيعة المحسوسة أو ماثلاً في بعض مظاهرها وأشيائها وتشخيصه في بشر أو صنم . ثم من التوحيد تقديس أسمائه الحسنى ، فمن الشرك في صفاته أن ينسب إلى مثل خلق البشر او ان يُضفي على بعضهم شيء من كمال الصفات التي تفرد بها فيزعم لهم البقاء الخالد او العلم المحيط او التعالي عن الخطأ أو عن سائر النقائص البشرية . ويلزم من التوحيد أيضاً أن تردّ إلى الله وحده جملة الأقدار التي تحكم هذا الوجود الحادث ، فمن الشرك في أفعاله تعالى أن يُدّعى لأحد من دونه قدرة مطلقة على الإماتة والإحياء او النفع والإضرار او قوة لمغالبة أقدار الله ورد قضائه، وإنما إرادة البشر وحيلتهم بقدر من الله — لا تنفذ إلا إذا واتت قدره وصادفت قضاءه . وينبني على ما تقدم وجه آخر من وجوه التوحيد . وهو التوجه إليه وحده بالعبادة والدعاء والطاعة فيما أنزل من أوامر التكليف ، فمن الشرك بهذا المعنى أن يجعل الانسان حظاً من عبادته وضراعته لغير الله او يتبع هواه او يحتكم إلى أمر بشر ويرضاه في معصية الله ، فذلك كله طاغوت باطل .

• • •

والوحدة أيضاً معنى تقتضيه العقيدة في شأن الانسان . ومن وجوه ذلك المعنى دخول الانسان في نسق واحد مع سائر الكائنات . فهو من حيث الوجود بعض الخلائق التي أبدعها الله ، ومن حيث العنصر بعض أشياء الكون من دخانه ومائه وترابه يحيا كما تحيا دوابه وينمو كما ينمو نباته ، ولئن كانت الاشياء محكومة بأقدار الله تسجد له كرها لا خيار فيه بينما اختص هو في بعض أمره بقدر من حرية الارادة — فإنما تلك مرحلة حياة دنيا يبتلى فيها ماذا يفعل بحريته — أيقبل بها محتكماً إلى ربه أم يدبر ويتولى . وإنما شرع





الله الدين المنزل أمر تكليف طوعي يدخل به الانسان إن شاء في نظم الوجود الساجد لله : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس و كثير حق عليه العذاب ... » ( الحج ١٨ ) . فالدين دعوة للإنسان فيما خُيّر فيه ألا يخترم من نظام العبادة لله بل يندرج في نسق واحد مع سائر المخلوقات العابدة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ». ( الذاريات ٦٥)

وحيثما حقق الانسان هذا الاتحاد في العبودية ضمن الفلاح في شأنه مع الكون . ذلك انه مستخلف في الأرض سُخرت له الطبيعة ليتخذ منها متاعاً في دنياه ويجعل متاعه مادة لعبادة الله وسبباً لشكره ، وهو باتباع أحكام الدين إنما يهتدي في شأنه معها إلى أوفق نهج لأنه يعالجها برشد من ذات الخالق العليم الذي سواها وسن أحكامها اللازمة . فبالعبادة تتطابق وجهة كدح الانسان مع قوى الكون — حيث تتوافق أوامر الله الشرعية وأوامره الطبيعية . وبهذا التوفيق يتسنى للانسان ان يأخذ طبيعة الأرض والسماء مأخذاً مناسباً ويتمكن من ناصيتها ليستنبط منها طيباته .

وربما هُيء للانسان بما أوتي من العلم والعقل — سواء آمن او كفر — ان يدرك من نفسه طرفاً من سنن الطبيعة وان يهتدي من ذلك إلى بعض وجوه استغلالها ، ولكن للاتحاد مع الكون — عبادة وسجوداً — مغزى أجل من كل فلاح يرجوه الانسان في دنياه . فمن تعاليم الدين ان وراء الحياة الحاضرة الفانية آجلة خالدة وان المؤمن كما يراعي وحدة العبودية مع الكون ينبغي ان يراعي وحدة حياته بطوليها وانبناء آخرها على أولها ، وان الفرق المائز بين من يحفظ وحدة العبودية ومن يفسق عنها إنما يظهر بالنظر الى وحدة الحياة — اي ان العابد والكافر إنما يمتازان حقاً من حيث العاقبة في دار الخلود — لا يستوي هنالك من راعى مقتضى الدخول مع الكون في عبادة الله ومن ابى ان يتم هذه الوحدة الواجبة .

وإنما عاقبة الانسان في الآخرة بمثل ما يقدم جزاء وفاقا . فإذا كان يوم الدين قام الناس لربهم خشعاً طائعين ، تنفذ عليهم أحكامه ، ولا حرية بعد ولا ابتلاء ولا يملك أحد من أمره شيئاً . أما الذين كانوا فيما حولهم من الدنيا في وحدة ووئام يوفقهم إليه القنوت الطوعي لله فأولئك يدخلون دار الخلود مدخلاً كريماً ـ يلقون أنفسهم مع أحوالها في وفاق ووئام ، فيما سالموا حكم الله ورجوا لقاءه في الأيام السالفة هم ذلك اليوم في كنف الله في سلام ونعيم مقيم . وأما الذين شاقوا الله في الدنيا وضلوا عن سبيله ولم يتهيؤوا للقائه فإن مصيرهم إلى معاسرة وتنغيص يوم المرجع إليه ، وكما شذوا من قبل عن سائر الوجود المشهود لا يكتنفهم عالم الغيب إلا بالمشاكسة والشقاق ولا يقع عليهم إلا بالشقاء الخالد : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا . » ( الإسراء ٧٢ ) .

ففلاح الإنسان أن يراعي وحدة شأنه مع سائر خلق الله ووحدة حياته في مرحلتيها العاجلة والآجلة وأن يلتزم من أجل ذلك عبادة الله الواحد ويقيم وجهه للدين حنيفا عن كل شرك أو إلحاد .

• • •

وتتبدى وحدة العقيدة الدينية في تعلقها الشامل بكل الوجود ـ غيبه ومشهوده ـ وفي تناظم معانيها وتوازنها ، وفي ثبات حقائقها الأزلية .

أما شمولها فذلك أن الإيمان تصور شامل يجعل الخلق والأمر كله لله جل شأنه . ما من كائن إلا كان أصل وجوده وقيامه ومغزاه له وبه تعالى ـ الملائكة كائنات من خلق الله مستغرقة في عبادته ، والجن بعض خلقه تعالى منهم المسلمون ومنهم القاسطون ، والموجودات المشهودة ـ جمادات وأحياء ـ مخلوقات ساجدة لأمره طوعاً وكرها ، وسميات الغيب كلها كائنة بخلق الله وأمره ، وأقدار الوجود وأحداثه ترجع كلها إليه ـ سواء من القدر ما كان سنة معتادة وما خرق العادة المألوفة ، ومن القضاء ما وقع موقع الخير او





الشر ، لا ثنائية ولا تعدد في أصل الوجود ولا في معناه مهما تباينت وقائعه وتقابلت قيمه في ظاهر الاعتبار . ويسرى هذا التصور الشامل في شأن الإنسان ـ أصل حياته وتأويلها . فبالعقيدة الدينية تتحد مراحل حياته طولاً ليرجو من أولاه لقاء الله في آخرته ، وتتحد أغراض حياته عرضاً لتندمج في غرض العبادة المحررة لوجهه تعالى .

وليس لاعتقاد بشري وضعي في أمر الكون والحياة أن يتحلى بالشمول في تعلقاته النظرية وفي مقتضياته العملية كما هو شأن تقريرات الدين الاعتقادية ـ لأن البشر ما هم إلا بعض هذا الكون وما حاضر حياتهم التي يعونها إلا بعض مراحل وجودهم الكلي ، فليس لهم أن يحيطوا بالكل الذي يحتويهم ، وإنما غاية علمهم أن يتعرفوا جانباً مما يليهم من واقع ويترقوا بالتجربة والتأمل لاستكمال المعرفة ، على أنهم مهما بلغوا عاجزون عن تجاوز العالم المشهود والإلمام بتصور للوجود شامل يهديهم إلى تفسير كلي لمغزى الحياة ، وذلك حتى يسعفهم الدين بتعاليمه الاعتقادية الشاملة .

وكما تبدو وحدة معاني العقيدة في شمولها ، تبدو أيضاً في اتصالها واتساقها . فكل معلوم يشمله التصور الإيماني للوجود موصول بغيره في نسق محكم ـ الكون قاطبة مشدود إلى الله بصلة المخلوقية والعبودية ، والكائن البشري موصول إلى كل خلق من خلائق الله العابدة في عالم الغيب والشهادة . فالملائكة إنما يتولون تنفيذ أمر الله في شأن البشر ـ سجدوا لأبيهم أول العهد ، وسعوا بينهم من بعد يبلغون رسالات الله ويثبتون مؤمنهم ويحيطون كافرهم ثم يقومون عليهم يوم الجزاء الأكبر يزفون أهل الجنة إليها بالبشر والترحاب ويسوقون المجرمين إلى جهنم زجراً ودحورا . والجن منهم مؤمن ينهل مما أوتي أئمة الهدى من البشر وشيطان يتعهد ابن آدم بالإغواء ليرافقه في الجحيم . والكون المشهود مسخر لحياة الانسان ومهيأ لابتلائه ـ آياته مجاز للانسان إلى الله وأشياؤه مادة لقضاء حاجات الحياة ولعبادة الرب في ذات الوقت .

وأوضاع الانسان في تقدير الايمان متسقة متوازنة . فهو محاط بأقدار الله تكتنفه المشيئة الربانية فلا يخرج من نطاقها ، لكن له فيها مجال اختيار مسئول بما أودع الله فيه من حرية إذ نفخ فيه من روحه ـ فلا الأقدار المحيطة تقتضي أنه مسير مقهور في كل شأنه ، ولا حريته تعني أنه مطلق المشيئة محرر من عبودية الله كلها ، بل هو في بعض شأنه مسير وفي بعضه مخير وهو فيما خُيِّر فيه مدعو لأن يوافق حكم العبودية لله . وعلم الانسان موحد المصادر فالحس والعقل فيما هو مشهود والبصيرة والوحي فيما هو مغيب تتحد كلها وتتناصر في رحاب الايمان ـ لا يستبد الانسان بعقله عن وحي يعلمه مغيبات الأشياء ولا يستغني بالوحي عن معالجة الكون الظاهر بنظره وتأمله ، بل العلم بعضه من بعض ـ يدعو الوحي لإعمال العقل ويؤيد العقل مقررات الدين الموحاة وتتوجه أسباب العلم كلها نحو معرفة الله وتسخر لعبادته . والانسان وأخوه الانسان في توازن وتكامل ـ كل فرد بما وهبه الله وما قدر له مستميز يحتمل تكليفه الديني ويتعرض لحسابه لا يضيع له أجر ولا يتحول عنه وزر ، لكنه رفيق درب لكل بني آدم وولي للمؤمنين بينهم وبينه عقد يؤسس على المساواة ويقتضي التعاون على التعايش والتناصح في سبيل الله . وأول حياة الانسان وآخرها مرحلتان موصولتان متلازمتان ـ صلاح الأولى شرط في صلاح الثانية وسعدها بشرى تتحقق بين يدي سعدها ، وعلى المؤمن ان يكثف حياته الدنيا لتعمر بالعبادة فيتذوق طرفا من مقدم النعيم الذي ينتظره في الآخرة خيراً وأبقى ، فهو لا يتحاشى الدنيا لأنه يأخذ منها نصيبه للآخرة ولا يدبر عن الآخرة حذراً من عاقبة سوء محتومة ومن عاجل شقاء ربما اجتناه في الدنيا .

ولا غنى للبشر عن أن يتداركهم الدين بهذه العقيدة المتوافقة المعاني التي يتقبلها الفكر ويطمئن إليها الخاطر لما فيها من وضوح ويسر ، ولا يحاول البشر بعقولهم القاصرة ان يؤلفوا تصوراً جامعاً للوجود والحياة إلا جاء ملفقاً من نقائض الآراء المتنافرة وتركيباً من رقع التصورات الجزئية التي يتخذها





المفكرون بنظرات محدودة يعتريها الخطأ والتردد وشطحات تأملية ليس لها بينة قطعية من الادراك الحسي ولا برهان تجمع عليه العقول او منطق يرتضيه ميزانها .

وتتحقق وحدة معاني العقيدة ـ من بعد الشمول والاعتدال في ثبات حقائقها . فالعقيدة هي أصول ثابتة ـ لأنها تقديرات لحقائق الوجود وعلاقاته الأزلية يُلقاها الانسان بوحي من ذات الله الذي خلق الوجود وأحاط به علماً وتبليغ من الرسول الأمين ، ثم لأنها تصورات للكينونة الأساسية للوجود وليست متعلقة بظاهر الكون التي يعتريها الزوال والتبدل . فربوبية الله حق أزلي ومخلوقية الكون وعبوديته لله حق مطلق ، وأصل الانسان وقدره كذلك ـ الابتلاء حق ، والدين حق ، واليوم الآخر حق ، والحساب حق . وعلى هدى من هذه المعلومات الثابتة تنضبط حياة المؤمن ويتصل سعيه مضطرداً لنحو واحد وتستقيم حياة المؤمنين الجماعية فيتوافق ولا تتشاقق .

وبينما تقوم عقائد الدين على أصول من الحق الثابت الذي لا يحول ، يتبدل الفكر الوضعي من طور إلى طور . ذلك ان الإنسان بحسور ادراكه البشري وقصور علمه عاجز عن الإحاطة بكل أبعاد الوجود ، بل ما ينفك علمه في اتساع او استضاقة بحكم تجاربه وظروف حياته ، وحينما تغيرت معلوماته تغيرت تصوراته المنبنية عليها ، وكثيراً ما يُزين له اعتقاده بحسبه عين الحق ورأس الحكمة ثم يأتي عليه زمان تنكشف وجوه باطله . فالخطأ والتبديل أمران لازمان في حق البشر ، ولا يكتب لآرائهم خلود ولا ثبات بل تموت كما تموت الأجساد . ثم إن الشهوات تلازم فكر الانسان فمذاهبه منطبعة بهواه . وربما تؤسس المذاهب البشرية على عقيدة تمكّن للظلم والطغيان فتجوز على الناس لزمن مّا حتى يصبح التطوير ضرورة ملحة لإقامة العدل والحرية ، او ربما يقيم الانسان على فلسفة للوجود والحياة تقتضي في نتائجها العملية توطيد القسط والبر ثم تنازعه شهواته إلى فكر جديد يلوي به نحو الجور والشر .

فعقائد الإنسان الوضعية طارئة لا تستقر على حال ، فإذا جمدت او حجر فيها التغيير احتملت بالضرورة جحوداً لمقتضى الحق او قصورا عما هو أصلح للحياة ، بيد أن العقائد والمذاهب في تطورها قد تتقدم نحو الحق والخير وقد تنتكس . وإنما يستقر أمر الانسان بالدين ـ ينعقد في نفسه علم يقين بحقائق الوجود الإزلية فيهتدي منها في حياته إلى نهج ثابت ليس بعده إلا الضلال .

• • •

وخلاصة القول ان معاني العقيدة تنبني كلها على الوحدة : أسباب المعرفة والاعتقاد موحدة تؤدي جميعاً إلى الله ، والرب رب واحد لا كفء له ولا شريك ، والكون أمره واحد أسبابه وأقداره ترجع الى خلق الله وسنته التي لا تتبدل ، والرسالات الدينية واحدة تتعاقب ولا تختلف تدعو الناس إلى دين واحد يوحد أمر البشرية الى أمر سائر الكون في الخضوع لحكم الله والى أمة واحدة لا يتفرق فيها بنو الإنسان . وتتجلى هذه الوحدة أيضاً في شمول معاني العقيدة واتساقها وثباتها ، وهي خصائص تميز حقائق العقيدة الربانية الموحاة عن سائر عقائد البشر الموضوعة .

## ٢ ـ أحكام الشريعة :

الإيمان عقيدة وشريعة ، فالعقيدة تصور موحد لأمر الكون والحياة يعرف به العبد رباً واحداً للعالمين فيتخذه إلها يرهن حياته لعبادته كما تتعبد له سائر العوالم ، ويوقن به العابد بحق المرجع إلى ربه فيهيىء دنياه بحيث يلقاه في الآخرة مرضياً مسعوداً . والشريعة هي النهج العملي الذي يصدق عقيدة الإيمان ويحقق معنى العبادة في واقع حياة المؤمن ، فهي طريقه الذي يسلكه إلى ربه لا يرتد عنه ولا يخالف إلى طريق غيره . فمن وحدة العقيدة تنشأ وحدة الشريعة لأنها السبيل القاصد الى الله اختطه رب العالمين لعباده فكل سبيل غيره جائر .



فأحكام الشريعة دستور لازم موحد لحياة المؤمن يوجب الطاعة لحكم الله ويقصرها عليه تحقيقاً لشهادة الاخلاص : لا إله إلا الله . وأيما جانب يتولى به المرء عن شريعة الله هو نقض لمقتضى ذلك التوحيد ، فلا يتم الدين إلا بالاعتصام بالشريعة والاحتكام إليها في كل شيء : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . » ( النور ٥١ ) . وكل تعضية لأحكام الشريعة او اخترام منها نكث لعهد الايمان وفسق عن الدين : « ... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون : » ( البقرة ٨٥ ) ، « وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ... » ( المائدة ٤٩ ) . وكل إضافة يتكلفها ليست من الشريعة هي بدعة مردودة : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ( البخاري ) . ومهما حاد المرء عن الشريعة او أفسد وحدة الالتزام بها فهو إنما يشرك بعبادة الله طاعة هواه ويقع من ثم في الضلال والظلم : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين . » ( القصص ٥٠ ) .

وإن كانت الشريعة واحدة لا تقبل التعديل والتبديل فذلك انها هدى كامل تشمل ببيانها كل أمر يختلف عليه البشر وفيه صلاح شأنهم فهي وافية مغنية لا حاجة بعدها لمستزيد ، وانها نظم متكامل لا يعتوره التخليط او التناقض فلا مكان في منطق أحكامها المتسق لعنصر ناشز غريب من ابتداع أهواء البشر ، وانها خطة ثابتة ابدا يعتنقها المرء على وجه القطع لا التجريب ويتخذها نهجاً دائماً لا تدبيراً موقوتاً لبعض مراحل حياته او ظروفها .

ولننظر في هذه الخصائص التي هي قوام الوحدة في أحكام الشريعة .

ـ **الشمول** : لا يكون التصور البشري للكون والحياة إلا جزئيا قاصراً ،

وإنما يبني الانسان شرعه العملي على تصوراته النظرية ، فما يضع من شرع إلا جاء جزئياً يعالج جانباً مّا من جوانب الحيـاة بوجه مّا من وجوه المعالجة . فالشرع الوضعي ينشأ في بيئة معينة مطبوعاً بظروفها الراهنة — سواء كان شتيتاً من التدابير والتقاليد تواضع عليها الناس عفواً او نظماً مرتباً من الأحكام اقترحه بعض أهل الفكر او اشترعه أولو الأمر لتوجيه الحياة . فقد يتجه الانسان الى رغائب معينة في الحياة انفعالاً بعامل نفسي او ثقافي مخصوص ، او مراعاة لشدة الافتقار إليها او لتساهل منالها ، أو تأثراً بأي ظرف طارىء او حال راهن . وقد تلوح له وسائل معينة لتحقيق مقاصده بقـدر سعة علومه وتجاربه في تنظيم الجهد البشري واستنباط الطيبات من الطبيعة وبما ترجحه لديه قيمه ومعتقداته المعاصرة .

فالسمة اللازمة للشرائع الوضعية أنهـا قاصرة الغايات قاصرة الوسائل لا تهدف إلا لإصلاح جزئي معين بطريقة محدودة . فقد يشغل المجتمع البشري حيناً من الدهر بمشاكل السياسة فيتخذ مذهباً سياسياً ويترك سائر حياته سدى ، وإما كان أكبر همه حينئذ ان تشيع الحرية والشورى لينحل جبروت الحكام وجمود الأوضاع ، او كان أعنى بالنظام والحزم لتأمين الحياة من شرور الفوضى او لمجابهة أزمـة عصيبة تستدعي تركيز الجهود . وقد تتخذ حركة الاصلاح سبيل الحسنى والتدريج ، او تدعـوها ضراوة الفساد وشدته الى الثورة التي تقلب الاوضاع قلباً بلا هوادة . وقد يهتم المجتمع بشئون اقتصاده فيسعى لتحقيق العدالة في فرص الكسب وفي توزيع الثروة مسوياً بين الناس راداً المال من حظيهم الى المحروم ، او تكون حاجته للنهضة بأقدار ثروته فيذهب في مكافأة الجهود الفردية ودفع الحوافز الخاصة مذهباً يؤدي الى اتساع الفوارق بين الناس . وربمـا راق له ان يفسح المجال للأفراد فيتيح حيازة الأموال في سعة ويكفل الحرية للمبادرة الفردية في الإنتاج والاتجار والمتاع ، او ان يشجع النظام والتعاون والمشاركة على أساس التراضي ، او ان يتخذ خطة لنظام اقتصاده تنفذ طوعاً او كرهاً ، او ان يجعل أغلب المال ملكاً





جماعياً يرعاه أولياء الأمور بمقتضى المصلحة العامة ويعمل عليه الأفراد مأجورين . وقد يلوح للمجتمع غرض آخر من أغراض الحياة الدنيا يكون شغله الشاغل . او قد يسوده مذهب روحي ينصرف إلى إعمار الوجود الروحي وتزكية النفس ويدعو لازدهاد أغراض الدنيا تبريراً لواقع لا يجد فيه المرء ما يفي بغرضه او ارتداداً عن حال من الترف البهيمي . او ربما يتجه الاعتقاد الديني إلى تحقيق مقصد دنيوي تعبئة للطاقات الروحية في سبيله .

والناس حينما ذهبوا يلتهون بمذهبهم كأنما الحياة كلها قد جمعت فيـه ، ويحسبونه خطة ثابتة تعالج كل أغراض الحياة . وما هو في واقع الأمر إلا تعلق بغرض جزئي راهن ما يقضي الناس منه وطراً إلا تحول همهم إلى حاجات أخر كانت مغمورة ، وخطة عملية تعينت في ظروف خاصة وما تلبث غِيَر الظروف أن تهيىء وسائل جديدة لم تكن ميسورة .

• • •

وإذا كانت الجزئية طبيعة لازمة في المذاهب الموضوعة بفعل البشر فإن الشمول هو الصفة التي لا تنفك عن الدين عقيدةً وشريعة . ولو جاز أن يقايس شرع الله إلى وضع البشر في شيء ، فإن الشرع يمتاز بأنه نهج كامل شامل يعالج شئون الحياة كافة — لأنه تنزيل من الحي القيوم الذي لا يشغله شأن عن شأن والذي يعلم طبيعة البشر وحالهم فيحصي ما بين أيديهم وما خلفهم من الحاجات ويحيط بأوفق الوجوه لتحقيق الخير في كل زمان ومكان .

ولا غرو ان كان شرع الله الذي حواه كتابه وبيّنه رسوله ﷺ هدياً جامعاً يفصل كل قضية ويبين كل شيء : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . » ( النحل ٨٩ ) . ولو استقرأ المرء آيات الكتاب العزيز وقف منها على بيان لكل شأن في الحياة يصلح الدنيا بما تصلح بـه الآخرة — ما يعني الفرد في خاصة أمرة وفي علاقاته ، وما يعم

الجماعة مما يتصل بالسياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع او ينظم علاقاتها مع سائر البشر .

ولعل آيات معدودات من كتاب الله تكفي دليلاً على هذا الشمول : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . » (الشورى ٣٦ – ٣٩ ) . فقد أحصت الآيات صفات المؤمنين الذين يأخذون بمتاع الدنيا راجين من ورائه ما هو خير وأخلد من نعيم الآخرة . وبنت الأوصاف على قاعدة من الإيمان المؤكد بصفة الواقع القطع : «... للذين آمنوا... » . ثم ترادفت الأوصاف تحكي حال التوكل الناتج عن إيمان المؤمنين بحق الوجهة التي ينهضون إليها وثقتهم في توفيق الله ، ثم تبين من خلق المؤمنين ونظام علاقاتهم أنهم لا تستخفهم دواعي الهوى والشهوة والغضب لأنهم بإيمانهم يتقون الله . ويتورعون من حسابه . وتقضي الأوصاف – بعد أن قررت مقتضيات العقيدة المباشرة – لتشهد للمؤمنين بأنهم يستجيبون لأمر الله ويطيعون شريعته . ورأس الطاعات المشروعة هي الصلاة – ذكر الله الأكبر وأم العبادات الخالصة ، يتلوها الإنفاق – لئلا تتكدس الثروة ويذهب بها بعض المؤمنين دون إخوانهم ، ثم الشورى – لئلا تتركز السلطة ويستبد بها الولاة دون الرعية أو الأقوياء دون الضعفاء . وتعطف الآيات وما يليها على موقف الجماعة المؤمنة من سائر الجماعات ، فتجعله موقف سلم وقوة – لا يعتدي المؤمنون لكنهم ينتصرون إذا بغى عليهم عاد أو يؤثرون العفو الجميل . فهذه آيات قلائل جامعات تضمنت ذكراً من عقيدة الإيمان وشعابها العملية ومن معاني الطاعة والعبادة لله ومن مبادىء الحكم والاقتصاد والسياسة الخارجية .

• • •





ولا عجب ان كانت الحياة التي ابتناها المسلمون على هدى من هذا الدين الشامل حياة ثرية من كل وجه . فقد حوى نتاجهم الفكري فقها واسعاً في مسائل العقيدة والعبادة والأخلاق ، وبحوثاً وافية في شئون الأسرة والاجتماع وفي أمور الحكم والسياسة الشرعية والمال والمعاملات وفي علاقات السلم والحرب وعلوم الإنسان والطبيعة . وفي سجل الحياة التي مارسوها أنماط متنوعة لسير الأفراد – من العباد الذين ضربوا الأمثال في الورع والتجرد ، والعلماء الذين بلغوا شأواً بعيداً في علوم الشرع والكون ، والعاملين المجاهدين بالأنفس والأموال والكلم من أجل الخير والإصلاح . وفيها نماذج رائعة لحكم الشورى وعدالة الحكام ويقظة الرعية ، ولنهضة الأحوال الاقتصادية وتوافر العدالة الاجتماعية وكفاية حاجات المحرومين ، ولعمران العلاقات الاجتماعية بالتواد والتراحم والأمن ، وللجهاد الصادق لدفع غوائل الإمبراطوريات التوسعية ولنشر دعوة الإسلام وبسط عدالته على وجه الأرض .

ولئن كان في تاريخ المسلمين صفحات غير مشرقة قصروا فيها عما يأمرهم به الدين في مختلف نواحي الحياة فإن تقصيرهم الأكبر أن تصور كثير منهم أن الدين ذاته قد أصبح قاصراً . وقد أصابهم ما أصاب كل ملة نسيت أصول دينها فانتقضت فيها عراه واحدة تلو الأخرى حتى اقتصر في العقيدة على التصديق بسمعيات الوحي وفي الشريعة على العبادات المسنونة . وأول أحكام الشرع الديني التي يخترمها التغيير هي أحكام ولاية الأمر العام ، ثم السياسة الشرعية التي يوكل نفاذها لولاة الأمور ، ثم الواجبات الكفائية والمعاملات العامة . ذلك أن أصحاب القوة السياسية والمالية عرضة لفتنة شديدة ، وما يضعف مستوى التدين إلا كانوا هم أول الفاسقين عن أمر الله محتجين بأن للدين شأناً وللحكم والاقتصاد شأناً آخر ، وهي حجة قديمة : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحكيم الرشيد » ، ( هود ٨٧ ) . ثم إن الشئون العامة يقررها الدين في مبادىء عامة تستدعي اجتهاد الفقهاء لتفصيل أحكامها ، فإذا تخلف ذلك

الاجتهاد وجد القائمون عليها أنفسهم في ضلال يخبطون كما يزين لهم هواهم او تدعوهم الحاجات العامة . والنظام العـــام للجماعة عرض كذلك للانهيار إذا اجتاحها عدو فغلب عليها ، بينما ينجو الناس بعقائدهم وعباداتهم ويعض كل منهم على خاصة دينه . والناس دائماً أشد تذكراً لواجباتهم العينية في الدين منهم للواجبات الكفائية — لا سيما ان هذه ربمـا تشق على الانسان وتعرضه للأذى وتكلفه التكاليف. وقد يبلغ الجهل بالمسلمين أحياناً ان يبدلوا ألزم معاني الوحدة في الدين فيشركوا في عبادة الله بعد الاشراك في حكمه . ولكن العلة التي توطنت في العالم الاسلامي اليوم واستعصى علاجها إنما هي الردة السياسية التي أخرجت شئون الحـكم والحياة العامة من الدين واخترمت بذلك من المضمون المطلق لكلمة التوحيد ولمعنى الاسلام لله ولوحدة الشريعة .

**الاتساق :** لقـــد رأينا كيف تنشأ الشرائع الوضعية لتجاوب الظروف الراهنة وفاء بالحاجات الطارئة فيها ووفاقاً للوسائل المتاحة . وقد يسود في زمن مّا مذهب جامع يعالج كثيرا من شئون الحياة ، ولكن تبدل الأحوال ينسخ من جدوى أهدافه وفاعلية وسائله فيُطّرح منه ما انتسخ ليقوم مكانه مذهب يوائم الظروف الجديدة وتبقى بقاياه حتى تدركها دورة التغيير . وقد يفشو مذهب قاصر المدى يتجه إلى مقاصد محدودة هي الهم الأكبر للناس في ظل واقع معين ، ثم تحول الظروف ويتحول الناس إلى أهداف أخر يتجهون نحوها بمواقفهم ونظام حياتهم .

ويحصل للمجتمع عـــبر تجاربه التاريخية ومن نقوله من تجارب الآخرين أخلاط من المناهج العملية تتقسم حياته كيفما اتفق ، وربما تتعارض معازيها وتختلف مقتضياتها فيتشقق بها أمر الفرد والمجتمع ، فيتخذ الناس — مثلا — نهجاً في حياتهم الخاصة لا يوائم ما ينهجون في حياتهم العامة ، او يكون مذهبهم في شئون الاقتصاد يفضي إلى تركيز قوة المال بينما يحاولون في علاقات الحـكم بسط القوة السياسية والحد من تكثيف السلطان . وربما تتطابق في





المجتمع اتجاهات الى النهضة والحرية على أثارة من أوضاع تدعو إلى الاستقرار والنظام . وقد يتفرق الناس كل فرقة تميل الى موقف ومسلك ، وتشتجر المناحي المختلفة متمثلة في اصطراع حزبي أو طائفي او في مناوأة بين الأجيال حديثها وقديمها او بين الرعاة والرعية . وينشأ عن تضارب المنازع في الجماعة الواحدة خسران عظيم — اذ تتناقص جهودها وينال بعضها من بعض ويفشو فيها الشقاق والاضطراب .

وهذا الترقيع الذي يلازم كل نظام للحياة مؤسس على أهواء البشر إنمـا ينتج عن الطبيعة الجزئية التي تتسم بها المذاهب الوضعية ، وقد شاع في حاضر المجتمعات البشرية — لا سيما اذا تجاوزت إطار العصبية الفطرية — ان تدعي الانتماء إلى مذهب واحد تتخذه شعاراً يرمز لنهج حياتها وتفاخر به اهل المذاهب الأخرى . لكن مهما تكن هذه المزاعم المذهبية المطلقة فإن الواقع الاجتماعي في أغلب الأحـوال يتضمن ركاما من التقاليد الموروثة والمنقولة . فالناس يتحدثون تجوزاً عن المجتمعات الاشتراكية أو الرأسمالية أو الديمقراطية إلى آخر الأسماء ، ولكنها جميعاً مذاهب جزئية تعنى بشأن واحد وتترك من حياة المجتمع مجالاً واسعاً لشتى المواقف .

• • •

أما الدين الحق فإنه كله منظومة واحدة من التعاليم يشمل الوجود والحياة بعقيدة كلية تنبثق عنها مبادىء الشريعة وأحكامها الفرعية فتعم الحياة بمنطق عملي واحد . وقد يشترع الدين لكل جانب من الحيـاة طائفة من المبادىء والأحكام المخصوصة التي تناسب شئونه ، ولكن روح الدين العـامة ومعانيه الأساسية تسري في كل الأحكام لتشكل من جملة الحياة نظاماً موضوناً من التصور والسلوك يتجه كله إلى الله .

ولقد أوردنا آنفاً مثلاً لشمول الدين ممـا تعدده بعض جوامع الآي من صفات المؤمنين . ولعل نظرة عابرة في تكامل تلك الصفات وتلازمها تكفي

تمثيلاً لاتساق تعاليم الدين ووحدتها .( فالإيمان بالله هـو أس الدين من أصوله تستمد أسباب الاستقامة جميعاً . ولكن الايمان لا يتحقق الا اذا صدقه العمل، فإذا وقر حقاً في وجدان الأمة ظهرت آثاره وانبسطت شعابه في واقع الحياة. وأول تلك الآثار أنـه يفعم نفس المرء طمأنينة بالغاية التي يتخذها في حياته وثقة في الطريق الذي يسلكه إليها فيشحنه لذلك بدوافع العمل والجهاد ، وذلك هو معنى التوكل او اليقين بأن الله هـو الحق المبين وأن هديه مفتاح الفوز العظيم في الدنيا والآخرة . ولكن التقدم في سبيل الله يقتضي الالتزام بحدوده ومقاومة الدوافع الفطرية الأخرى التي تجنح بالانسان كنزعات الشح والشهوة والغضب ، ولا ينضبط الانسان عند حدود الله ويتقي محارمه الا اذا قوي إيمانه فعظم توقيره لربه وتقديره لحسابه يوم القيامة). وإذا صح عزم المرء وخلصت نيته في التوجه الى الله فإن في أحكام الشريعة لدليلا له الى معالم الصراط المستقيم - كل حكم منها دعوة من الله تستحث المؤمن أن يستجيب . وألزم جوانب الهدى الشرعي هي العبادات المخصوصة التي وضعت لذكر الله وتغذية الإيمان . وأم تلك العبادات (الصلاة التي يقدم فيها المؤمن زكاة حياته بما يقتطع من عمره من أوقات معلومة يستخلصها لله مطوعا له الجسد بالقيام والركوع والسجود ، والتي تنطوي على تربية فردية واجتماعية - اذ هي موقف يختص به المؤمن بين يدى ربه يناجيه بما في نفسه من توجه وثناء وضراعة واستغفار ويرهن له الجوارح بالخضوع ، ولكنها في الجماعة تربي المؤمن أيضاً على مشاركة المسلمين والتضامن معهم في صف واحـد على نظام محكم يتقدمهم إمام يتبعونه ما اتبع سنة الصلاة فإذا أخطأ ذكروه ونصحوه . فلا عجب ان تلاها في الآيات ذكر الحيـاة العـامة - او « الأمر » في اصطلاح القرآن لأن أمر المؤمنين يقوم أيضاً على الشورى والمناصحة بين جماعة متضامنة يقوم عليها إمام واجبة طاعته ما أطاع دستور الشرع واجب نصحه اذا وقع منه النسيان أو العصيان - جماعة يندرج الفرد في صفها ونظامها بينما يستشعر حريته ومسئوليته العينية ويختص باجتهاده ليشارك بشرك مستميز في الأمر





العام تتحقق به حكمة الشورى . ثم تردف الآيات بذكر السمة العامة للنظام الاقتصادي الذي يقوم أيضاً على (مبدأ اشتراك العباد على الثروة وعلى أن المال مثـل الحكم ملك لله يوكله الى الذين اكتسبوه أمانة موقوتة مشروطة كما يستخلف الأمم على حكم الأرض ، فواجب المستخلفين في المال أن يرعوا فيه شرط الله ويردوا فضله إلى المحروم فتلك زكاة المال - مثلما ان الصلاة زكاة العمر . وعلى نحو ما هو في العبادة والسياسة فإن للفرد من حيث المبدأ حق الكسب والاختصاص بالمـال ، ثم ان عليه ان يشارك بنصيب حق تضمن مصالح الجماعة ويكفل لكل أحـد حق المعاش . وشأن المؤمنين ان يكون أغلب اشتراكهم انفاقاً طوعياً - كما يجتمعون على صلاة الجماعـة وعلى تقرير أمورهم العامة ، فمن شذ وخرج عن الجماعة في شيء من ذلك فلها ان ترده حتى يفي بواجباته الاجتماعية الدنيا . وهكذا شأن الإيمان كله - لا ينشأ إلا عن رضى ولا يخص إلا الفرد لأول الأمر ، ولكنه بيعة تستلزم تبعات معينـة ، وهو أيضاً عهد انتماء وولاء لجماعة المؤمنين يستصحب حقوقاً للجماعة يكلفها كل مؤمن). ولا يذوّب المؤمن بإيمانه في كتلة صماء ، بـل يفرز له نصيب مخصوص يحاسب عليه فرداً يوم يقوم الناس لرب العالمين . ولا غرو ان تكون علاقات المؤمنين مع غيرهم قائمة على التراضي لا عدوان فيها إلا على الظالمين ، فإن جنح الآخرون للسلم جنح إليها المؤمنون وكانوا أحق بهـا وأهلها لئلا تكون فتنة او إكراه في الدين وليظهر الحق بالمجادلة الحسنى .

فتعاليم الإسلام كلٌ متكامل يشد بعضه بعضا ونظم متناسق تتحد معانيه فلا ينتقص منه شيء إلا أخذ يتداعى سائره . فالإيمان من الدين هو القاعدة إذا اختلت انتقضت الأركان وإذا ثبتت استقام سائر الدين ، وأعمال المؤمن الفرعية - من جانبها - مدد يدعم أصول الإيمـان في النفس ، وبعض تلك الاعمال قـوة للأخرى -( فالصلاة تدعو للتوكل والصبر وتنهى عن الفحشاء والمنكر وهي في جماعة تعلم المؤمنين أن يشتركوا في الحيـاة بالتعاون وفي الثروة بالإنفاق وفي السلطان بالشورى ، ونظام الشورى تربية المؤمنين ترشدهم

لأن يقتسموا الرزق كما اقتسموا الحكم ويتشاطروا في كل خير الحياة وشرها ، وهكذا دواليك .. »

ولا مكان في الإسلام للظواهر التي سادت غالب المجتمعات الحاضرة ـ حيث يكون الحكم ديمقراطياً يجعل السلطان للجمهور ويعزل الدين عن الدولة ، بينما يقيم الناس في حياتهم الخاصة على دين يعلمهم أن السلطان كله لله ، ويسود في حياتهم الاقتصادية نظام رأسمالي يجعل للفرد حق الاستبداد بالمـــال ، أو يكون الاقتصاد اشتراكياً للناس فيه حق شائع في عائدات الثروة العامة ، بينما يكون الحـكم جبروتياً يركز السلطان في أيد قليلة ، أو يكون المجتمع في علاقاته الداخلية منفتحاً يعرف للانسان قدره من حيث هـو كذلك بينما يواجه سائر العالمين بعصبية قومية مقفلة . أو يكون الدين منبوذاً من الحياة العامة ، ثم يقيم الأفراد في خاصة أمرهم على ما عهدوا من دينهم وعبادتهم . أو يكون نظام الحياة العامة متجهاً كله الى النهضة والانعتاق يجعل المتعـــة فوق كل اعتبار ويطلق الحرية الجنسية من كل ضابط ، ثم يكون الدين داعياً إلى ان النجاء في الآخرة رهن بالإدبار عن متاع الحياة وأن الاستقامة في جمود علاقات الأسرة . لا مكان في الإسلام لهذه للصور الشائعة في حاضر العالم لأنها تصف مجتمعات ترقع مذاهبها ولا تهتدي الى خطة واحـدة ينتظم بهـا أمر الحياة جميعاً .

**الثبات** : المذاهب الوضعية ـ كما أسلفنا ـ وليدة الرأي البشري القاصر الذي تأسره الظروف الراهنة ، والرأي عرضة للخطأ ، والظروف قلـّب . فمقاصد الحياة التي يتوخاها الناس حيناً مّا يتقلص الاهتمام بهـا حينما يدركون الكفاية أو يبشمهم الإسراف او عندما يبدو بطلانها أو تتكشف لهم هموم جديدة لم تلجئهم إليها الأحوال من قبل او لم تكن مواتية لتطلبها . والوسائل التي يتخذها الناس لنيل أهدافهم تتبدل كذلك تبعاً لتقويمهم لغايات الحياة وللتكاليف التي تقتضيها وتتطور حسب مبلغهم من العـــلم بقوانين الطبيعة وقواها وبسنن السلوك البشري وأسباب تنظيمه .



وما دام الإنسان لا يكتب لرأيه ثبات ولا خلود فهو مع آرائه وشرائعه الوضعية بين أمرين : إما أن يتحرى الحكمة دائماً فيراها كل يوم في وجه ويظل يتقلب في مذاهبه تبعاً لمـا تدعو إليه تقلبات الرأي والظروف ، أو يؤثر الثبات على مواقفه الفكرية ومناهجه العملية فيجمد على ما يبــدو بطلانه ويتخلف عما يقتضيه تبدل الاحوال . وربما يتهيأ للانسان ان يدافع حاجة التغيير ردحاً من الزمن ، لكنه بذلك عرضة لان يجتاحه انقلاب عنيف يطيح بعهده القديم وينقله نقلة واحدة الى حيث يستدرك ما فاته بالجمود . ولا يدوم شرع بشري عبر التجارب والظروف المتجددة إلا ما يكون من المعاني المبهمة التي تكاد من عمومها أن تكون أسماء مجردة ليس لها مفعول واقعي إلا بما يتعاقب تحت عنوانها من المدلولات الحقيقية .

وإنمـا الشرع الأمثل ما يحتوي من بعض وجوهه معاني ثابتة تقربها نفس الانسان وتتوحد وجهته فيؤسس على هديها حيـــاة يستقيم سيرها ويضطرد تحصيلها ، وما يحتوي من وجوه أخرى معاني مرنة تتسع للظروف المختلفة فتتكيف مقتضياتها العملية بمـا يوافق أحوال كل زمان ومكان مـع ثبات حكـَمها ومقاصدها الأساسية . وما دام التطور أمراً لازماً في فكر البشر ووضعهم فإن شرط الثبات لا يتحقق الا في الشريعة الربانية ـ لأن أصلها من قيوم متعال لا ينفعل بتغيّر الظروف والأهواء وواسع عليم لا يغيب عنه حال ولا مآل ، فالله هو العلي القدوس الحكم العدل الوارث الباقي ، وشرعه هو الحق المطلق الثابت الذي لا ينتسخ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فما كان في الشريعة من المعاني القطعية المحكمة في نصوص الوحي والسنة المبينة فذلك هو الهدى المستقر الذي يصلح الانسان في كل زمان ومكان ، وهو التكليف البات الذي لايقبل التحريف ولا التبديل . ولكن في الشريعة الثابتة ما يفي بشرط المرانة وما يراعي الظروف العملية المتبدلة ـ فيها قواعد

واسعة يستنبط منها كل قرن من المؤمنين أحكاماً فرعية تمكنهم من تطبيقها بنحو ما تقتضيه الحكمة المقصودة وتتجه الظروف الراهنة ، وفيها أيضاً ماهو عفو متروك لشورى المسلمين يتخذون فيه من التدابير ما يجلب المصالح ويدرأ المفاسد حيناً بعد حين وفقاً لروح الدين ومعانيه ومقاصده العامة . فالشريعة – إذاً – أحكام قطعية بينة هي الحدود الثوابت للحياة الدينية ، وتوجيهات عامة مارنة هي المعالم التي يتحراها الاجتهاد الفقهي وتهتدي بها السياسة الشورية العملية لتحقيق مقتضى الدين في الواقع المتجدد وفي أحداثه المعينة .

ومن الامراض التي تصيب أهل الدين أن يختل عندهم هذا التوازن الدقيق بين عنصري الثبات والمرانة . وأصل تلك العلة أن ينشأ فقه الاجتهاد في جيل من المؤمنين فإذا أورثه جيل آخر اتخذوه تراثاً معظماً يتورعون عن النظر فيه نظراً ناقداً . فإذا كان الفقه الموروث ثرّ المعاني كثيف الفروع كان ذلك أدعى لان يستغنى به الخلف عن الاجتهاد الجديد . وهكذا ينضاف ما هو من وضع البشر إلى ما هو حكم الله توقيراً للسلف الذين وضعوه ومراعاة لتفرعه عن أصول الدين ، فيلتبس ما هو ثابت من الدين بما هو طارىء ويضيق من مبادىء الشريعة ما هو واسع ويتحجر ما فيه ملينة لموافقة أطوار الحياة . ويترتب على ذلك أن يتخلف الفقـــه عن حاجات العصر وفرصه المتاحة ويتمخض تطبيقه عن أوضاع جامدة توقع الناس في حرج شديد وتخالف بهم عن مقاصد الدين لأن مغزاها في الظروف الجديدة لم يعد يمثل تلك المقاصد .

وربما ينبري للمؤمنين من يجدد لهـــم أمر دينهم ويحررهم من أسر الفقه المتقادم ويقترح لهـــم اجتهاداً يناسب المكان والزمان ويحقق مقتضى الدين بالنسبة للواقع الحديث . فإذا لم يتهيأ لهم ذلك الاجتهاد المجدد الذي يواكب الأحوال المتطورة كان نظام حياتهم عرضة للانقلاب الشامل – تتوتر عراه وما تلبث أن تنبت تحت وطأة الضغوط القاهرة التي تولدها غِيَرُ الظروف فتنفجر دواعي التغيير دفعة واحدة بعد طول الانكباب والجمود ، ويجيء الانقلاب ردة عن الدين كله فيما يتصل بالشئون المتغيرة من الحياة . وذلك لأن





الاجتهاد المتخلف يختلط بأصول الشريعة الثابتة من حيث هـــو تفريع عنها وأنه يلتبس بها – كما قدمنا – عند الذين يورثونه نقلاً وتقليداً ، فإذا رأى هؤلاء أنه ما عاد يجديهم بعدُ ظنوا ذلك بسائر الشريعة ، وإذا اطـّرحوه عطّلوا معه الشريعة جملة واحدة .

ولهذه الظواهر مَثَل في قوانين المسيحية الكنسية التي أورثتها أوربا من القرون الوسطى فلمـــا تهيأت للصحو والنهضة ضاقت بجمود النظام الكنسي وتعويقه لأسباب التقدم فتمردت على سلطة الكنيسة بل ارتدت عن الدين كله . وما كانت كافرة بحقائق الدين ، ولكنها لم تجد بدا من الفسوق عن قوانين لا تقبل التجديد لان النصرانية لم تبق لهـا أصول يستند إليها الناس في مراجعة أحكام الكنيسة البالية . وقد اتبع المسلمون في هـــذا سنن النصارى ، فأصابتهم الردة في شئون الحياة العامة ولم يبق من الدين فيها إلا رسوم أو ما انحصر في مجال الاعتقاد والحياة الخاصة . سوى أن للمسلمين إن شاءوا أصولا محفوظة يمكنهم بالعلم والاجتهاد أن ينقحوها من رواسب التقاليد فيُثبتوا حقها القطعي الذي لا يحول ويضعوا فقها جديداً تفصيلاً لمجملاتها وقياساً على توجيهاتها ورأياً مرسلاً في عفوها المباح – حتى يبتنوا بالدين حياة حديثة يفون فيها بعهد الله أكمل وفاء ويسنوا في تاريخ حضارة الإنسان سنة ثابتة لا تضل عن نهجها ووجهتها ولكنها حية قابلة للنماء والتجديد .

• • •

## (ب) وحدة الحياة الدينية

الدين هـو مبادىء الاعتقاد وأحكام العمل التي يُعلمها الرسول للناس تبليغاً عن الله ، وهو بمعنى آخر انفعال الناس بتلك التعاليم كما يبدو في مواقفهم النظرية والعملية . ولما كان الدين واحداً في معانيه العقدية والشرعية فإن الحياة التى تنطبع به تتحلى بتلك الوحدة في كل مظهر من مظاهرها . ثم إن تلك الوحدة هي المرد الأعظم للخير الذي تفيض به الحياة الدينية .

وتتجلى وحدة الدين بوجوه كثيرة في الحياة : منها ما يتصل بوحـدة التوجه والمنهاج – إذ يوجه المؤمن وجهه لله وحده متخذا من لقائه غاية لحياته لا شرك فيها ومن عبادته مغزاها المجرد ومن شرعه دستورها الأوحد تنضبط به تماماً وتكاملا وتوافقاً . ومنها ما يتصل بالاعتصام بالله والتجرد عن كل ما يصرف المرء عن وجهه أو يحرفه عن سبيله – توكلا عليه وحده في كل شأن ومصابرة لمشقات الحياة ابتغاء وجهه . ومنها ما يتصل بوحدة البواعث التي تدفع المرء أو تمنعه في شتى المواقف والأعمال – إذ تندرج كلها في حب الله وشكره والرهباء منـه والرغباء إليـه وتؤدي إلى الصدق والإخلاص في الأعمال . ثم منها أخيراً ما يتصل بوحدة الوجود الاجتماعي – إذ يتحد شأن المؤمنين من حيث هم أفراد ومن حيث هم أعضاء في جماعة .

وسنأتي على تلك الوجوه المختلفة لوحدة الحياة الدينية – متأملين ما تثمره





الوحدة من خير وبركة تذكيراً بما سبق بيانه من ثمرات الإيمان في عرض موجز نخلص به إلى ختام هذا البحث .

### ١ – الوحدة في التوجه والمنهاج :

الدين هدى ونور يجمع حياة الإنسان في خطة واحدة لأنه ينير المشهود والمغيب من أبعادها ويوحد حاضرها وآجلها ويجلي منها هدفاً وطريقاً : « قل هـــذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . ( يوسف ١٠٨ ) . فإذا قامت أمام الإنسان قبلة ثابتة واستبانت له معالم سبيله ومواقع خطوه انطلق قدماً لا تقعد به حيرة ولا يأخذه تردد . ولا يتهيأ للإنسان بغـــير الإيمان الحق ذلك التوجه الثابت إلى غاية مستيقنة والسعي الهادف على شريعة واضحة . فكثير من المعتقدات الدينية ما ينصب للانسان غاية للسعي نحو لقاء الله، ثم لا تهديه إلى شريعة بيّنة تستقيم إلى ربه ، بل تذره متخبطاً بلا بصيرة . ومنها ما يضع للحياة نهجاً دقيقاً لكنه طريق منبت لا ينتهي إلى غاية ولا يقدم الانسان في أي وجهة . ولذلك مثـــل في المسيحية الحاضرة التي تبدو توجهاً إلى الله دون التزام بنهج في الحياة والعبادة معلوم ، وفي الديانات الشرقية التي تبدو التزاماً بغير هدف .

فالإنسان بغـــير خطة من الدين عرضة لأن يطبق عليه الضلال والعمه ، لا يهتدي إلى غاية ولا سبيل ، لا يفقه لحياته مغزى ولا يجـــد فيها باعثاً للانتهاض . وقد يحاول الناس بعلمهم أن يلموا بتصور شامل لأبعاد وجودهم فيتخذون الأهداف ويختطون المناهج لعلاج الحياة . ولكن اقتصار علم البشر وانحصار همتهم لا يمكنانهم أبداً من الإحاطة بعلم الوجود ، فتصوراتهم غـير شاملة يلازمها غبش كثير ، ومذاهبهم غير ثابتة يعتريها الإبهام والاضطراب – مما يوهن في نفوسهم دواعي الانطلاق ويحمل سعيهم هيناً متثاقلاً .

ثم إن أخذ الحياة بخطة وتدبير يستدعي كثيراً من المصابرة ويقتضي المرء أن يقدم الجهد ويستأني الغلة حتى يكافأ بمرجوع مبارك . ولكن الإنسان

بطبعه يستعجل الثمرات ويستبعد الفائدة الآجلة إذ تلح عليه الحاجة ويكلُّ عقله عن تقدير المستقبل المغيب : « خلق الإنسان من عجل ... » ( الانبياء ٣٧ ) . أما المؤمن فإنه من تصوره لمعاني النظام في الوجود وفي شأن الإنسان يؤمن بأن العمل السادر بلا هدف خاسر في الدنيا والآخرة ، وهو من علمه بمغزى الحياة واهتمامه بآجلتها يقدر حكمة التخطيط لها وتوجيه الظروف التي تعتريها بالوجه الذي يوفقه إلى مصير كريم . واذا كان الإنسان إنما يتقدم بقدر ما تتضح رؤياه ، ويبلغ جهيداه في السعي إذا اهتدى ببصيرة نافذة شاملة ـ فإن المؤمن يعلم قبلته وسبيله علماً دقيقاً يقيناً فيحركه الشوق إلى هدفه ويهديه علمه بالطريق فيمضي في الحياة مذهباً فعالاً : « أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمّن يمشي سوياً على صراط مستقيم . »( الملك ٢٢ ) .

• • •

يسلم المؤمن حياته لربه ويرهنها لعبادته متجرداً لوجه الله حنيفا متحرراً من سائر العلائق الهابطة . وتطيب حياته بأثر ذلك التوجه الموحد ـ يتبارك عمله وتزيد تقواه .

فالمؤمن من تحرير العبادة لله حـرّ الوجدان لا يعتقله محيطه الكوني أو الاجتماعي ، وسعيه من ثم طليق يهدف إلى غاية واحدة على نحو واحـد ـ لا يلتفت الهم إلى شيء سوى الله ولا تتشتت الطاقة على شركاء من دونـه ، بل يضطرد العمل والتقدم حتى يبلغ أعلى المقامات .

ولقد تهيأ لنا قبلاً تفصيل الحديث في معنى العبادة ، ورأينا كيف تتحد حيـاة العابد الذاكر في ظاهرها ـ التزاماً دقيقاً بشرع الله ، وفي باطنها ـ توجها مخلصاً إليه . ورأينا كيف ينعتق الإنسان بتمحيص توحيـد الله من الوقوع في أسر المظاهر الكونية أو الذوات البشرية ويتحرر من التعبد لهواه . ورأينا أن معنى الإخلاص كما يسري على مذهب المؤمن وموقفه العام في الحياة يشمل أعمـاله المعينة فينظمها جميعاً في سلك واحد ، ويسوي ما بين شعائر





التعبد الخالصة الموضوعة لذكر الله وشتى الأعمال التي تتجه بقصدها المباشر لبعض أغراض الدنيا فيصلها المؤمن بمقاصد الدين والتي تقع في شكل عفو فيوقعها المؤمن بما يوافق حكم الله . ورأينا كيف يسع معنى العبادة شئون الدنيا وأحوالها ويشمل محقرات الأعمال وجلائلها ، فلا يكاد المؤمن ـ اذا كان ذاكراً ـ يسكن او يتحرك إلا بنية تتوخى طاعة الله والقربى إليه . ولقد رأينا أيضاً كيف تطرأ شوائب النفاق فتفسد تلك الوحـدة في طبيعة عمل العبد ـ إذ يقع منه العمل موافقاً لاشكال العبادة أو ملتزماً بشروط الشرع الظاهرة بينما ينبعث عن نية منقطعة أو مدبرة عن الله ـ كأن يتخذ مراءاة للناس أو سبباً لقضاء غرض دنيوي أو ذريعة إلى معصية الله .

ولئن كانت الحياة بالإيمان والعبادة محررة موحدة تهدف إلى الله على صراط مستقيم ـ فإنها بالشرك في تعويق واختلاف . فالمشرك ـ أولاً ـ معوق السير لأنه لم يتحرر من تعلقات وجوده الأرضي . فمن الشرك ما يأسر صاحبه في الوله ببعض مظاهر الطبيعة فيحجم رهبـة وإجلالاً أن يقتحمها بعلمه أو يسخّرها لمصلحته كما ينبغي من شأن الإنسان . ومنه ما يعلق الإنسان بذوات بشرية مثله ـ يتكل عليهم في أمر حياته ويترك المسعى بعد ذلك ، أو يرتهن لديهم ولا تطيب نفسه بأن يتجاوز مقامهم ليحقق مغزى وجوده الفردي ويبلغ غاية مقدوره . ومنه ما يعتقل المرء في إطار التقاليد الموروثة فلا يجرؤ منها فكاكا ليطرق آفاق الحياة الرحبة . ثم من الشرك ما يتبع فيه المرء هواه فيحتبس على نفسه ويغدو متعبداً لشهواته الساذجة المباشرة .

ثم إن حياة المشرك ـ ثانياً ـ لا يتحقق فيها وحدة ولا ثبات ، بل تتشقق جوانبها فيختصم بعضها من بعض وتتقلب مذاهبها فينقطع ماضيها عن حاضرها ولا تكاد تتقدم إلا قليلاً . ذلك أن الإنسان ـ اذا ضل بحياته عن الدين لا تضبطها معاني العبادة ولا أحكام الشريعة ـ فهو إنما يعول على ظن بشري يتقلب وينزع به شتى المنازع . وقد يتسع علـم البشر ويَرشد عقلهم فيتحررون شيئاً مّا من وطأة أوضاعهم وأهوائهم المباشرة ويطمعون في ابتداع

مذهب شامل لتدبير شئون الحياة وتوجيه مسارها بإيجاب وحكمة . ولكن مذهباً يؤسس على علم بشري قاصر وهوى جانح لا يفلح أبداً في تحقيق الوحدة والاستقرار في نهج الحياة – لأن علم البشر يصيب ويخطىء وما ينفك يتسع ويتبدل فتتبدل آراؤهم وتضطرب ، ولأن الهوى يقلّب لا يتجه لحاجة إلا ليتحول إلى أخرى تبعاً لنوازع الشهوة وصروف الواقع المتغير . لكن المؤمن يجمع شعاب حياته ويصل أولها بآخرها في خطة واحدة مادتها العبادة وإطارها الشريعة ، فعمله من ثم متكامل متناصر وسعيه في سبيل الله مضطرد متواصل . ذلك بينما يحيا الإنسان بغير الدين متردداً تتعاقب عليه الاتجاهات بل تتنازعه في ذات الوقت فيضحى ضلّيلا يتقطع عمله ويتناقض فلا يتحصل به الحصول الذي يتوافر بالاستقامة والثبات .

وفي العبادة الخالصة المحررة من الشرك ما يزيد تقوى الإنسان ويقوي التزامه بنهج الحياة الأوفق . فكثيراً ما يقع الإنسان في الشر مسايرة لتقليد شائع أو اقتداء بغيره أو ائتماراً بأمر كبير . لكن المؤمن يسند الحق كله لله ويسلم الطاعة كلها لشرعه ويجعل الخشية من عذابه والرجاء لرحمته ، فلا يطيع مخلوقاً في معصية الخالق ، ويقدر مسئوليته العينية التي لا يجديه فيها اعتذار بما درج عليه الناس ولا تلاوم تتقاذف فيه التبعة بين مستكبر ومستضعف . ثم إن الهوى الذي يقع فيه الإنسان بالضلال عن ربه يزين العدوان على الحدود والحقوق في سبيل إرواء الشهوات . وقد يتواضع الناس على ضوابط للأخلاق معروفة ، ولكن المناهج الوضعية المؤسسة على الرأي والهوى عرضة – كما قدمنا – للتقلب والاختلاف – مما تضطرب منه قيم السلوك فلا يتمكن في النفوس توقيرها . أما المؤمنون فإنهم يخلصون العبادة لله فلا يتابعون هوى ولا يوالون شيطاناً في مسخطة الله وينضبطون بحدود الدين الثابتة التي لا مراء فيها ولا تبديل .

وبما يتوجه المؤمن إلى ربه تنتصب له غاية واحدة جامعة متعالية يرقى نحوها دائباً فيتقرب إليها زلفى دون أن يبلغ منتهاها . وفي ذلك التعالي





ما ينهض بهمة المؤمن – إذ ما يبلغ درجة في الجهد والتقوى أو يتجافى عن مقام من الإثم والتقصير إلا بدت له درجات بعدها وطمع في مقامات أعلى . ومهما تسامت تعلقات البشر الأرضية ومثلهم العليا الوضعية فإنها لا ترقى بصاحبها نحو الكمال ما يرقى به التعلق بالله ، بل تنحط إلى أهداف جزئية دنيا إذا أدركها المرء أو داناها نفدت في نفسه دوافع السعي قدما وأسلم إلى التبلد حتى يلقى هدفاً آخر يؤمه بهمة جديدة .

• • •

قد قررنا فيما سلف أن حياة المؤمن الهادفة إلى الله تضبطها شريعة ثابتة متسقة تسع الحياة جميعاً وتوحد شعابها فتجعلها نظماً محكماً لا ثغرة فيه ولا نقيصة . فلنؤكد ما في وحدة الحياة الدينية من خير ببيان وجيز للآثار العملية المترتبة عن شمول أحكام الشريعة واتساقها وثباتها .

يطرق المؤمن المهتدي بهدى الله الشامل كل أبواب الحياة بدينه – لأنه يرهنها كلها لعبادة الله ويجد في شريعته تبياناً لكل شأن منها ، فلا يقدم على شيء إلا لاح له فيه وجه لابتغاء مرضاة الله ولتوخي حكمه في طرائق الأخذ به . ولا ريب أن المؤمن الواحد محدود بمواهبه وظروفه الخاصة لا تتيسر له الاستجابة إلا لبعض توجيهات الشريعة ، لكن في هدي الشريعة شمول يستغرق حياة البشر ، فإذا أخذ كل مؤمن بنصيبه من الدين تكامل المؤمنون في جماعتهم ليقيموا حياة ثرّة مباركة لكل فيها شرك معلوم لكنها نسج منتظم تسري فيها روح العبادة وتسودها سمات الشرع الواحد . فليست الشريعة هدياً جزئياً يعالج شأناً واحداً ويترك ما سواه عطلا أو يقتصر على جلائل الأعمال ويهمل صغائرها ، فإن جوانب الحياة إذا لم ينتظمها دستور موحد الحكمة كانت قابلة لأن تتناقض ويكون بعضها سلباً من بعض .

والشريعة عقد إسلام لله لا يحيد المؤمن عن نصه وشرطه ، وهي دستور لازم ، العبد فيه متبع لا مبتدع تعصمه عقيدة التوحيد من أن يفرط فيه شيئاً

أو يطلب الهدى في غيره مهما نازعته الأهواء وامتحنته الظروف ، وتعصمه دواعي الطاعة من أن يتخذه مزاعم أو نظريات لا تصدقها الاستجابة الفعلية ، ويعصمه علمه من أن يتيه عنه جهلاً أو يأخذه فيـــه التنطع ويهيجه الحماس فيهوره في الضلال ، بـــل كلما اشتد إيمان المرء ازداد التزامه اتساعاً وعمقاً مراعياً دقائق الأحكام وفضائلها متوخياً في عمله تمـام الضبط والإحسان . فشرائع الدين العملية تأكيد وضمان لوحدة الاتجاه في حياة المؤمن وجهاده ، وشمولها سبب لاتساع همومه ، فعمله لذلك متكاثر متناصر ونتاجـــه مبارك وفير .

وتقيد المؤمن في سلوكه بأحكام شريعة شاملة يؤقيه تقواه ويضبط نظام علاقاته الاجتماعية . فليس في مجالات الحياة ولا في ضروب الأعمـال ما هـو غفل من أحكام الأخلاق ومن معنى التقوى . ولايخرج المؤمن من نطاق الأخلاق إن خلا بنفسه بل حياته خاصتها وعامتها سواء في الخضوع لحكم الله — لكل من وجهيها حدود ترعى ونظم تلتزم . وإنمـــا ذلك لأن تكليف الله عني يخاطب كل إنسان ورقابته محيطة لا يفلت منها أحد . فالمؤمن يراقب تقوى الله في كل عمل حقيراً كان أو خطيراً ، وهو حفيظ على قواعد الأخلاق في علاقاته جميعاً — يرعاها تجاه أهله وقومه الأدنين ، ويرعاها تجاه سائر البشر مواطنهم وغريبهم مؤمنهم وكافرهم ، فليس الدين قاصراً على تنظيم شئون الجماعات الداخلية يترك علاقات الشعوب والأمم فوضى بغير ضابط ، بل حيثما اتجه المؤمن أدركه تكليف الدين ولازمته المسئولية .

فالدين الحق معنى يقوم بالنفس ينتظم وجود الإنسان كله ، وشريعته توحد حياته بأسرها . أما الشرائع الوضعية فطبيعتها الجزئية نتيجة لازمة لقصور علم البشر وانحراف هواه . ولا يتحد بمثل تلك الشرائع أمر الإنسان ، بل يتوزع همه ويتفرق جهده وتقطع أوصال حياته . ولا تستقيم بها أخلاقه على نحو سوي ، بل ينحصر أثرها في جانب من الحياة أو في علاقات معينة إذا تجاوزها فجر . فغالب التزام الإنسان بغـير الدين قاصر على علاقاته العامة





فإذا خلا إلى خاصة أمره فسق ، ومنتسب إلى عصبيته وعلاقاته القبلية إذا خرج من إطارها المحدود تحلل من روابطه وضوابطه . وإنما ذلك لأنه لايلتزم في الخلق بمثل مستمدة من معان عليا شاملة مطلقة من الظروف الملابسة ولا يراعي رقابة رب سميع بصير محيط . ولا تغني الديانات الأرضية شيئاً في توحيد حياة الإنسان جمعاً لجاهداته وحفظاً لأخلاقه . فهي تنشأ في أوضاع ظرفية تطبعها بخصائصها فتجنح بمفهوم العبادة إلى حيث تقتضي الظروف التي تحكمت في تطور الديانة ، فإما نشأ الدين جزئياً أو بـــدأ شاملاً صحيحاً ثم اخترمته اعتبارات أخرى أملتها الظروف اللاحقة . ويترتب على انحصار التعبير عن الدين في مجال واحد أن الفاعلية التي يولدها تنزوي في مجال محدود ، بل إن ذلك في نهاية الأمر يؤدي إلى وهن تلك الفاعلية — لأن ممارسة شئون الحياة واقتحام تحدياتها واحترام علاقاتها بقوة من الإيمان هو الذي يعود عليه ذاته بالنماء ، فإذا ضاق مجال العمل الديني فالعاقبة أن يتضاءل الدين كله في نفس الإنسان ثم تتلاشى مظاهره في واقع الحياة .

وأحكام الشريعة محكمة لا تنتسخ ، فهي تؤسس الحياة على معان مستقرة . بيد أن في قواعدها سعة وفي بعض أحكامها مرانة — إذ يقتضى تغير الظروف التي تصاحب التطبيق تكييف الأحكام الفرعية بمـا يحقق الحكمة المقصودة في ضوء الواقع المتجدد ويكفل ثبات المعـــاني الكلية . فسعي المؤمنين لذلك مضطرد وماضيهم موصول بحاضرهم وبناؤهم متسام يتم كل خلف منهم ما بدأ السلف ويضيفون إلى ما كسبوا . وقيم الأخلاق بين المؤمنين مستقرة راسخة لا يعتريها اضطراب مهما تغيرت أحوالهم أو انتقلوا من بدو إلى حضر أو من مجتمع زراعي إلى صناعي أو تبدلت حياتهم بحـــكم التطورات الظرفية والعملية .

وتتجلى وحدة أحكام الشريعة — من بعد الشمول والثبات — في اتساق دقيق يحقق في واقع الحياة المؤمنة وحدة كاملة لا تتناقض مقاصدها ولا تتخاصم شعابها مهما بلغت من الاتساع . فكثيراً ما ينحصر همّ الناس بغير الدين في

مقصد واحد من الحياة يصبون فيه جهدهم كله فما يلبثون أن تدركهم مغبة التفريط في المقاصد الأخرى . ولكن هموم المؤمنين شاملة وحياتهم متكاملة يعنون بوجوهها جميعاً ويعالجون شئونها في اعتدال لا إفراط فيه ولا تفريط . فلئن كان كل منهم يضرب في الحياة كيفما يتيسر له فإن جملة سعيهم يتوافق نحو وجهة واحدة وتنحشد منه قـــوة هائلة لترقى بأوضاعهم رقيا عظيما .

وكثيرا ما تتناقض ضوابط الأخلاق لاختلاف الناس وتبـــاين تصوراتهم وتقديراتهم وربما تنازعت المجتمع الواحد أنمـاط شتى من أحكام السلوك — يمضي كل جيل أو فريق بمـا لديه منها ، أو يدعو قانونه لغير ما تدعو إليه آدابه العرفية . ولكن ضوابط السلوك في إطار الحياة الدينية تستمد كلها من تصورات العقيدة الواحدة ومن أصول أحكام الشريعة ، فمقتضاها واحد مهما اختلفت وسائلها ، وأثرها متناصر يعزز بعضها بعضا فتحدث في علاقات المؤمنين قدراً عظيماً من النظام والسلام .

ولعل من أخطر وجوه وحدة الدين التوافق الدقيق بين دواعي الإقدام ودواعي النظام والتقوى وما يترتب على ذلك من توازن واعتدال في الحياة الدينية . فقد تطغى نوازع النهضة بالناس وتلهيهم عن مراعاة الأخلاق وحفظ العدالة في قسمة الحظوظ ، أو يقعد بهم حرصهم على ضبط العلاقات وتسوية الحقوق عن توخي أسباب نهضتهم ، وقـــد يضخم كسب الناس في الحياة وتتضاءل دونه ضوابطهم الأخلاقية — فالعزة السياسية قد تغري أصحابها بالعدوان على الآخرين ، والقوة الاقتصادية قد تدعوهم للظلم والطغيان ، وسعة العلم قـد تؤدي إلى استغلاله في إهلاك البشر لا إسعادهم . ولكن للمؤمنين دوافع قوية نحو النهضة والعزة والعلم وسائرمظاهر فضل الإنسان وعز المؤمن على الكافر ، بينما تلازمهم ضوابط فعالة تزعهم وتزكي أخلاقهم . فهم مجاهدون سباقون في كل مجـــال ، ولكنهم أشد الناس تقوى قوامون في أمرهم كله بالعدل والاستقامة ، وكلما قويت أصول إيمانهم تسامت فيهم هـــذه الطبيعة المعتدلة ، بل في جهادهم مدد لأخلاقهم وفي زيادة تقواهم علاوة قوة لهم .





وإنما يختل هذا التوازن حين يضعف إيمان المؤمنين ، فتراهم في حالات الضعف والانحطاط يؤكدون معنى التقوى والمحافظة وينسون التوكل والإقدام . ولئن كان المؤمن المتباعد المتورع لا يخرج من حظيرة الدين ولا يسقط فضله كله بقعوده عن المجاهدة ، فإن خير المؤمنين من اعتدل بسيرته إيجاباً وسلباً فجاهد واتقى : « ... فضَّل الله المجـاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . » ( النساء ٩٥ ) . وسئل رسول الله ﷺ أي الناس أفضل ؟ فقال : « مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله : قالوا ثم من ؟ قال : مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره » ( البخاري ) .

### ٢ — الثبات والاستقامة في السيرة :

سيرة المؤمن واحدة لا يتوقف عنها ولا يتحرف . ذلك أنه شديد اليقين بحق دينـــه ونهجه في الحياة — بواحدانية الله وحتم لقائه وفرض عبادته ، وبصدق الرسالة وحجة الشريعة ووجوب الطاعة والتسليم . وإنمـا يشتد يقين المؤمن لمـــا يتوارد عليه من بينات العقل والوحي التي تؤكد سلطان الدين ودواعي الفطرة التي تهـــدي إليه . فإذا وثق المؤمن من حق المنهج الديني واطمأن إلى فلاح مصائره كان حرياً بأن يذعن له ويستجيب لدواعيه وأن تجيش نفسه بدوافع الإقدام المتوكل لتحقيقه في واقع الحياة .

وقد نهج الدين للانسان أن يسخر طبيعة الكون لحاجة حياته ويسخر حياته لعبادة الله ، وبشّره بأن ذلك طريق الفلاح الأكيد في الدنيا والآخرة . فالمؤمن يستعمل قوى الطبيعة وقوانينها اللازمة كما يعلمها بعقله وتجربته ويتبع القواعد الشرعية الواجبة كما بُلغها من أصول الدين ، فإذا أفرغ جهده في ذلك علماً وعملا فوض من بعد أمره إلى الله موقناً أنـــه تعـالى سيوفقه ويتم له ما لا يحيط به هو من أسباب النجاح . وما دامت أقدار الكون من أمر الله — هو الذي يقوم بالوجود ويأخذ بناصية الأشياء ويملك الضر والنفع — فإن هديه

تعالى أوفق ما يتفاعل به البشر مع المحيط الكوني ويتهيؤون به لتلقي المزيد من عونه وتوفيقه . فالاعتصام في نهج الحياة بالله – عبادة واستعانة – هو أمتن سبب يزيد ثقة المؤمن وتوكله وأقوى دافع يحفزه للاقدام .

وما انفك الإنسان عبر التاريخ يتخذ عقائد شتى طلباً لنهج يوافق أقدار الوجود المحتومة ليضمن لسعيه موافقة النجاح المضمون . فمن أمثلة العقائد القدرية – في صورتها الدينية – تلك المبادىء التي دعت لها حركة الإصلاح المسيحي – وخاصة « كالفن » – والتي أوحت لرواد النهضة الرأسمالية أنهم يستجيبون لداعية من الله وأنهم مؤيدون بقوة منه تعالى وأن النجاح المادي شاهد لهم على مصادفة قدر الله وعنايته . ولقد التمس اليهود هذه الطمأنينة في زعمهم بأنهم شعب الله المختار يخصهم بفضله ويوفقهم إلى ما يبتغون : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير . » ( المائدة ١٨ ) . وتبدو تلك العقيدة القدرية في صورة مادية في النظرية الماركسية التي تؤكد أن قدر التاريخ ماض لصالح طبقة العمال وما عليهم إلا أن يأخذوا بناصيته ليبلغوا الظفر حتماً وقدراً .

ولقد أخطأ الكتابيون والدهريون . فإن الذي يقدر الأقدار إنما هو الله، وهو تعالى لا يطوعها للبشر تبعاً لعنصرهم أو وضعهم الاجتماعي ، وإنما يرشد الناس بالوحي إلى وحي الأقدار حيث النهج القويم في طلب الفلاح ، فمن نفذ شرط الله تم له التوفيق بإذنه تعالى . فالعقيدة القدرية في الإيمان دعوة إلى العمل لا إلى الغرور . وتوكل المؤمن على الله واعتماده على حق شريعته هو سر إقدامه على المجاهدات العظيمة التي ينكص عن أمثالها غيره لا سيما حين يكون الطريق مخوفاً محفوفاً بالأخطار والعقبات . ذلك أن المخاوف توهن من همة السالك وتزعزع ثقته في صحة طريقه ولا يجابهها إلا مؤمن شديد الإيمان بحقه .





والمؤمن المستبصر المتوكل شديد الالتزام بنظم الحياة الدينية . فهو لما يستيقن من عاقبة الخير في منهاجه ولما يستبين منها دقيق الالتزام يتقي حدود الله ويحاذر أن يتعداها فيضل عن سبيله ويردى . ولا تؤسس الأخلاق على أصل متين إلا بالإيمان الواثق الذي يورثه الدين . فليس في التقاليد التي يتواضع عليها الناس ما يدعو للايمان بأنها حق وعدل مطلق واجب الاتباع – لأنها تابعة عن رأي البشر الذي يعتوره التردد والاختلاف وعن هواهم الذي لا يتنزه عن الظلم . أما أحكام الشريعة الدينية فإنها في اعتقاد المؤمن حق لا ينتسخ ولا يعتريه الباطل وعدل لا حيف فيه ولا محاباة لأنه حكم الله رب العالمين أجمعين ، فله في الشريعة اعتقاد يقين يتوكل على حقها توكلا ، ولها عليه سلطان عظيم يطيعها ويسلم لها تسليما .

• • •

والمؤمن في التزام الصبر سبب آخر لاستقامة حياته وسيرته على نهج واحد يضبطها إخلاص التوجه الى الله وينظمها معنى العبادة . فللمؤمن الصابر موقف واحد ثابت تجاه ضروف الحياة – إذ يقوم في كل حال ولدى كل واقعة بما يقتضيه ابتغاء وجه الله والطاعة لأمره مهتدياً في ذلك بقواعد الشريعة المبينة.

وان الانسان ليصدعه وقع الظروف التي تنتابه بالخير أو الشر فتزلزل موقفه وتزل به عن نهجه القويم : « ان الإنسان خلق هلوعا . إذا مسّه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . » ( المعارج ١٩ – ٢١ ) . فقد يعصف به الضر فيطير لبه ، فإما افتدى من مجابهة الواقع بالجحود الأحمق والفزع الى الاوهام ، أو ورط في الهم وقعد قانطاً في شعاب الماضي المنصرم ينكسه بفروض الخيال المتحسر ، أو أوهنت عزمه المصيبة وضعضعت ثقته في حق نهجه فاستبعد الشقة وقنط من بلوغ هدفه وتبلد مكسوراً مخذولاً . وقد يفجأ الإنسانَ الخير فيستخفه الفرح بما أتاه ، فإما أعجب بحظه وترك المجاهدة والحزم من بعد ، أو غره الغرور بعلمه وقدرته فطغى واستغنى : « وإذا

أنعمنا على الإنسان أعرض ونآ بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا . »
( الإسراء ٨٣ ) .

أما المؤمن فإن الدنيا عنده دار ابتلاء أكبر همه فيها أن يستقيم في كل حال على مقتضى العبادة . فما وقع به من الشر رضي منه بالقضاء المبرم الذي لا يرد ، وحمد ربه على ما أخذ فإنما هي ودائعه يصرفها ابتلاء وحكمة مقدرة ، ولم يقطع نفسه حسرة على ما فاته بل اعتصم برجاء رحمة الله واعتبر لمستقبله واستأنف سعيه صابراً متقياً . وما أتاه من خير قدر فيه إنعاماً من الله واختباراً فوفى شكره وعرف شرطه فاتقى الله فيما أولاه لا يسرف ولا يظلم ولا يطغى .

فالصبر تورثه شدة اليقين بحق الدين ، وهو ضمانة لثبات المؤمن على موقف واحد لا تحوله عنه غِيَر الظروف ولا فجأة الخير والشر — إذ يعدها ابتلاء لإخلاصه وجلده فلا يزداد في الحق إلا صلابة ويلتزم سيرته المستقيمة غير منقطع ولا منحرف : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . » ( آل عمران ١٤١ — ١٤٢ ) . فجهاد المؤمن من جراء ذلك نتوج مبارك بما يضطرد على منوال واحد .

وإذا تحرر المؤمن من وقع الحدثان أورثه ذلك أيضاً مزيداً من التقوى — لأن الحرمان لا يغريه بتطلب الحياة حريصاً شرساً لا يبالي بتعدي الحرمات وخوض الباطل ، ولأن الغناء لا يطغيه أو يدعوه إلى الشح والغرور . فحظوظ الدنيا التي يتهالك عليها سائر الناس فيتحاسدون ويصطرعون على أقدارها المحدودة ما هي في تصور المؤمن إلا أسباب ابتلاء لا شواهد فضل لأحد على أحد ، وإنما الفضل حقاً في موقف الإنسان منها كيف يكون ، والمنافسة العظمى هي في حظ الآخرة الذي هو خير وأبقى .

• • •



### ٣ — وحدة البواعث وإخلاصها :

تتحد بواعث العمل في حياة المؤمن فترجع كلها إلى حب الله وشكره ورجاء رحمته وخشية عذابه ، فيجد المؤمن من بواعثه المتناصرة دافعاً قوياً ينهض به إلى المجاهدات العظيمة التي تصلح الحياة بوجه وقدر بالغ مما لا يتأتى من دون الإيمان . وسرّ تلك الوحدة أن مقتضى الدين في واقع الحياة يوافق عين المصالح الدنيوية وأن مقاصد العبادة تشتمل على مقاصد الدنيا المباشرة وتحتويها في تصور واحد . فأعمال الدين الصالحة تتضمن كل ما يعالج الإنسان ابتغاء صلاحه الدنيوي العاجل شريطة أن يتجاوز ذلك الغرض المباشر ويسلكه في سياق عبادة الله باستصحاب النية المتوجهة إليه واتخاذ الإجراء الذي يوافق شرعه .

وإن المؤمن ليعتبر الحياة وجوداً واحداً مستمراً ينتظم دنياه التي يقضيها على مسرح الأرض اختباراً وابتلاء وأخراه في دار الخلود جزاءً وفاقا لما قدم وتماماً لما بدأ . فهو يباشر عمله في الدنيا بتصور شامل — ينظر في أبعاد العمل جميعاً ، ويوحد حساب عواقبه في الدنيا والآخرة ، ثم يتخذ منه موقف الفعل أو الترك بناء على هذا التصور الشامل الموحد . فترى المؤمن لذلك يقدم أحسن الأعمال وأكثرها طلباً لما يعود من مصلحة عاجلة موصولاً برجاء ما يُؤجل من عاقبة خير في الآخرة ، ويتقي السوء تقديراً لسوء نتائجه العاجلة فإن لاحت له فيه بعض مصلحة حاضرة اتقاه خوفاً من مآله يوم الفزع الأكبر .

وحين يتسع بالمؤمن علمه حتى يتحد عنده مشهود الوجود وغيبه يتوجه إلى الله بالحب كله — لا يستشعر وجود ذاته إلا تذكر أن خلقه وقيامه بالله فلا يحب نفسه إلا كان لله أصل ذلك الحب ، ولا يستهويه شيء من صور الجمال والكمال إلا ردّ ذلك إلى ربه وازداد منه به تعلقاً . ومن حب المؤمن لله يحب رسوله الذي بلّغ عنه وقاد موكب السالكين إليه ويحب المؤمنين لأنهم

رفاقه وأعوانه في الطريق . وينجذب المؤمن نحو ربـه بدافع الحب فينشُد القرب في توحيد شأنه مع أمر الله وحكمه فلا يتحرك إلا موافقاً لإرادته لعله يدخل في رحمته وينغمر برضوانه . فواقع الحب عند المؤمن واحـد يتناصر ولا يتناقض ـ إذ يلتمس المؤمن رضى نفسه فيما يرضي ربه ويصل حبه لاتباع الرسول وتقديره لجماعته بتوقيره لربه .

وإذا كانت نفس الإنسان ترتاح لرد الجميل وشكره فإن المؤمن يرى الجميل كله لله مالك الملك الذي يرجع إليه الأصل في كل إحسان . بل إن المؤمن يعرف أن الله قد أعطاه نعمة الوجود الكبرى ، فيرى أن أوفى الشكر عليه أن يرد ذاته إلى ربها راهناً حياته كلها لعبادته .

فدواعي العمل التي تتوارد على المؤمن عظيمة مضاعفة يتحد فيها كل الحب وكل الشكر وكل الرغباء والرهباء ـ سواء من ذلك ما انبعث من علاقات الدنيا أو من مجرد ابتغاء وجه الله وتقدير الجزاء يوم الدين . ولا يستوي ذلك والذي لا يعمل إلا لبعض ما يعمل المؤمن لأجله ، ولا تعمر حياة بصالحات الأعمال كما تعمر حياة المؤمنين . وقد يروم الناس إصلاح حياتهم على نحو فعال بمعزل عن الدين فتنتظم منهم جماعة لحشد الجهود ويتواصى أفرادهم بمضاعفة العمل والعطاء . لكن الفرد لا يتوجه من ذات نفسه الى عمل لا ينفعه ، وقد يبلغ من الكدح حداً يستعظم بعده التكاليف بالنسبة لما يرتجي ، فإذا زهد أو بلغ حد الكفاية ركن إلى القناعة ونكص عن المجاهدة . بيد أن الجماعة تطالبه عندئذ باقتحام المشاق وتجاوز الحد الطوعي في المثابرة اذا قدرت في مزيد العمل مصلحة من حيث لا يقدر أو قومتها بأكثر ممـا يحسب ، وتتأيد تلك المطالبة بأجر يُنصب إزاء نظر الفرد يكافىء الجهد المطلوب لعله ينهض إليه بباعث الرجاء الفطري فيكون أدنى الى أن يخلص في الأداء ويبـذل قصارى ما تسعفه الطاقة . ولكن خزائن المجتمع من الأجور محـدودة ولا يتيسر له أبدا أن يعطي كل فرد حق يرضى ، فهو يلجأ من ثم الى أسلوب التربية كيما يستقيم الأفراد وتنعدل قيمتهم فيفنوا في جماعتهم ويستشعروا



الاتحاد معها في حساب التكاليف والمرجوع ويبذلوا من أجلها بسماحة وإيثار .

فإذا لم يستقم بذلك الأفراد فلا مناص في تسليط خوف العقاب يقهر به الناس قهراً . وتلك خطة كل مجتمع يواجه ظروف نهضة أو أزمـة حيث تقصر امكانات الأجر عن عظيم الجهد المطلوب في حين لا يجود الأفراد بالعمل طوعاً ولا يستجيبون لتوجيهات القيادة . ولئن أجدى القهر في كف الأفراد عن المناهي فإن المرء لا يبذل كثيراً وهـو مقسور بل يرائي ويراوغ ويتثاقل ويتكلف العجز ، ولنظم القهر ذاتها حدود لأنها لا تحيط بكل فرد ، كما أن للفرد من جانبه حدوداً لا يبالي بعدها بشيء مما يمكن أن يفعله به البشر. وقد يغني أسلوب العقاب غناء مّا لفرض بعض الواجبات الأولية التي لا تثقل على عامة الناس ولا يكون منها بد ، فإذا تسامت الأغراض وتصاعدت المشقة فإن سياسة الإرهاب ليست بالمثلى ـ نفعها قليل ثم لا يؤمن معها وخـيم العواقب .

ثم ان الفرد يتوجه الى حيث تدعوه شهوته أو ينزع به غضبه وهواه ، وقد لا يبالي لأول وهلة بما في ذلك من اضرار بالآخرين أو اخلال بنظم الجماعة. ويحاول المجتمع لذلك أن يسلط عليه من المؤثرات ما يدعوه لكف يده عند حدود الاخلاق المعروفة والنظم المرعية . ولا سبيل للافتداء من كل عاد بالأجر ، بل يلجأ المجتمع في غالب أمره للترهيب بالعقاب ليرتدع الذي يهم بالجناية . فمن العقاب ما تتضمنه مواقف الناس عامة من انكار الشر ونبـذ الشرار ، ومنه ما ينظمه القانون بإجراءات فعالة منضبطة . ولكن الضغط الاجتماعي والقانون لا يطهران المجتمع من ظواهر الشر والعدوان لقصور الرقابة البشرية على عمل الفرد وضيق الحدود العملية التي يمكن فيها ممـارسة الضبط وإيقاع العقاب على كل جان .

أما في المجتمع المؤمن فإن ابتغاء الفرد لمصالحه العاجلة ونظام الجزاء الذي تبسطه الجماعة على أفرادها والتربية التي تتعهدها بها ليستشعروا الإخاء والاتحاد

ـ كل تلك العوامل يتصل مقتضاها ويتقوى مفعولها بالمعاني الدينية التي تؤثر على الفرد من تلقاء ضميره ـ إذ يرجو المؤمن بعدها من الله أجـــراً عظيماً مضاعفاً لا بخس فيه ولا نفاد لمدده ، وينهض لذلك إلى أجـــل المجاهدات مستجيباً متى ندب مسارعاً في الخيرات باذلاً للمال والنفس في سبيل الله :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . » ( التوبة ١٠٥ ) ، كما أنه يخشى بعدها من رقابة الله مالا يفلت منه ومن عقابه ما هو أشد وأبقى . وتعرض عقيدة الإيمان بالآخرة مافي الجزاء الاجتماعي من مناقص ، فاعتبار الآخرة أوقع على النفس ـ لأن جزاءها أشد إسعاداً وإيلاما ، ولأنه يوفي بالعدل منسوباً الى مدى قدرة العامل والى ظروف التعسير والتيسير التي تحيط به ، ولأنه عيني محتوم يصيب خيره فاعل الخير ويقع شره على كاسب الشر لا يشرك فيه وليس له حول . ونظراً لوحدة معاني الدين فإن دواعي العقيدة التي تجيش بها نفس الفرد وعوامل التأثير الاجتماعي تتسق كلها في وجهة واحدة وتتحد لتورث المؤمن حباً للخير وفناء في عمل الصالحات وبغضاً للشر والتزاماً لمقتضى التقوى ومكارم الأخلاق وترقى حياة المؤمنين وتطيب من ذلك بما لا يعهده الناس بغير الدين .

وإنما ذلك شأن الدين الصحيح . فمن دين البشر ما هو فطري ساذج ليس فيه مكان لعقيدة الابتلاء والمسئولية التي تحض الإنسان على العمل وتدعوه للجهاد والمسابقة . ومثال ذلك التصورات التي تدعي تناسخ الأرواح ، فلا يراقب صاحبها حساب عمله ولا ينظر ما هو مقدم لنفسه في عمره المحدود . ومنه العقائد التي تجعل القدر قوة قاهرة مسيرة ، فلا تضطرب نفس صاحبها بالرجاء والخوف أو الرضى والندم أو الاعتبار فيما يفعل ويترك ، بل تزين له أن يعتذر عن كل تقصير أو خطأ بأنه مقتضى القدر اللازم .

• • •





ويتحلى المؤمن في سيرته بصدق صراح مرده الى وحدة بواعثه في الحياة وشدة وقعها على نفسه . وإن الإيمان ليستتبع الصدق والالتزام ـ لأنه بيعة بين العبد وربه تقتضي إسلام الحياة كلها لله وفاقاً لشروط معلومة ، ولأنه تكليف يحتمل طوعاً لاكره فيه ويسأل عنه بين يدي الله الذي لا تخفى عليه خافية . ومن ثم كان صاحب الإيمان أخلص الناس وأصدقهم مذهباً ، أمره واحد ـ زعمه وفعله . فالمبادىء التي يتخذها ليست تصورات نظر ولا دعاوى جوفاء ، بل هي عقائد يصدقها العمل الفعلي ومناهج تطبق في واقع الحياة :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون . » ( الحجرات ١٤ ـ ١٥ ) .

وليس الدين تكليفاً عاماً يتواصى به الناس قولاً ثم يتواكلون في تنفيذه ، وإنما منه أنصباء عينية تحق على كل مؤمن ومنه واجبات كفائية تقع على جماعة معينة . ولئن كان في أصحاب النحل من يتخذون مذهبهم شعاراً نظرياً لا يلتزمون منه بنهج عملي معلوم ، فإن المؤمنين يصدقون القول بالعمل وواقعهم أقرب إلى ما ينبغي من واقع كل ذوي مذهب آخر .

• • •

ولما كانت مقاصد الحياة المؤمنة تتحد كلها وتتصوب نحو ابتغاء وجه الله فإن أمر المؤمن واحد من حيث ظاهره وباطنه . فليس من خلقه أن يتخذ دينه طلاء ظاهرياً يرائي به الناس أو أن يبتغي في عمله أغراضاً تنحرف عن مقاصد الدين المشروعة . ولعل المقابلة بين الصدق والنفاق لا تتأكد في مذهب كما هي في الدين ـ لأن الدين لله والله لا يقبل عملاً قصد به الرياء ولا ترضيه إلا النية الخالصة من كل شائبة والسيرة التي تتحد مع السريرة .

وإن المؤمن ليجعل همه الأكبر إحسان عمله بالنية المتوجهة الى الله بوعي

حاضر والمخلصة من شوائب المنافقة . فدقة الالتزام من غير ذكر الله تجعل الدين طقوساً شكلية ورسوماً ظاهرية . وذلك هو مثال الدين حين يصبح نظاماً اجتماعياً يراعى تقديراً للتقاليد ورياء للناس فترى صاحبه يجتهد في ضبط عمله والتعمق فيه وباطنه خواء من الإيمان . ولكن الاعتبار الاول في الدين الصحيح ليس لضبط طقوس العبادة ولا لتقديم القرابين ، وإنما هو للانفعال النفسي الذي يصاحب ذلك : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ... » ( الحج ٣٧ ) . ولا يلبث الدين إذا أفرغ من دوافعه ومعانيه النفسية أن يذبل فيموت ثم يعفو بعد ذلك رسمه . وقد كان ذلك هو شأن الدين المسيحي في العصور الوسطى ، وأدى الأمر الى حركة الإصلاح التي بعثها « لوثر » وحمل فيها على أشكال الدين حملة شعواء انتهت في تاريخ لاحق إلى دين قوامه الموقف الباطني المجرد الذي لا يكاد ينعكس بشيء في الحياة . ولم يسلم تاريخ المسلمين من شيوع هذه الظاهرة ، فقد جنح متأخرة فقهائهم إلى الشكلية حتى ارتد عليهم غلاة الصوفية بدين باطني يكاد ينكر أحكام الشريعة العملية . سوى أن الله يقيض للمسلمين بأصولهم المحفوظة من يحيي لهم معاني الدين كلما غدا قشوراً خاوية ومن يرد الاعتبار للشريعة كلما فرط فيها دعاة الباطنية حتى يتحد الدين ويعتدل ظاهره وباطنه .

فالمؤمن الحق إذا احتمل تكليفاً أو هم بعمل أحسن الوفاء والأداء — لا يقول مالا يفعل ، ولا ينشط في العلن ويتقاعس في السر ، أو يزين عمله ظاهراً ثم يفسده بما يبطن من التقصير . فعمل المؤمن من جراء هذا الإخلاص نتوج رابح في الدنيا والآخرة . وإذا اتقى المؤمن مواطن السوء اتقاها في سره كما يفعل في الملأ مؤمناً أن الله حاضر لديه رقيب عليه في السر والنجوى والعلن . فاستشعار رقابة الله الدائمة ذو أثر فعال في ضبط السلوك يتأكد في واقع المؤمنين بما تتضمنه حياتهم الاجتماعية من وسائل قيد السلوك . وتستقيم من ذلك الانضباط علاقات المجتمع المؤمن استقامة لا يضاهيها ما يحاول الناس





بالقانون والرقابة الاجتماعية وحدهما . فليس في مقدور المجتمع أن يحيط كل فرد برقابة كاملة ويلازمه بعوامل التأثير . فإذا لم يكن للفرد وازع من ضميره ولم يعتبر إلا بما قد يناله من قبل المجتمع لم يحفظ من التقوى الا مظهراً وقدراً محدوداً — اذ يتسنى له فيما وراء ذلك أن يفلت من رقابة المجتمع أو أن يتقي جزاءاته بحصانة يستمدها من جاهه وقوته . لكن الحياة الدينية تضيف الى هذا الاعتبار المحدود عامل تقوى الله حباً وشكراً ورجاء وخشية وتتحد فيها دواعي الدين المنبعثة من الضمير المؤمن وعوامل التأثير الاجتماعية المنبنية على أحكام الدين ، فيتسامى فيها خلق الفرد ويسود الأمن والطهر في علاقات المجتمع .

## ٤ — وحدة الوجود الاجتماعي :

تتحد حياة الإنسان بالدين من حيث هو فذ ومن حيث هو عضو في جماعة المؤمنين — دون أن يكون أحد الوجهين في حياته خصماً على الآخر . فالدين اعتقاد من وعي الإنسان ومشيئته تنعقد به بيعة شخصية بين العبد وربه ، ويترتب به عليه تكليف عيني بحسب الظروف التي تكتنفه والعلاقات التي تنتسج حوله وبقدر وسعه من العلم والطاقة ، ويقوّم لكل أحد محصوله من العبادة بنسبة حظه من الابتلاء وكسبه من أعمال الإحسان والإساءة ، ويقوم لربه يوم القيامة فرداً ليحصي له حسابه ويلقى جزاءه — لا يشاطره أحد فيما حق عليه من عقاب ، وليس له من الأجر إلا بما سعى . ولئن كانت أحكام الشريعة واحدة تسري على وجه العموم والاستواء ، فإنها لا تؤدي الى أن ينطبع المؤمنون طبيعة واحدة تطمس وجوه خصوصية الفرد — لأن الأحكام على وحدتها تتفاوت في درجة التكليف : منها الواجبات اللازمة ومنها التوجيهات التي تهدي نحو الفضائل ، ففيها مجال واسع لتنافس المتنافسين وتفاوت الدرجات . ثم إن الأحكام منوطة بالأحوال والظروف ، وإنما ينبغي على كل فرد أن يستنبط جملة الأحكام التي تخص واقعه المخصوص ويجتهد حتى

يبلغ حد طاقته ومنتهى كماله في المجال المتاح له من الحياة . فلكل إنسان من أجل ذلك قدر مخصوص لا يضيع في غمار الجماعة .

لكن المؤمن يستشعر بعض اتحاد مع سائر البشر لأنهم رفقاؤه في الخلق والقدر والمصير خلقهم الله من طينة واحدة وأتاح لهم مجال الحياة على نفس شرط الابتلاء ثم يقومون يوم الحشر على موقف سواء . ويحس المؤمن بإخاء أوثق نحو المؤمنين لأنهم – بعد رفاقة البشر – أجمعوا على ارادة الإيمان فقصدهم كلهم لقاء الله وهمهم عبادته ونهجهم شريعته . ويجد المؤمن مناط تكليفه وقاعدة مسئوليته في علاقاته بالمؤمنين ، ويلفى في التعاون معهم سبباً للترقي بقدر عبادته – إذ يعالجون معاً مالا يتم إلا بالمشاركة ويدركون مالا يتيسر إلا بالاتحاد . وكيفما تقلب المؤمن في سيرته وعمله وافق سنة المؤمنين كافة لأنهم يهتدون بشريعة واحدة تأمرهم بذات وجوه البر وتنهاهم عن المنكرات ويحتكمون إليها فتفصل بينهم بالعدل المرضي .

فالمؤمن يعرف قدر نفسه المخصوص ويحفظه بذات الوجه الذي يعرف به قدر الجماعة ويحفظه ، وله في الشريعة بيان عادل لما له وما عليه . فحيثما كان موقع المؤمن في الجماعة راعى ما يكسب لنفسه من التقوى والعمل الصالح وما ينافس من أجلها في مراتب العبادة مؤدياً في سياق ذلك ما ينبغي نحو جماعته من طاعة فيما تأمر به وتجاوب فيما تجمع عليه – تناصحاً في الشئون العامة أو تضامناً في المعاش أو تناصراً في سبيل الله . فلكل مؤمن شأن مخصوص مع ربه ولكن ذلك يقتضيه – من بعد العبادات الفردية التي لايكاد يخالطها حق أو شرك لأحد – تكليفات عامة تتمخض عنها علاقات الناس وحقوق بعضهم على بعض . فحقوق الأفراد الآخرين أو جملة الجماعة هي من حقوق الله التي يرعاها الفرد من حيث يرعى شأنه ويقدم لخويصة نفسه عند ربه .

● ● ●





وتكون من ثم جماعة المؤمنين بناءً وثيقاً على أساس وطيد ، فالذي بينهم من وحدة التوجه الى الله والتعاون على عبادته يدعوهم إلى الانحياز فئة واحدة تمتز بأمرها من دون الناس ويعقد بينهم أسباب الإخاء والتناصر والموالاة . وتسود في حياتهم أحكام الشريعة الواحدة فتؤلف مذاهبهم فيما يختلف في مثله البشر ، وتقوم بينهم معياراً ثابتاً للحق ، ويتخذونها ميزاناً عدلاً يفصل بينهم بالسوية المرضية ويرتب الحدود والحقوق والعلاقات ، وتتمكن معانيها في نفوسهم يؤكدها توقيرهم لأمر الله وتقديرهم للمساءلة بين يديه فيعتصمون بحقها لا يختلفون من بعدها بآرائهم ويقومون بقسطها متجردين من أهواء العصبية والانتفاع الشحيح – التي تزدوج بها المعايير فيزين للمرء أن يستوفي لنفسه وأوليائه ويبخس الآخرين والتي ينتشر من جرائها في المجتمع الشقاق والتظالم . وتنشأ في مجتمع المؤمنين نظم وعلاقات شتى تحقق معنى الوحدة والتعاون في المجال الاقتصادي والاجتماعي ، وينصبون على أمرهم السياسي ولاية عامة قائمة بقوة تستمد من قوى المؤمنين ألفتها وحدة الاعتقاد والشعور والمنهج فانصبت في مركز واحد . وإنما تهدف السياسة الشرعية التي تتمثل في نظم المجتمع ويرعاها أولو الأمر الى تحقيق معاني الحياة الدينية في الواقع وتمكين الأفراد من عبادة ربهم اختصاصاً واشتراكاً . وتنبثق تلك السياسة من ارادتهم العامة المتمثلة في الشريعة وما ينبني عليها من اجماع . ومن أجل ذلك يبسط أولو الأمر من قوة السلطان ما يدفع عن الجماعة ويحفظ لها طبيعتها المميزة ، وما يصون وحدتها بتوجيه الجهود الى مقاصد المعروف وتقويم الجنوح نحو المنكر ، وما يعدل في علاقاتها بميزان الشرع فيرد المظالم ويقرر الحقوق . لكن نظام الجماعة يحفظ للفرد مجاله المخصوص ليوفر له كرامة الإنسان وحرية الكسب وفاقاً لما يتضمنه معنى العبادة من فردية التكليف والمسئولية وبقدر ما تبينه الشريعة من العدل للفرد ورعاية حقوقه وحرماته .

فالمؤمن يتجه نحو العمل الصالح يتطلب به أغراض حياته المباشرة ويصلها بمقاصد الدين المتوجهة إلى الله ، فتأخذه دوافع فعالة نحو إعمار الحياة . ويتيح له وضعه الاجتماعي مجالاً من الحـــرية يمكنه من الانطلاق ، فتكثر مبادراته ويتبارك كسبه ويعظم شركه مع الآخرين . وتضع الجماعة على أفراد المؤمنين نظاماً يوجه أعمالهم نحـو الأهداف المعروفة ، وتبسط لهـــم مؤثرات تعزز دوافعهم نحوها ، ويتجاوبون مع أمر الجماعة لمـا يولونها من تقدير ولإطباقهم جميعاً على ذات الوجهة والشريعة . هكذا يعظم كسب المؤمن العامل بهدى الدين وحوافزه ثم تتواكب مساعي المؤمنين لما بينهم من وحدة المذهب ونظام الحياة ، فتنحشد منهم جهود ضخمة تتجلى آثارها الخيرة في الحياة . والمؤمنون – من وجه آخر – يوفرون جل طاقاتهم للبناء لأن أخلاقهم تقيهم كثيراً من المنازعات التي تبدد القوى وتضرب بعضها ببعض .

ويستشعر المؤمن من رقابة ربه ويقدر من حبه وشكره ويتوقع من حسابه ما يدعوه لتقوى الله والتزام حـدوده ، وتصاحبه تقواه حيثما كان لا يلهيه عنها اشتراكه مع غيره في شئون الحياة الجامعة لان له شأناً خاصاً مع ربـــه ومسئولية عينية لا يغني فيها التواكل والتدافع . وللمؤمنين كذلك داع للتقوى من حب أحدهم لإخوانه ، فليس من شأنه أن يحقر أخاه ووليه أو يخذله أو أن يعدو عليه يختصم من حقه . وتتأكد تقواهم بمـا تضع عليهم الجماعة من ضوابط السلوك التي تستتبعها الأعراف والقوانين ، ويتحد لديهـــم أثر تلك الضوابط واتجاه الضمير المنفعل بالإيمان فيورثانهم التزاماً دقيقاً بنظام الحياة ويكسبان المجتمع وئاما ووحدة وسلاما .

• • •

وليس في النظم الوضعية ما يضاهي الدين تأليفاً لشمل الجماعة على هدف وشريعة وصيانة للفرد ليقوم في كنفها حياً فعالاً بحوافزه الذاتية في المبادرة والمنافسة . فمن النظم ما يبسط الحـــرية لتشتجر الآراء في رحاب المجتمع





ويتجلى الإجماع الأصيل ، ولكن ذلك كثيراً ما يشقق حياة المجتمع مذاهب لكل شأن في الحيـاة هدف وخطة مختلفان ويقسم شمله أحزاباً كل حزب بنهجهم فرحون – يعوزهم معيار ثابت للحق يردون إليه الخلاف ، فيعمل كل فريق على شاكلته ويوزعون جهدهم أشتاتاً، ثم يستعسر عليهم ، ما افتقدوا عقيدة الإيمان ، أن يعقدوا في ذات بينهم إخاء شديداً من شأنه أن يكفكف أسباب الشقاق ويلقي أسباب التعاون والتنسيق ، فلا يتيسر لهم إلا وحدة محدودة أو تتهيأ لهم نهضة إلا بقدر ذلك ، ويفوتهم ما يتاح لهـم بلوغه لو وحدوا أمرهم وجمعوا القوة . ومن النظم ما يضيق بالحرية وما تستصحبه من الأخذ والرد والخلاف والنهضة البطيئة ، فيلتمس العزم القوي في الوحدة القهرية التي توضع فيها أهداف الحياة فرضاً ويزجر الناس نحوها بقوة السلطان ، ولكن الناس لا يتجاوبون بصدق وإيجاب إذا ندبوا لشأن لا يرتضونه ، فلا تتحقق بالقوة إلا وحدة شكلية غير فعالة . وقد تتمكن معاني الوحـدة في جمـــاعة محدودة بأثر العصبية الفطرية ذات الأثر القوي ، سوى أن العصبية لا تستتبع اتفاقاً على خطة كلية للنهضة بالحياة ، وإنمـا تنعقد حول معان محدودة تكاد تقتصر على إعزاز الجماعة والكيد لأعدائها ، فهي في إطارها المحصور وحـدة جزئية لغرض محدود وبالنسبة لعلاقات البشر عامة مدعاة للفرقة البائنة والشقاق البعيد .

وليست الديانات الأرضية بأدعى للوحدة المتينة ، فهي إما وثنية ضيقة لا تصلح أساساً لتوحيد البشر لأنهـا وليدة الظروف المحلية والظرفية ، أو عقائد جزئية محدودة ليس فيها شريعة شاملة تؤلف جهد المؤمنين ليعالجوا مجاهدات الحياة يداً واحدة ولا ينعقد بهـا إخاء إلا في مجـال التدين الضيق الذي تقتصر عليه .

وحين تؤسس جماعة البشر على قواعد وضعية فإن أخطر ما يعوزهم شريعة عادلة يتراضى عليها الناس أفراداً وطوائف وترفع بينهم التظالم والتغابن .

وذلك أن أصل ذلك الاجتماع لا يتضمن معنى يدعو لمراعاة المعدلة ، وإنما هو عصبية تقوم أساساً على الميل والمحاباة ، أو ابتغاء مصلحة عاجلة تغري بالحرص والشح والمخاصمة . فالشرائع الوضعية التي تسود في المجتمع الوضعي إنما تضعها الفئات المتغلبة فيه ، ومهما ُجوزت باسم الجماعة لا تمثل إلا أهواء المتغلبين بما فيها من ميل وظلم لا يتجرد منه هوى البشر ولا تلقى في نفوس غيرهم إلا سوء الظن والغبائن .

أما العدل بين شأن الفرد والجماعة وبين الحرية والنظام فلا تكاد تتوفق إليه معالجات البشر . فالمجتمعات التي تقوم بالعصبية تدمج في كيان حبيك لا يستميز فيه الأفراد بل تكون جل شئونه مشتركة لا يختص فيها أحدهم بكثير ، وتكون حياتهم تقارباً وثيقاً ومراقبة دائمة يسخّرون في حزم وانضباط للأغراض العامة . وقد أضحى الفرد عرضة لأن تغمره الجماعة في أغلب المجتمعات الحاضرة . فقد تهيأ فيها بوسائل الاتصال وأدوات القوة الحديثة الوصول إلى الفرد رغم تباعد الأقاليم واتساع الجماعة وتطويقه بوسائل الرقابة والتوجيه والقهر . كما تشعبت الحياة واشتبكت فلا قوام للأفراد إلا بعضهم ببعض ، وتعقدت أوضاعها وانتظمت حتى أصبحت الهموم جماعية والعمل جماعيا ــ مما مكـّن للدولة التي تمسك بزمام النظام العام أن تسحق الفرد وتكاد تبطل مغزى وجوده الفردي . ولئن كانت بعض المجتمعات تتيح للفرد حرية وحرمة فإنها لا تحتكم إلى ميزان عدل في حدود الحرية والنظام يتمكن من نفوس الأفراد ويتمثل في نظام الحياة ، فيعصم الفرد من الجنوح بحريته المباحة نحو الشذوذ عن الجماعة والإضرار بها ، ويحرسه من أن تصرعه اتجاهات الحياة الاجتماعية الحديثة التي كادت تحيل البشر قطيعاً من الأنعام .

وإذا انخسف الفرد في غمار الجماعة ــ لا يستبين في مقاصد حياتها ما يعنيه بوجه الخصوص ولا يجد في نظامها مجالاً لحريته ــ فإنما أثر ذلك أن تتضاءل مبادراته ويقلّ شركه في الشأن العام ، ثم يغفل عن مسئوليته الأخلاقية ويتسنى له أن يتقيها بإلقاء التبعة على ما يكتنفه من كيانات جماعية مبهمة .





فبالدين وحده تستقيم الحياة الاجتماعية نسجاً دقيقاً يختص فيه الفرد بجزئه ثم تندرج الأجزاء في نظام كلي تتوافق فيه الحركات وتتحد الغايات كأنه كائن عضوي حي . وقد يتفق للنظم الوضعية أن تقوم وتنهض ، ولكنها بالنسبة للمجتمع الديني الشرعي القويم أقل فاعلية وأضعف بأساً لأنها جسم معلول إن صحت أعضاؤه اختل نظام توجيهه وإن استقامت علاقاته انشلت أعضاؤه .

• • •

## كلمة المختتم

آخر المقال أن الدين عقيدة في الله مخلصة من الشرك ممحصة من الريب وسيرة مستغرقة في عبادة الله مستقيمة على شرعه المبين ، وأن بغية المؤمن مرضاة الله ووجهه إصلاح الآخرة . بيد أن الدين الخالص سبب أكيد لصلاح الحياة الدنيا ورقيها . وأن الدنيا حيثما انصلحت بوجه يستلهم معاني الدين ويستهدي شريعته تعود على الدين بالنماء والتزكية وتكون نعم الزاد للآخرة . وان المؤمن كلما سخّر من طبيعة الكون واعتلاها بالعلم والعمل تجاوزها متحرراً لعبادة ربه ، وكلما استوفى من أغراض الدنيا ارتفع همه مشرئباً نحو الآخرة ، وكلما تشعب سعيه في الحياة تباركت به أسباب العبادة لله . فإذا غفل الناس عن الله متخذين دينهم هجرياً وعكفوا على دنياهم يرومون إصلاحها بباعث الشهوة وحكم الهوى ، لم يدركوا منها إلا بعض مايدركون بالإيمان ، ثم لاتعقبهم تلك الخطة إلا فساداً في الدين — يتسع متاعهم فيلهيهم عن الله ، وتزدهر دنياهم فتفتنهم عن الآخرة ، وتغدو مقاصد الحياة العاجلة غاية لذاتها والهوى إلهاً معبوداً يوشك أن يردي أهله — يتطلبون من العلم والقوة والمتاع ما قد يستعملونه في مهالك الإنسان .

ولقد جرب المسلمون لاول أمرهم النهضة بدوافع الإيمان ، فأصابوا من الدنيا حظاً عظيماً لم يكن خصماً على الدين . ثم باخ الإيمان في النفوس ، فانتكس شأن المسلمين وأسلموا إلى الوسن — حتى أيقظتهم قوارع حضارة من أوربا لوّاحة طواحة أسست أصولها على أنقاض الدين وانبسطت شعابها في عالم وثيق الاتصال فقامت ملء السمع والبصر — وهماً بأنه لا يفوز بالدنيا





إلا من ينبذ الدين ، وفتنة للمسلمين الذين يرون أنفسهم في جنب الكفار خاسرين مغلوبين وهم يقرأون في كتابهم بشارات النصر والفلاح ! .

وإنما علة المسلمين في نفوسهم . فهل ترى يسنون سنة قوم قد ضلوا من قبل ويحاولون معالجة الحياة مدبرين عن الله ناكبين عن صراطه المستقيم ، فلا يكون نيلهم في الدنيا الا قليلا ثم لا تكون عاقبتهم الا خسراً ؟ أم تنبعث فيهم قوى الإيمان الصادق ، فيقبلون بها على الحياة تقاة متوكلين ليحققوا ما يرتجى لهم من نهضة رشيدة يبارك الله تعالى فيها ويدارك فتكون خيراً في دينهم ودنياهم وعاقبة أمرهم ؟ .

• • •

الموضوع | الصفحة

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الاتساق | ٢٩٦ |
| الثبات | ٣٠٠ |
| (ب) وحدة الحياة الدينية | ٣٠٤ |
| ١ – الوحدة في التوجيه والمنهاج | ٣٠٥ |
| ٢ – الثبات والاستقامة في السيرة | ٣١٣ |
| ٣ – وحدة البواعث وإخلاصها | ٣١٧ |
| ٤ – وحدة الوجود الاجتماعي | ٣٢٣ |
| كلمة المختتم | ٣٣٠ |

...كتور حسن الترابي



# الإيمان

## أثره في حياة الإنسان